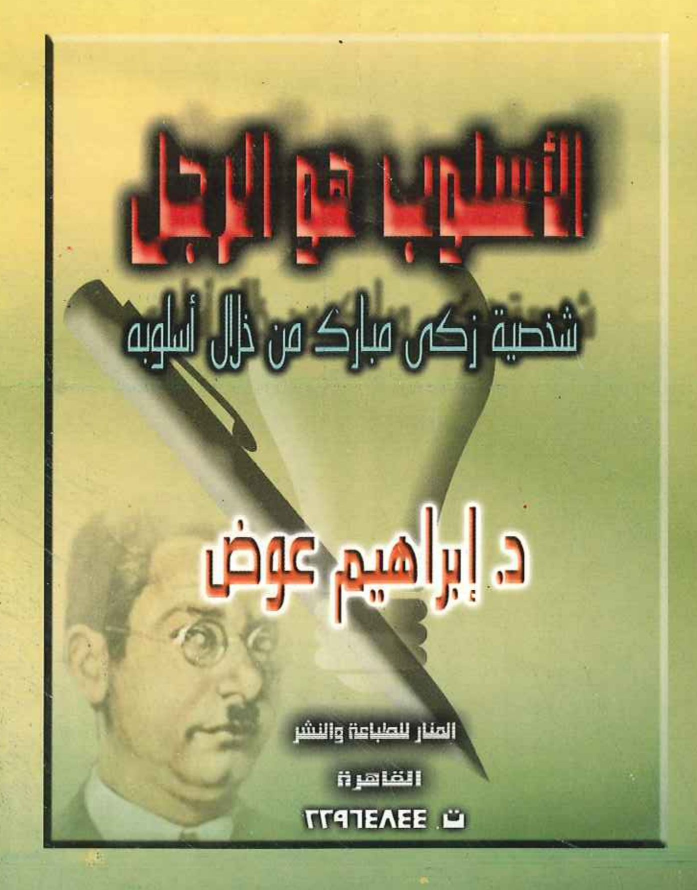
# الأسلوب هو الرجل

## شخصية زكي مبارك من خلال أسلوبه

د. إبراهيم عوض

المنار للطباعة والنشر
القاهرة
ت. ٢٢٩٦٤٨٤٤

الأسلوب هو الرجل شخصية زكي مبارك من خلال أسلوبه
د. إبراهيم عوض




الأسلوب
هو
الرجل

# الأسلوب هو الرجل

## شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه

# ( الأسلوب هو الرجل )

# شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه

د. إبراهيم عوض

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

المنار للطباعة والنشر

# المقدمة

هذه أول مرة ، فى حدود علمى ، يُقْدِم أحد النقاد على تشريح أسلوب « الدكاترة » زكى مبارك واستخلاص سمات شخصيته منه .

وقد أسعدنى أن أقوم بهذا العمل ، فأنا أحب زكى مبارك حبا شديدا منذ أن قرأتُ له أول كتاب ، وكان (على ما أذكر) هو كتاب «العشاق الثلاثة» ، الذى طالعتُه فى طنطا بين بيت أحد أصدقائى بشارع النحاس وحديقة البلدية بشارع البحر فى إجازة الصيف عقب حصولى على التوجيهية سنة ١٩٦٦م . وقد فتننى أسلوبه بما فيه صراحة وحرارة وجمال وإحكام وتفرّد ببعض الصيغ والألفاظ والعبارات مثل « الفُتُون » و « أما بعد ف ... » و « وثبة من وثبات الخيال » ... إلخ مما يجده القارئ فى الدراسة التى بين يديه، وهو ما يدل على أن الرجل قد اقتحم عقلى وقلبى اقتحاما منذ اللحظة الأولى ، رحمه الله رحمة واسعة .

وقد ازددت لذلك الأديب العملاق إعجابًا وحبًا وامتلأ قلبى عليه عطفًا ورحمة حين عرفتُ بما وقع عليه من غَبْنٍ غليظٍ بسبب صراحته فى انتقاد بعض الكُتّاب والمسؤولين بمصر، إذ أُخْرِج من الجامعة إخراجًا غير كريم وأُسْنِدَتْ إليه وظائف لا تليق به ولا بعلمه وأدبه ولا بشهادات الدكتوراه الثلاث التى حصل عليها بكل جدارة واستحقاق .

وهذا الكتاب الذى بين يدى القراء هو جزء مما أدين به لذلك الكاتب الكبير ، وبعضٌ من الترضية التى كان ينبغى أن تقدَّم إليه فى حياته لقاء الإجحاف الشنيع الذى وقع عليه ، ولعل روحه ترضى فى مستقرها عند ربها .

# الخصائص النفسية لأسلوب زكى مبارك

يقول بوفون (Buffon) الكاتب الفرنسى المشهور : « الأسلوب هو الرجل : Le style est l'homme même » ، يقصد أن لكل أديب أسلوبه الذى يميز كتاباته عن كتابات غيره ، أو أن الأسلوب يحمل عادةً الخصائص التى تتسم بها شخصية صاحبه . وهذه المقولة تتحقق أصدق ما تتحقق فى أسلوب الدكتور، أو إن شئت فقل : « الدكاترة » زكى مبارك كما كان يقول عن نفسه بحقّ ، إذ كان رحمه الله حاصلاً على ثلاث دكتوراهات : اثنتان من الجامعة المصرية ، وواحدة من السربون بباريس . ذلك أنه ، رحمه الله ، كان ذا نفس صريحة واضحة لا تعرف الاحتجاب أو المداورة. وقد التقط هذه السمةَ فيه المرحومُ محمود تيمور حين قال : « إن وقفة واحدة لك مع زكى مبارك خليقة أن تُظهرك على كل شيء فيه : ما عَلَنَ منه وما استتر . لقد كان ينفض نفسه ويكشف عن جليّته كشفًا فيركز لك خصائص شخصيته ويقدمها فى سهولة ويسر دون أن يرهقك فى تعرف هذه الشخصية واستبطان أسرارها والتفطّن إلى ما فيها من طرافة أو شذوذ »[١].

وكأن كاتبنا كان يعنى نفسه وهو يتحدث عن الشريف الرضى وكيف أن من الصعب جداً سرقة شيء من شعره لأن أسلوب هذا الشعر سينمّ عنه ويفضح سارقه . يقول : « فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره

---

(١) من مقال محمود تيمور عن زكى مبارك « فتى سنتريس » / مجلة « الهلال » / مايو ١٩٦٦م / ٥ .

عناء فى عناء . وهى نظرة لا تقع إلا من رجل مثقف العقل، وهى دليل على قوة الذاتية التى تُعَدّ من أهم العناصر فى مقومات الأدب والفنون . فالشاعر الوسط أو الكاتب الوسط أو الموسيقار الوسط تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحسّ أحد أنها نُقلَتْ من أرض إلى أرض ، ومن الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التى يتميز بها جيل عن جيل ولا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف . وأنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم : فشوقى ينمّ شعره عليه ، والبارودى ينمّ شعره عليه ، وكذلك ينمّ الأسلوب عن أمثال إبراهيم المازنى وطه حسين ولو نشروا رسائلهم بدون إمضاء »[١] .

بل لقد قال كاتبنا ذلك عن نفسه حين انتقد أحدُ الكتاب أسلوبه النثرى قائلاً إن الفن فيه قليل ، فانبرى زكى مبارك يردّ عليه موضحًا أنه فى بداية حياته كان يحسب الفنَّ فى الكتابة النثرية هو النسخ على منوال بديع الزمان والحريرى والخوارزمى والصابى وابن العميد ممن كانوا يتأنقون فى نثرهم تأنقا ويعتنون بالمحسّنات البلاغية اعتناء بارزاً ، ثم حدث أن تطور أسلوبه بعد ذلك بعد تعمقه فى دراسة الأدبين العربى والفرنسى ووقوفه بنوع خاص « على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتّاب وسرائرهم ومشاعرهم وضمائرهم وألوان حياتهم »[٢] .

(١) د. زكى مبارك / عبقرية الشريف الرضى / المكتبة العصرية بصيدا / ٥٤ .

(٢) زكى مبارك / البدائع ـ صور وجدانية وأدبية واجتماعية / ط٢ / المكتبة المحمودية التجارية / ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م/ ١ / ١٢٧ ـ ١٢٨ .



ولعل أبرز ما يتميز به أسلوب الدكاترة زكى مبارك هو ما يسود كتاباته من زهو شديد سواء كان حديثه عن قراءاته وأدبه وفكره ، أو عن غرامياته ، أو عن نشاطه الرياضى فى صباه وشبابه . وقد كان هذا الزهو مثار انتقاد شديد من بعض معاصريه من الأدباء والنقاد ، وإن لم يسمّوه زهواً بل اكتَفَواْ بالقول بأنه يسرف فى الحديث عن نفسه وأنه يعجز تمامًا عن نسيان ذاته أثناء امتشاقه القلم[١] . وقد أشار زكى مبارك نفسه إلى بعض هؤلاء فى الفقرة التالية : « قال الدكتور طه حسين مرة: إن أكثر أدب زكى مبارك فى الحديث عن زكى مبارك . فلما سئل الأستاذ العقاد عنّى وجد هذه العبارة فى باله فأجاب ، ولما سئل الأستاذ المازنى عنى وجدها فى باله فأجاب »[٢] ، وكذلك فى هذه الفقرة : « أستأذنك يا سيد صبيح فى الخروج على ما دعوتنى إليه من ترك الحديث عن نفسى ... وإذا كان من حقك أن تهاجم فمن حقى أن أدافع، إلا إذا شاء قلمك ألا تصطنع غير الطغيان »[٣] . والسيد صبيح المذكور هنا هو الكاتب المعروف الأستاذ محمد صبيح . كما أشار إلى هذه الخَلّة فى شخصية الدكتور زكى مبارك الأستاذُ عبد المنعم شميس ، الذى كتب فى جريدة

(١) انظر « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / مكتبة مصر / القاهرة / ٩٩ ، ١٣٧ .

(٢) د. زكى مبارك / الحديث ذو شجون / الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ١٩٨٠م / ٤٤٦ .

(٣) د. زكى مبارك / ملامح المجتمع العراقى / مطبعة أمين عبد الرحمن / القاهرة / ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م / ٣٠٧ .

«البلاغ» يدافع عنه غِبّ وفاته عليه رحمة الله قائلاً : «كان زكي مبارك يكثر من الحديث عن نفسه لأنه كان يرى الدنيا من خلال نفسه . وقد أُغْرِم كثيرون بنقده لهذا ، وظنوا أن هذه نقيصة في الرجل . ولكن هؤلاء الذين نقدوه وسوف ينقدوه (؟) يجب أن يعلموا أن الأديب الذى لا يحس بنفسه ولا يؤمن بنفسه ولا يمجد نفسه ليس كائنًا حيًا شاعراً بكيانه»[١].

وهو تقريبًا نفس ما كتبه المرحوم محمد عبد القادر حمزة فى « البلاغ » وفى ذات اليوم أيضا ، حين قال : « كان زكى مبارك يشعر بعبقريته ، وكان فخوراً بتحصيله وبمقدار تمكنه من الأدب نثراً وشعراً . ولطالما فاخر غَيْرَه بهذا ، وكان حقه أن يفعل على قدر كراهية الناس للتفاخر . ولكن الأمر كان على العكس من ( ذلك مع[٢] ) زكى مبارك . كان تفاخراً تقريراً للواقع ، وكان مستَحبًا من رجل أحبه كل من عرفه »[٣] .

وقد تحدثت الصحفية سناء البيسى (فى مقال لها نُشِر سنة ١٩٩٥م حول زكى مبارك ) عن « غروره الذى لا يباريه فيه أديب »[٤]. والحق أن هذا زهو لا غرور ، فالغرور لون من خداع الذات يرى فيه الشخصُ

---

(١) من مقدمة كريمة زكى مبارك لديوان أبيها « قصائد لها تاريخ » / دار الشعب / القاهرة/ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م / ١٨ .

(٢) زدتُ من عندى الكلمتين اللتين داخل القوسين ليستقيم المعنى .

(٣) المرجع السابق / ١٨ - ١٩ .

(٤) سناء البيسى / الدكاترة زكى مبارك أطعم أطفاله لحم طه حسين / مجلة «نصف الدنيا» القاهرية / ٩ شعبان ١٤١٦هـ - ٣١ ديسمبر ١٩٩٥م / ٢٥ .



الصغيرُ عادةً نَفْسَه أضخمَ كثيراً من حجمها الصحيح فيستنيم ويطمئن ويكف عن بذل الجهد ، أما زكى مبارك فلم يتوقف عن الكَدْح فى ميدان الفكر والأدب مكتفيًا بما حصَّله من قبل ، فضلاً عن أنه لم يكن بالشخصية الصغيرة يومًا . وعلى أية حال فإنى أنظر إلى زهوه على أنه زَهْوٌ فنى فى المقام الأول ، زهوٌ يريد به صاحبه أن يلفت الأنظار ويمتع القراء ويُكْسِب أدبه طعمًا حِرِّيفا يثير شهية الجمهور ويُسِيل لعابهم ويزيد تعلقهم به وإصغاءهم إليه وإقبالهم عليه . وهذا الزهو من أمثال زكى مبارك لا يمكن أن يكون بغيضًا أبداً . بالعكس إنه شيء محبّب ولذيذ ، وإذا لم يُزْهَ أمثال زكى مبارك فمن يُزْهَى ؟

ولكن لماذا كل هذا الزهو الذى لاحظه الجميع ، وإن انقسموا إزاءه ما بين منتقدين كارهين ومرحّبين مُثْنِين ؟ لقد ذكر د. زكى مبارك ، فى معرض حديثه عن الحزن الضارب بجذوره فى أغوار نفسه ، أن «أسباب الحزن وردت إليّ من زمن بعيد . وأبعدُ أزمانها هو الزمن الذى عرفتُ فيه ما صار إليه أجدادى ، فقد أخبرنى أبى أنهم رحلوا عن سنتريس وكانوا أمراء سنتريس . رحلوا عنها كارهين لا طائعين . رحلوا عنها لأنهم ضربوا ممثلى الحكومة المصرية بالسياط ، ولم يضربوا ممثلى الحكومة بأيديهم ، وإنما ضربوهم بأيدى خُدّامهم من العبيد ليذيقوهم عذاب الاحتقار والامتهان . جرّدت الحكومة حملة للانتقام من أجدادى ، فرأى أجدادى أن يرحلوا لأن الحكومة أقوى منهم ، وما يجوز أن يعطوا الحكومة فرصة للانتقام فى عهد الظلمات . ثم عجزت حكومة ذلك

العهد عن إقرار النظام فى سنتريس والبلاد التى تجاور سنتريس فسمحت راغمة لأجدادى بالرجوع لاعتلاء عرش سنتريس »[١].

ونبرة الفخر والمباهاة واضحة لا يمكن أن تخطئ الأذن التقاطها فى هذه السطور ، وبخاصة فى إشارته إلى أجداده على أنهم « أمراء سنتريس » وأنهم رجعوا « لاعتلاء عرش سنتريس » ، وفى تكريره كلمة « أجدادى » عدة مرات فى هذه السطور القلائل ، وكان يمكن أن يذكرهم ذكراً صريحًا مرة واحدة ثم يكتفى باستخدام الضمير العائد عليهم بعد ذلك . ومثله يقال عن ترديده لكلمة « سنتريس » . وقبل ذلك هناك كلامه عن تحدى هؤلاء الأجداد للحكومة واعتدائهم على ممثليها بالضرب بالسياط . وعلى أيدى من ؟ على أيدى خُدّامهم لا على أيديهم أنفسهم، وكذلك كلامه عن اضطرار الحكومة إلى السماح لهم بالعودة إلى سنتريس سادة مكرّمين . ومن هنا يمكننا أن نفهم مغزى الإشارة العارضة والغامضة التى وردت فى المحاضرة الأولى من محاضراته التى كلّفه أستاذه الدكتور أحمد ضيف أن يلقيها ، وهو لا يزال طالبًا ، على زملائه فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة ١٩١٩م ، إذ بدأها بالكلام عن أسماره فى سنتريس فى ليالى القمر وعلى شاطئ النيل حيث يستظرف الجلوس مع أهل بلده « فيعود إليَّ ضلالى القديم وعدوانى الموروث ، فأتمدّح بأجدادى الشجعان وآبائى الأبطال ، وأذكر ما شنّوا من الغارات

(١) زكى مبارك / ألحان الخلود / مكتبة مصر / القاهرة / ٢٦-٢٧ . وانظر أيضًا «سيرة حياة الدكتور زكى مبارك» / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / ٢١ .



فى العصور الخاليات »[١].

بَيْد أن هذا الزهو المتأصل فى نفسه وكتاباته لا يرجع إلى أمجاد موروثة فقط ، بل إن هذا المجد الموروث ليس إلاّ رافداً يغذّى نهر الافتخار والتباهى الكبير الذى يرجع فى الأساس إلى إنجازاته وظروفه هو نفسه . لقد كان للدكتور زكى مبارك فضل الحصول على قصب السبق فى عدد من المجالات الأكاديمية ، وكان رحمه الله حريصًا على ذكر هذا. ومن ذلك قوله : « يثور بعض الناس ممن خلق الله حين أقول إننى أول حائز لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة ، وأول حائز لدرجة الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة ، وأول حائز لدرجة الدراسات العليا من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس، وأول من أقام له أساتذته حفلة تكريم فى أروقة السوربون لأنه ظفر بالدكتوراه فى الآداب بدرجة «مشرف جداً »، إلى فضائل كثيرة يعرفها أعدائى قبل أصدقائى » . وهو ، مع حرصه على ذكر هذا والتغنّى به ، ينفى أن يكون غرضه من ورائه هو المباهاة مؤكداً أنه إنما يهدف إلى أن يغرس فى نفوس الجيل الناشئ أن الحياة العلمية قِوامها الجِدّ والمثابرة ، وأن إحراز المجد العلمى ليس بالأمر الهيّن بل لابد له من الطموح الهائل والكدح المتواصل ، فهو يفتتح الفقرة السابقة قائلاً: « إن المباهاة لا تهمنى ، فأنا فى غنى عن المباهاة ، وإنما يهمنى أن أوجه أنظار الشباب من أبناء

(١) زكى مبارك / حب ابن أبى ربيعة وشعره / ط٣ / المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة / ٣٥-٣٦ .

هذا الجيل إلى أن الحياة العلمية وقودها الجهاد الموصول »[1].

وكتاب «النثر الفنى فى القرن الرابع» ، وهو رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه الثانية من باريس ( وكان قد كتبها بطبيعة الحال بالفرنسية[2] ثم ترجمها بأسلوبه الرائع المتميز إلى اللغة العربية ) ، هو أيضًا من الإنجازات التى يرى أنه لم يسبق لها مثيل . يقول رحمه الله عن ذلك الكتاب : « هو كتاب لم يسبق له نظير فى اللغة العربية ، وقد أنفقتُ فى تأليفه بالفرنسية والعربية سبع سنين . ما تذكرت كتاب «النثر الفنى » إلا شعرتُ بنيران تتموج فى عروقى »[3].

ونستطيع نحن أيضًا بكل تأكيد أن نعدّ كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ضمن هذه الأوليات الرائدة ، فقد ألفه وهو طالب ، ولا أعلم أحداً سبقه إلى هذا . كذلك فقد صيغ الكتاب بأسلوب يعجز كثير من الكتاب العريقين فى ميدان التأليف أن يضاهوا ما فيه من نصاعة ومتانة أسرٍ وقوة وجمال . وفضلا عن ذلك ففى الدراسة شواهد كثيرة من الشعر

---

(١) زكى مبارك / ألحان الخلود / ٣٤ .

(٢) نفس المرجع والصفحة . وقد تحدث عن هذه المسألة بشيء من التفصيل فى مقدمة ذلك الكتاب .

(٣) كان عنوانها بالفرنسية هو « La Prose Arabe au IV^e Siècle de l'Hégire »، وقد طُبعت فى باريس عام ١٩٣١م . وهناك اختلافات كثيرة بين الأصل الفرنسى والترجمة العربية رصدتُها فى بحث لى أرجو أن تتاح الفرصة لطبعه ونشره قريبا . وقد اقترح عليَّ الصديق الكريم د. عبد العزيز نبوى (ابن سنتريس) أن أقوم بترجمة هذه الرسالة مرة أخرى دون تصرف حتى يكون أمام القارئ العربى الفرصة للاطلاع عليها كما هى دون تعديل .



القديم تدل على إلمام واسع جدا بهذا الشعر ومظانّه . وهو لا يسوق هذه الشواهد مجرد سَوْق بل يوردها للمقارنة بينها وبين شعر ابن أبى ربيعة أو للتدليل على فكرة يريد تأكيدها أو لإبراز ما يراه فيها من خلل أو جمال . وهو يجد من الثقة بذاته والإيمان بقدرته العقلية والذوقية ما يجعله يقف فى وجه « الأغاني» لأبى الفرج ناقداً أو مستدركًا أو مفنّداً بالشواهد أيضًا والتحليل المفصّل . كما يأنس فى نفسه الشجاعة الكافية لإعلان خلافه فى بعض الآراء مع د. أحمد ضيف ود. طه حسين أستاذيه فى الجامعة ، ولم يمنعه من ذلك أنهما كانا يشجعانه آنذاك ويهيئان له السبيل للتفوق والتبريز ، وإن كان الحق يقتضينا أن نسارع إلى القول بأنه قد التزم فى هذا الخلاف جانب اللياقة والأدب فلم يخرج على ما ينبغى للطالب الوقوف عنده لا يعدوه من احترام أساتذته والإحساس بفضلهم عليه . ليس ذلك فحسب ، وما هو بالقليل لا بالنسبة لطالب جامعى فقط ( ومتى ؟ قبل اكتمال الربع الأول من هذا القرن بوقت غير قليل عندما كانت الجامعة لا تزال تحبو على أربع ، والدراسات الجامعية لم تزايل مهدها بعد ) بل بالنسبة لأى مؤلف محترف ضليع ، إذ طرح المؤلفُ الشابُّ فى هذه الدراسة الرائدة عدّةً من الآراء المتعلقة بشخصية الشاعر الأموى وشعره لا يزال الدارسون يرددونها حتى الآن لصدقها ودقتها .

ومن الأسباب التى كانت تُملِى للدكتور زكى مبارك رحمه الله فى المباهاة والزهو ، وإن أنكر فى بعض الأحيان أنه يُزْهَى أو يباهى ، أنه كان غزير الإنتاج ، فقد ترك الرجل العبقرى وراءه تراثًا غزيرًا من

وفى أثناء ردّه على محمد صبيح ، الذى كان قد عبّر فى كلمة له حول كتاب الدكتور مبارك « عبقرية الشريف الرضى » عن تألمه لشكوى الدكتور من العزلة والانفراد داعيا إياه إلى الخروج للقيا الناس كما يريد وحيث يريد ، يعتذر الدكتور عن عدم استطاعته الانتفاع بهذه النصيحة قائلاً إنه يرى أن عليه واجبًا ثقيلاً لا يقدر على افتكاك نفسه منه « هو العزم المصمم على خلق جوّ أدبى يُشعِر شبابنا بأن اللغة العربية فى أدبها الحديث قديرة على أن تخلق لهم شواغل وجدانية وأدبية واجتماعية . وقد أوغلتُ فى خدمة هذا الواجب ثم أوغلت حتى أصبحت أتوهم أنى مسؤول وحدى عن تكاليف التفكير والتأليف »[١].

وقد ذكر ، رحمه الله ، سببًا آخر لهذا الزهو قائلا : « إن الفخر بغيض ممقوت ، وقد عابه عليّ الأصدقاء قبل الأعداء ، ولكن ماذا أصنع وأنا أشهد آرائى تُنْتَهَب بلا تحرز ولا ترفق، وبها يرد عليّ خصومى حين يشتجر القتال ، وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب وألسنتهم النواصب »[٢].

كما ذكر سببًا ثالثًا : « يقال إنى أتحدث عن نفسى كثيرا ، وجوابى هو قول الشاعر ابن الرومى :

(١) ملامح المجتمع العراقى / ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .
(٢) د. زكى مبارك / جناية أحمد أمين على الأدب العربى / دار الجيل / بيروت / ١٤١٣هـ ـ ١٩٩١م / ٢٧٠ .



وعزيزٌ عليَّ مدحى لنفسى    غير أنى جشمته للدلالة

هو عَيْبٌ يكاد يسقط فيه    كل حرّ يريد يظهر حاله »[١]

يعنى أنه لما رأى الآخرين لا يعبرون عن تقديرهم لأدبه وعلمه وتفوقه كما ينبغى اضطرَّ هو أن يقوم بهذه المهمة بنفسه . « لقد يئست من إنصاف الناس ، فكيف لا أنصف نفسى ؟ »[٢]، « يقال إننى أثنى على نفسى. هذا صحيح ، فالدكتور زكى مبارك ، الذى أكرم جميع الشعراء لم يثن عليه أحد من الشعراء »[٣]، « أنا أذكّركم بنفسى لأنى أراكم تَنْسَوْن أو تتناسَوْن »[٤]. وله أيضًا ، رحمه الله ، فى الشريف كلمة تبدو وكأنه يصف بها نفسه هذا نصّها : « أشرتُ ... إلى عشرين موضعًا (يقصد : من شعر الشريف الرضي) زُهِيَ فيها الشريف بشعره واختال ... وأكاد أجزم بأنها تدل دلالة على أن الرجل كان يحسّ أنه يحيا فى عصره حياة المغبون وأنه كان على أهل زمانه من الحاقدين »[٥]. كذلك كان يكرر أن « التواضع مشتق من الضَّعَة ، وهى الانحطاط »[٦]. وإذن فالزهو ، فى نظره ، لا بد منه لمن يحرص على ألا يكون منحطا وضيعا .

ومع ذلك ففى كلام علاء الدين وحيد عن أديبنا الكبير فى كتابه

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٧٧ ـ ١٧٨ .
(٢) د. زكى مبارك / الحديث ذو شجون / ٤٤٧ ـ ٤٥٠ .
(٣) د. زكى مبارك / أطياف الخيال / مكتبة مصر / ٥٧ .
(٤) د. زكى مبارك / الأسمار والأحاديث / القاهرة / ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م / ١٧٥ .
(٥) عبقرية الشريف الرضى / ٧٨ .
(٦) ألحان الخلود / ١٠٨ .

«زكى مبارك عملاق الأدب » ما يفهم منه بكل وضوح أن زكى مبارك كان ينفر من الزهو والمزهوّين بأنفسهم وكتاباتهم من الأدباء ، ويجعل الزهو من الأسباب المسؤولة عن فشل الكاتب فى الوصول إلى قلوب قرائه وعقولهم[1]. وأحسبنا قد جلونا هذه النقطة بما يدل على أن الزهو كان سمة أصيلة بارزة فى أدب زكى مبارك ، لكنه زهو مقبول بل محبوب ، ونحن نقدر بواعثه ونعطف عليه ونرى أن لكاتبنا كل الحقّ فيه، وإلا فما الذى كان ينبغى عليه أن يفعله ؟ هل كنا نريد منه أن يتجرع كؤوس الغيظ ويموت غما ؟ ومع ذلك فإن هذا ما حدث !

ويتصل بهذه النقطة أنه لا يفلت فرصة تسنح له دون أن يذكر ما لاقى فى سبيل تحصل ثقافته وتأليف رسائله وكتبه من متاعب وصعاب، ففى مقدمة « النثر الفنى » يكتب الكلمات التالية : « هذا كتاب «النثر الفنى فى القرن الرابع » ، وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين، فإن رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ، وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئًا من الزهو فليتذكروا أنى ألفته فى أعوام سودٍ لقيت فيها من عنت الأيام ما يقصم الظهر ويقصف العمر ، فقد كنت أشطر العام شطرين : أقضى شطره الأول فى القاهرة حيث أؤدى عملى وأَجْنِى رزقى ، وأقضى شطره الثانى

(١) انظر علاء الدين وحيد / زكى مبارك عملاق الأدب / دار سنبل / المنصورة / ٥٤ - ٥٥ .



فى باريس كالطير الغريب أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين إلى أن يَنْفَد ما ادخرته أو يكاد . ثم صممت على أن انقطع إلى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت ، وكانت العاقبة أن أنعم عليّ الله عز شأنه بالنصر المبين »[1].

وعن كتابيه « ذكريات باريس » و « ليلى المريضة فى العراق » يقول : « وقد زكَّيْتُ عن الأعوام التى قضيتها فى فرنسا بكتاب «ذكريات باريس» ، وهو كتاب يشهد بأنى عشت فى فرنسا وأنا حادّ البصر وافر الذكاء ، وهو كتاب يصور كثيراً ( من ) أزمات فرنسا فى هذا الجيل . والعام الذى قضيته فى بغداد صوّرتُ به فى كتاب « ليلى المريضة فى العراق » أعظم المعضلات التى تعانيها فلسطين وسورية ولبنان ومصر والعراق . ولو أن الأستاذ سلامة موسى قرأ كتاب « ليلى» لعجب من أن يستطيع الرجل فى عام واحد أن يدرك سرائر هذه البلاد مع أنه كان موظفًا مسؤولاً يحضّر فى كل أسبوع نحو اثنى عشر درسًا لفتيان ناضجين هم طلبة دار المعلمين العالية فى بغداد »[2].

على أن هذا ليس كل إنجازات زكى مبارك التى يحق له المباهاة بها، فقد استطاع أيضًا رحمه الله أن يتعلم الفرنسية منذ وقت مبكر[3]

(١) زكى مبارك / النثر الفنى فى القرن الرابع / دار الجيل / بيروت / ١ / ٥ .
(٢) الحديث ذو شجون / ٨٢ .
(٣) ابتدأ تعلمها فى سنة ١٩١٣م ( انظر مقدمة كريمة زكى مبارك لديوان « ألحان الخلود » / ٤٢ ) .

ويتقنها قبل أعوام طوال من ذهابه إلى فرنسا لإحراز درجة الدكتوراه من السربون إلى الحدّ الذى مكّنه من أن يقف فى الجامع الأزهر فى أثناء ثورة ١٩١٩م يرد على بعض الوفود الأوربية بلسان فرنسى طليق فاجأ به الحاضرين وانتزع إعجابهم ، وبخاصة أنهم لم يجدوا أحداً غيره يقوم بهذه المهمة . ونفس الشيء قد حدث خلال إحدى محاضرات أستاذه الدكتور طه حسين فى الجامعة ، إذ لم يحضر كاتب الدكتور طه معه فى تلك المحاضرة واحتاج إلى من يقرأ نصًا فرنسيا من كتاب كان معه ويترجمه للطلبة ، فلم يستطع ذلك غير الطالب زكى مبارك ، الذى لم ينس هذه الواقعة وأخذ يردّدها معاتبًا أستاذه الذى كان يشجعه فى البداية ثم انقلب عليه ونصب له العداوة وعمل على محاربته وكان وراء خروجه من عضوية هيئة التدريس بالجامعة . ولما عمل زكى مبارك فى الجامعة بعد تخرجه كان يشتغل مساعداً للمستشرق كازانوڤا ، الذى كان يحاضر طلابه فى الجامعة بالفرنسية ثم يترجم لهم زكى مبارك ما قاله إلى العربية ملخصًا . يقول زكى مبارك فى تقديمه لقصيدته « غضبة الأسد » : « كنت فى فورة شبابى أيام الثورة المصرية فاشتركت فى الثورة بقوة وعنف ، وكنت الخطيب الأوحد الذى يخطب بالفرنسية حين يَحْضُر إلى مهد الثورة ، وهو الأزهر ، جماعةٌ من الصحفيين الأجانب . ومعالى إبراهيم باشا عبد الهادى يتذكر ، ويتذكر زميله الأستاذ شكرى كيرشاه ، وهو اليوم أحد القضاة الأفاضل بالمحاكم الوطنية ، هذان الأستاذان يتذكران جيداً أن فضيلة الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون فوجئ وهو على منصة الخطابة بوفد نقابة الصحافة الأجنبية وقد خطب نقيبهم



بالفرنسية فقال : « تُجيبُ بالفرنسية يا إبراهيم ؟ » فاعتذر إبراهيم ، ثم قال : « تجيب بالفرنسية يا شكرى ؟ » فاعتذر شكرى ، فقال : « تجيب بالفرنسية يا شيخ زكي؟ » فصعدت إلى المنصة وألقيت خطبة رائعة بالفرنسية . وفى نهاية الحفلة رأيت رجلا يجذب يدى ويقول : تعال يا سيدنا الشيخ تعال ، فما كان يخطر فى بالى أن يكون فى الشيوخ المعممين شاب يجيد الفرنسية »[1]. ويقول أيضًا مخاطبًا أستاذه طه حسين : « هل تذكر يا دكتور ما وقع فى نوفمبر سنة ١٩١٩؟ هل تذكر ما وقع يوم غاب سكرتيرك ، وكنتُ وحدى الطالب الذى يفهم العبارة الفرنسية لكتاب « نظام الأثينيين » لأرسطاليس ؟ وهل تذكر أنك أعلنت سرورك بأن يكون فى طلبة الجامعة المصرية من يفهم أسرار اللغة الفرنسية ؟ فمن يبلغك أن الشاب الذى أدخل السرور على قلبك فى سنة ١٩١٩ هو الكهل الذى تُنْكره فى سنة ١٩٤٠؟ أنا أعرف ما تكره منى . أنت تكره منى الكبرياء . وكيف أتواضع وقد أعاننى الله على بناء نفسى ؟ كيف وقد أقمتُ الدليل على أن الشباب المصرى خليق بعظمة الاعتماد على النفس ؟ وهل رأيتَ رجلاً قبلى أتم دراسته فى أوروبا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء ؟ هل رأيت رجلاً قبلى يهتف بأوطار الشباب وهو مُثْخَنٌ بجراح الزمان بعد الأربعين ؟ هل رأيت رجلا قبلى يؤلف الكتب الجيدة فى البواخر والقطارات والسيارات ؟ ومن يصدق أنى

---

(١) ألحان الخلود / ١١٥ . وانظر أيضًا « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / ٣٠ .

أنفق فى سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس فى سبيل الطعام والشراب ؟ »[١]. ويقول عن عمله مساعداً للمسيو كازانوڤا فى الجامعة : « توليت التدريس بكلية الآداب مساعداً للمسيو كازانوڤا . كان يلقى دروسًا باللغة الفرنسية وألخصها للطلبة باللغة العربية. وكان المسيو كازانوڤا يفهم اللغة العربية ، ولكنه لا يحسن التكلم بها ، فكان يقول حين يسمع تلخيص المحاضرة : هذا ما أردت أن أقول»[٢].

كذلك فللدكتور زكى مبارك دين ثقيل يطوّق به عنقنا جميعًا نحن المصريين ، إذ قبض عليه الإنجليز أثناء ثورة ١٩١٩م بسبب نشاطه الثورى آنذاك بعد أن طاردوه طويلاً ثم وضعوه فى السجن : « دخلت الإسكندرية أول مرة وأنا حزين . دخلتها فى قفص . دخلتها فى سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية فى أيام الثورة المصرية . دخلتها فى الظلام فلم أر من جمالها غير أطياف . ثم نقلنى ذلك « السجن المتحرك » إلى مقر الاعتقال فى ضاحية نائية هى اليوم ملاعب صَبَابة ومدارج فُتُون . ومن يصدق أن ضاحية سيدى بشر كانت معتقلاً يُسْجَن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال ؟ »[٣]، « لو كان بى حب الدَّعَة والطمأنينة لما مكثت فى المعتقل هذه الشهور الطوال ، فقد فكر القوم

---

(١) كريمة زكى مبارك / المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / الزهراء للطباعة والنشر / القاهرة / ١٩٩٥م / ٢٠٤ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / ٤٤ .

(٣) الحديث ذو شجون / ١١ - ١٢ .



(أى الإنجليز) فى مساومتى لأول لحظة وطئتُ فيها ثكنةَ قصر النيل ، ولكنى أقذيت عيونهم حين أريتهم كيف يطيب الشقاء فى سبيل البلاد . وأُقْسِم لو سلّم المصريون جميعًا وخرج مصطفى كامل من قبره[١] ليصافح الإنجليز لما كان فى ذلك ما يزحزحنى قيد أنملة عن معاداتهم حتى يكون الجلاء »[٢]. وقد حاول الإنجليز أن يوقِّع لهم تعهدا بالانصراف عن المشاركة فى الثورة عليهم ، لكنه رفض بكل إباء وشمم صائحا فى رئيس المعتقل : « لن أتوب حتى الموت »[٣].

وله أيضًا ، رحمه الله ، فى أواخر حياته موقف آخر لا يطوق به عنقنا نحن المصريين وحدنا بل وأعناق المسلمين جميعًا ، إذ أراد الإنجليز فى أثناء الحرب العالمية الثانية أن يستفيدوا من مكانته وشهرته فى الدعاية لهم ضد المحور فعرضوا عليه أن يلقى عدة أحاديث فى إذاعة القدس عن «الديمقراطية فى الإسلام » لقاء خمسين جنيها للحديث الواحد

---

(١) كان د. زكى مبارك من أتباع مصطفى كامل الزعيم الوطنى الكبير ومؤسس الحزب الوطنى ، فلذلك ضَرَبَ به المثل هنا .

(٢) من رسالة بتاريخ ٢٥ مارس ١٩٢٠م لصديقه وابن قريته أنيس ميخائيل ، الذى كان يخفيه فى مسكنه بالقاهرة عن أعين السلطات قبل أن تتمكن من القبض عليه ( انظر « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك/ ٣٣ ، و محمد محمود رضوان / صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك / كتاب الهلال / أكتوبر ١٩٧٤م / ٣٥ ، وفتحى رضوان / أفكار الكبار / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٨م / ٦٤ - ٦٥) .

(٣) المرجعان السابقان فى نفس الموضع فى الاثنين .

مع نزوله ضيفًا مكرّمًا عليهم فى القدس ، ولكنه رفض . ثم لم يكتف بهذا بل فضح الإنجليز على الملا ، إذ كتب فى جريدة «البلاغ» يقول : «حضر المسيو كانبير إلى بيتى ، وكان مدير الدعاية البريطانية، لألقى محاضرات فى محطة الإذاعة بالقدس عن الديمقراطية فى الإسلام. وقال إننى سأنزل ضيفًا على الدعاية البريطانية وسآخذ خمسين جنيها عن كل محاضرة . فقلت : أنا أحترمك لأنك تخدم وطنك ، والخدمة الصحيحة أن أكون رجلا يرفض مليما من الدعاية البريطانية . فقال المسيو كانبير : أنت ستتكلم عن الديمقراطية فى الإسلام . فقلت : المعنى مفهوم . فقال: إن أهل فلسطين يحبون أن يروك . فقلت : سأزورهم حين أجد فلوسًا فى جيبى . فقال المسيو كانبير : لقد استخدمْنا كثيرين من أمثال فلان وفلان وفلان ، وعَجَزْنا عن استخدامك . فقلت: لأنى الدكاترة زكى مبارك »[1]. إن هذه ، وايم الحق ، لهى الرجولة والشهامة ، وبخاصة إذا عرفنا أن زكى مبارك كان مضطهَدا ومضيَّقًا عليه فى أواخر حياته ، وكانت الخمسون جنيها التى عُرضت عليه فى المحاضرة الواحدة مبلغًا هائلاً جدا فى ذلك الوقت[2]، وأن من مشاهير الكتاب والأدباء من هو على استعداد لفعل ما رفضه كاتبنا وبثمنٍ أقلَّ كثيراً مما عُرض عليه .

ولم يكن زكى مبارك يعتمد طوال حياته على أحد غير الله ونفسه. وهو يُبْدِئ فى هذا المعنى ويُعِيد كلما واتته سانحة ، وذلك حتى يغرس

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(٢) هو الآن يساوى ألف جنيه .



فى نفوس القراء ، والشباب منهم بخاصة ، الثقة بالله وبالنفس وفضيلة الاعتماد على جهدهم الذاتى : « كيف أتواضع وقد أعاننى الله على بناء نفسى ؟ كيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصرى خليق بعظمة الاعتماد على النفس ؟ »[1]، « أين الزميل الذى يقول إنه أحْرَصُ منى على الوفاء بحقوق القلم البليغ ؟ وأين الشخص الذى يملك الزعم بأنه نفعنى ؟ ومن هو المخلوق الذى يتوهم أن له دينا فى عنقى ؟ ومن هو الروح الطاهر الذى يطمع فى السيطرة على شيطانية روحى ؟ وكانت الغاية عندى أن أقيم الدليل على أن لوطنى وجودية تحميه من الباطل ، وكانت حياتى شاهداً على صحة ما ابتغيت ، فما استطاعت قوة أن تهدمنى ولا جاز فى وهم مخلوق أن يرانى من أتباعه ولو كان أعظم العظماء »[2]، « أنت يا دكتور طه تعلم من هو زكى مبارك ، وتعلم أنه لا يخاف إلا الله المتفرد بالعظمة والجبروت ... لقد اشتغلت أنا بالصحافة ، واشتغلت أنت بالصحافة ، وإليك الفرق بين الشخصيتين : كنت أنا رئيسًا لتحرير جريدة « الأفكار » ، وكانت تدافع عن مبادئ الحزب الوطنى ، وكان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفانى ، فكنا نختلف ونختصم فى كل صباح لأنى كنت آبَى أن أكتب غير ما أراه فى التقلبات السياسية . وكان يتفق أن أخرج من الجريدة قبل أن أتم مقالى فيخرج الصوفانى بك يبحث عنى ويترضانى ، وأنت اليوم رئيس تحرير

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق . ٢٢٣ .

جريدة وفدية ، فهل تدرى ماذا تصنع ؟ تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطراً قبل أن تتصل تليفونيًا بهذا أو بذاك لتتلقى الوحى ، ثم تكتب ما يُلقَى عليك وكأنك الببغاء »[1] ، « خرجتُ أنا من الجامعة فلم أعتمد على غير الله . وأنت تذكر يا دكتور طه أن الأستاذ سليم حسن سألنى بحضرتك عما عملت ، فأجبتَ أنت وكنتَ يومئذ رجلا شريفًا : « لقد عمل زكى مبارك ما يعمل الرجل . رآنى أتجنى ورأى لطفى بك يتدلل، فتركنا ومضى يجاهد جهاد الرجال . خرجت أنا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية وجمعت من المال الحلال ما أتممت به دراستى فى باريس وطبعت عدداً عظيمًا من المؤلفات وكتبت فى الأدب والاجتماع صفحات تعد بالألوف . الحمد لله رب العالمين . وخرجْتَ أنت من الجامعة فانزويتَ فى بيتك وأخذت تبحث عن سيد ، وظلت حيرتك فى تخير سيدك الجديد فكنت تراه تارة من هؤلاء ، وتارة من هؤلاء ، ورأيت أخيراً أن مائدة الوفد أشهى من غيرها وأمتع فذهبت وقدمت إليها نفسك ، وهددت الدكتور هيكل بكشف أسرار الدستوريين . أفرأيت الفرق بين شخصية زكى مبارك وشخصية طه حسين؟ »[2]، «الذخيرة الباقية من حياتى هى أننى أعيش بروحى وبقلمى . إنه روح نظيف وقلم نظيف ، فما استطاعت حكومة مصرية أو غير مصرية أن تستأجر قلمى . هل أفقرنى الشرف ؟ هل افتقرت بفضل الحرص على الشرف ؟ »[3]. كما

(١) البدائع / ٢ / ١٧٤ .

(٢) البدائع / ٢ / ١٧٦ .

(٣) ألحان الخلود / ١٦ .



أنه، رحمه الله، قد رفض بانزعاج وشمم أن يأخذ من لجنة الوفد المرتب الذى قررته لكل خطيب من خطباء ثورة ١٩١٩م، وكان عشرة جنيهات (وهو كما ترى مبلغ جد كبير فى تلك الأيام ) ، ورأى فى ذلك مساسًا بعقيدته الوطنية ، إذ لا يحق فى رأيه أن يأخذ على خدمة الوطن الغالى درهمًا واحداً[1].

ولعل من المناسب هنا أن نذكر ما قاله الدكتور محمد رجب البيومى من أن زكى مبارك قد اعترف بـ « أنه أخذ من شوقى مبلغًا كبيراً من المال ليقف إلى جواره فيما ينشئ من موازنات » مضيفًا أنه إذا كان الشعراء فى العصر الحديث لم يعودوا بحاجة إلى مدح الآخرين لكسب رزقهم « فماذا نقول فى ناقد يجلس مجلس القضاء بين شاعرين فيستميله أحدهما ليرتفع عن صاحبه أو على الأقل ليستر ما يجده عاريا من مآخذه ؟ »[2]. ذلك أن هذه الدعوى هى عكس ما كان يردده د. زكى مبارك مما استشهدنا عليه بعدة نصوص من كلامه لتوِّنا . ومما يحير فى الأمر أن الدكتور البيومى لم يذكر المرجع الذى استقى منه قوله هذا. وقد فتشت فى كتاب زكى مبارك « الموازنة بين الشعراء » ومقالاته عن أمير الشعراء التى جمعتها ابنته السيدة كريمة فى كتاب بعنوان «أحمد شوقي» ، وهما مظنة وجود مثل هذا النصّ فيهما ، فلم أجد شيئًا من ذلك . وكذلك لم أجد شيئا فيما وقع لى من كتبٍ للدكتور زكي مبارك

(١) السابق / ١١٦ .

(٢) د. محمد رجب البيومى / دراسات أدبية / مطبعة السعادة / القاهرة / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م / ١ / ١٣٩ - ١٤٠ .

أثناء إعداد هذه الدراسة .

لقد ذكر الدكتور البيومى أن قول زكى مبارك إنه قد أخذ مالاً من أحمد شوقى ... إلخ « لا يُعَدّ غريبًا من زكى مبارك ، إذ مَرَن على مجابهة القارئ بما يصدم » ، وأنه « كان على زكى مبارك ألا يصرح بما قال لتظل الصورة الأدبية لنقده بريئة ، ولكنه فعل . وإخالنا نكلّفه فوق طاقته حين نطلب منه ذلك لأن الدكتور يرى فى الاعترافات الجريئة دليلا على الحرية الشخصية والنضوج الأدبى »[١] . ومعنى هذا أن الأستاذ الباحث يأخذ ما يقوله الدكتور زكى مبارك على أنه الحقّ الذى لا مرية فيه ، فما رأيه فى أن زكى مبارك قد قال عن علاقته بشوقى فى هذه المسألة عكس هذا تمامًا ؟ لقد عرض شوقى عليه أن يكتب له مقدمة لديوانه ، لكنه اعتذر لمعرفته أنه لن يستطيع الكلام فيها بحرية عن شوقى ، إذ المعهود فى مثل هذه المقدمات أن تكون مجالاً للمجاملة والتقريظ لا للنقد الموضوعى الحرّ . وقد عجب الدكتور طه حسين من موقف زكى مبارك وأكد له أنه لو طلب شوقى منه هو ذلك لسارع إلى الاستجابة دون أدنى تردد . وقد تسبب اعتذار د. زكى مبارك فى حدوث جفوة بينه وبين أمير الشعراء[٢] ، حتى إنه عند مجيء طاغور الشاعر الهندى الشهير بعد ذلك إلى القاهرة أقام له شوقى حفلة فى داره ودعا

---

(١) المرجع السابق / ١٤٠ .

(٢) انظر كتاب « أحمد شوقى » للدكتور زكى مبارك / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك/ الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٧م / ٣٤ - ٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٩٥ - ٢٩٦ ، « والأسمار والأحاديث » / ١٦٦ - ١٦٧ .



إليها أساتذة الجامعة المصرية دون زكى مبارك ، فحرضه بعض الصحفيين على مهاجمة شوقى بمقال أو مقالين مؤكِّدين له أن هذه هى السبيل التى لا سبيل غيرها لنوال أمواله ، بيد أن الدكتور مبارك رحمه الله رفض بقوة هذا الاقتراح قائلاً فى تعفف وكرامة : « ومالى أنا ومال شوقى أو غير شوقى ؟ هل منحنا الله نعمة القلم الصوّال لنبتز الأموال ؟ »[١] . بل إن زكى مبارك ليقول بصريح العبارة إن شوقى قد حاول معه ما كان يصنعه مع غيره من النقاد فعرض عليه الأموال الجزيلة كي يشترى ثناءه على شعره، إلاّ أنه رفض ذلك ، فقال شوقى له : « لقد أحيانى الله فعشت حتى رأيت ناقداً يقول كلمة الحق لوجه الحق »[٢] . وقد أكّد عبد المنعم شميس أن زكى مبارك « لو شاء الغني، وهو أقرب المقربين إلى شوقي، لاستطاع الوصول ، لا عن طريق الهبات الشعرية التى كان يأنف منها ويرفضها ، ولكن عن طريق النفوذ الشخصى لأمير الشعراء »[٣] ، فكيف يسوغ أن يعترف هو نفسه بأنه قد أخذ من شوقى مالاً ليفضّله على من يوازن شعره بشعرهم من الشعراء العرب الأقدمين ؟ كذلك لا أظن أن من يقول لشوقى عند لقائه به لأول مرة سنة ١٩١٩م، وكان ذلك فى بيت عبد اللطيف الصوفانى رئيس الحزب الوطنى : « فى جيبى

---

(١) أحمد شوقى / ٣٦ .

(٢) المرجع السابق / ٣٠٧ .

(٣) عبد المنعم شميس / شخصيات فى حياة شوقى / سلسلة « اقرأ » / ١٩٧٩م / ١٠٧ .

ثلاثة جنيهات ، وأنا أعطيها لك لتشترى بدلة تعفيك من هذه البدلة المبهدلة. وإن كنتَ حضرتَ لاستجداء الصوفانى بك فأنا أَغْنَى من هذا الصوفاني. وأنا شاعر مثلك ، والشعراء كالفقراء يعطف بعضهم على بعض »[١] يمكن أن يمدّ يده ليأخذ منه مالاً رشوةً على نصرته له فى الموازنة بينه وبين الشعراء القدامى .

ثم إن زكى مبارك قد انتقد بعض أشعار شوقى ، وبخاصة فى باب النسيب . ويمكن للقارئ أن يراجع المقالات التى كتبها الدكتور فى شعر أمير الشعراء وجمعتْها ابنته فى كتاب بعنوان « أحمد شوقى » ، ولسوف يجد من هذا الانتقاد شيئًا غير قليل[٢]. كذلك قال فى موطن الموازنة بينه وبين حافظ إبراهيم : « كان حافظ أذكى من شوقى بمراحلَ طِوالٍ ، وأشعر منه بلا جدال . وسيقول التاريخ بما أقول بعد زمن أو أزمان »[٣] ، كما أنه لم يكن يعجبه نثر أمير الشعراء[٤]. وهذا كله قد قاله فى حياة شوقى .

وفى مقابل هذه الإنجازات العظيمة والأوليات الرائدة التى حققها الدكتور زكى مبارك تعرّض الرجل باكرًا إلى ألوان من الاضطهاد : فقد

---

(١) المرجع السابق / ٣٠٦ ـ ٣٠٧ . ويمضى د. زكى مبارك قائلا : « ضحك شوقى (من هذه الملاحظة ) ضحكة قوية وقال : هذه أول مرة أضحك فيها بقلبى ، وأحب أن أتشرف بمعرفة الأستاذ . فقلت : أنا الشيخ زكى مبارك ملِك الشعراء ، وأنت أمير فى مملكتى ، ومن واجبى أن أعطف عليك » .

(٢) انظر مثلا مقال « الغزل فى شعر شوقى » / ٧٤ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق / ٣١١ . وانظر أيضًا « ليلى المريضة فى العراق » / ٣٧٣ .

(٤) أحمد شوقى / ١٢٨ .



ذكر مراراً أن الدكتور طه حسين أستاذَه فى الجامعة قد أسقطه فى امتحانات الليسانس مرتين[١]. كما أنه قد أخرج من الجامعة مرتين أيضًا : المرة الأولى فى سنة ١٩١٩م حيث أُعلِنَ فى الظاهر أنه « قد جامل بعض الطلبة فى امتحان من الامتحانات » ، على حين كانت الحقيقة أنه أنجحهم « لأنهم كانوا ينفقون جهدهم ومالهم وحياتهم وأوقاتهم فى الخدمات الوطنية ضد الاستعمار »[٢]. والعجيب أن زكى مبارك قد أُخْرِج من الجامعة ليدخل السجن بسبب نشاطه ضد الاستعمار أثناء ثورة ١٩١٩م كما مرّ بيانه[٣]. أما المرة الثانية فكانت بعد عودته من فرنسا بالدكتوراه الثانية سنة ١٩٣٣م ، وكان الدكتور طه حسين آنذاك خارج الجامعة . فلما عاد الدكتور طه فى العام التالى إليها وحلّ الميعاد الذى كان ينبغى فيه تجديد عقد زكى مبارك ( لأنه كان يشتغل

---

(١) انظر كريمة زكى مبارك / المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٠١ ، ٢٠٣ ، وزكى مبارك ناقدا / دار الشعب / ١٩٧٨م/ ٦٠ ، ١٢٤ ، ود. زكى مبارك / النثر الفنى فى القرن الرابع / ١٣ ـ ١٤ ، ومجنون سعاد / كتاب الهلال / مارس ١٩٧٧م / ١٣٠ .

(٢) ذكر ذلك الأستاذ حافظ محمود نقيب الصحفيين المصريين الأسبق ، وذلك فى الاحتفال سنة ١٩٩١م بالذكرى المئوية لميلاد زكى مبارك ( انظر مقاله « زكى مبارك وطنيا » من كتاب « الذكرى المئوية لميلاد الدكتور زكى مبارك ١٨٩١ ـ ١٩٩١ » / الهيئة العامة لقصور الثقافة / نوفمبر ١٩٩١م/ ١٨٠ ـ ١٨١ ) . وقد أكد الأستاذ حافظ محمود أن هذا الموقف ينبغى أن يسجل لزكى مبارك « فى لوحة الشرف الوطنى » .

(٣) المرجع السابق / ١٧ .

بعقد قابل للتجديد سنويا ) كان لا بد من استشارة الدكتور طه رئيس قسم اللغة العربية آنذاك ، الذى امتنع عن التجديد مما أدى إلى خروج زكى مبارك للمرة الثانية من الجامعة[١] . وقد وقع هذا التصرف الذى قام به طه حسين من نفوس أدباء العصر كإبراهيم المازنى[٢] وسلامة موسى[٣] موقعًا فى غاية السّوء .

وبرغم أن هذه واقعة معروفة للقاصى والدانى بحيث لا تحتمل تشكيكا من أى نوع ولا حَدَثَ أنْ حاول أحد مجرد محاولة هذا التشكيك فإن الدكتور طه حسين يأتى فى أواخر حياته ، أى بعد عشرات السنين وبعد أن مات شهود الواقعة من الأدباء والمفكرين ، فيعزو إخراج زكى مبارك من الجامعة لسبب آخر تمامًا ، إذ ينفى أن يكون هو السبب فى ذلك قائلا إن « خروج زكى مبارك يرجع إلى سلوكه الشخصى ، فقد كان هذا السلوك يتنافى مع كرامة أستاذ الجامعة . فمثلاً ذكر لى فؤاد سراج الدين أنه كان ينجح فى الامتحان حينما كان يَدْرُس بكلية الآداب قبل أن يتلقى دروس كلية الحقوق (فقد كان النظام فى ذلك الحين يفرض أن يدرس طلبة الحقوق فى كلية الآداب بعض المناهج فى اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق) ، ذكر لى فؤاد أنه كان لا يذاكر علوم الأدب ، وكان

(١) السابق / ١٩ .

(٢) انظر « البلاغ » / ٣١ ديسمبر ١٩٣٥م ، و ١٣ يناير ١٩٣٦م .

(٣) انظر « المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك » / ٧٩ . وقد نشر مقال سلامة موسى فى « البلاغ » أيضًا .



يعطى لزكى مبارك زجاجة كولونيا فينجح فى الامتحان »[١] . والواقع أن ما قاله الدكتور طه يثير أكثر من علامة استفهام : فمثلاً ما الذى جعله يسكت طوال هذه العقود فلا يحاول أن يدفع عن نفسه التهمة البشعة التى كانت معلقة خلالها فوق رأسه ما دامت وسيلة الدفاع بهذه البساطة؟ ما كان أسهل ذِكْرَ ذلك عند هبوب العاصفة عليه من الأدباء الذين اتهموه بقطعَ رزق الرجل ومحاولة تجويع أطفاله ، ومن بينهم المازنى ، الذى قال إنه لو كان لا يزال ينظم الشعر لرثى طه حسين لأنه أصبح بعد عَمْلته تلك فى عداد الأموات بالنسبة إليه ! ثم ما قيمة هذا الاتهام ومعاصرو الواقعة من الكتاب قد تُوُفُّوا ؟ وفضلا عن ذلك فالملاحظ أن الدكتور طه حسين لم يقل ذلك علنًا بل ذكره فى حديث عابرٍ بينه وبين كاتبه فى أواخر حياته ، وهو الدكتور محمد الدسوقى ، الذى لم يكن يدور فى ذهن العميد أنه يسجّل هذه الأشياء منتويًا أن يصدرها فى كتاب فيما بعد . لو أن طه حسين قال ذلك فى حينه لقطع الألسنة المهاجمة له ولأسقط زكى مبارك إسقاطًا لا تقوم له بعدها قائمة فلا يستطيع أن يفتح شفتيه بأية كلمة ولا كان قد قال له مثلاً : « لو جاع أطفالى لشويت طه حسين وأطعمتُهم من لحمه إن جاز أن أقدم لأطفالى لحوم الكلاب »[٢] . ولقد تحدى زكى مبارك طه حسين حين تسبب فى

(١) د. محمد الدسوقى / طه حسين يتحدث عن أعلام عصره / ط٣ / الدار العربية للكتاب/ ليبيا - تونس ١٩٨٢م / ٤٩ - ٥٠ .

(٢) ألحان الخلود / ٢٤ - ٢٥ .

خروجه من الجامعة قائلاً له : « قد زكَّيتني أنت للتدريس في الجامعة من تسع سنين ، واشتغلتُ بالتدريس في الجامعة ثلاثة أعوام بجانبك ولم تؤاخذني بهفوة واحدة ، وكتبتَ عني تقريراً كان يومئذ يمثل نزاهتك وقلتَ إني أؤدي عملي تأدية موفق ، وإنك راض عني وعن عملي كل الرضا »(١) ، فلماذا لم يرد طه حسين إلا بما قاله بعد هذه العقود الطوال لكاتبه في السر ؟ بل لقد سبق أن وجَّه د. زكي إلى د. طه علانية نفس التهمة تقريبًا التي زنَّه بها طه حسين بعد ذلك في السرّ ، إذ كتب يقول : « فإن أنكرتَ هذا الذي أدمغك به أو حاولتَ تجريحي في صحيفتك السوداء فسأكون في حلٍ من سَرْد ما أعرف من أساليبك في الدروس والامتحانات ، وفي بعض ذلك ما يخرسك . وسيكون ذلك في رسائل علينة لأني أكره الدسائس ولا أحب العمل إلا في ضوء النهار . أفهمت أيها الأحمق الجهول ؟ »(٢) ، فلماذا لم يرد عليه الدكتور طه بما قاله لكاتبه لو كان صحيحًا ؟ لقد كان هذا كفيلاً بإسكات زكي مبارك بل بإخراسه إلى أبد الآبدين ! وفوق ذلك فقد كان الدكتور زكي دائم القول بأن أحداً ليس له في عنقه أي دَيْن . كما بلغ من عزة نفسه أنه ، وهو شاب ، رفض أن يتقاضى من لجنة الوفد المركزية عشرة جنيهات شهريا بوصفه خطيبًا من خطباء ثورة ١٩١٩م(٣) ، بل رفض أيضًا بقوةٍ ما اقترحه فؤاد سراج الدين نفسه ، عندما كان وزيراً للشؤون الاجتماعية عام

---

(١) سيرة حياة الدكتور زكي مبارك / ٥٧ .

(٢) د. زكي مبارك / البدائع / ٢ / ١٧٢ .

(٣) انظر مقاله « مصر الغريبة في بلاد الغرباء » / البلاغ / ٢٥ أغسطس ١٩٤٧م .



١٩٤٣م ، من مَساعدة الأدباء بنظام يقيهم البؤس ، قائلاً للأدباء : « أنا باسمكم أعلن استقلال الأدب عن الحكومة ، فما يجوز أن نطلب الاستقلال لبلادنا ونطلب الحماية لأقلامنا »(١) . فهل كان يجرؤ أن يفتح فمه بهذا الاعتراضَ لو كان قد سقط في هذه الزلة التي ذكرها الدكتور طه ؟ ومما له دلالته أن زكي مبارك قد اتهم طه حسين بأنه يستر كسله العلمي بالتغاضي عن ضعف طلابه(٢) . وقد نشر أديبنا هذا الاتهام في صحيفة « الرسالة » بحيث يقرؤه كل الناس ومنهم طه حسين نفسه ، ولم يقله في السر كما فعل طه حسين .

على أن فصول الظلم العبثية السخيفة لم تنته عند هذا الحدّ ، إذ عُيِّنَ زكي مبارك بعد ذلك مفتشا بوزارة المعارف بعقد أيضًا ، لكن الهمّ الذي رضي به زكي مبارك لم يَرْضَ هو بزكي مبارك ، فقد أُلغِيَ هذا العقد كذلك وأخرج الرجل من هذه الوظيفة ( التي لا تليق به أصلا ) بلا مكافأة أو معاش ليشتغل بعدها أستاذاً للآداب العربية بالمعهد العالي للتمثيل ، الذي سرعان ما أُخْرِج منه كذلك بتَعِلَّةٍ بيروقراطيةٍ وقحة(٣) ... إلى غير ذلك من هذه التصرفات الصغيرة بل الحقيرة التي أريد بها

---

(١) زكي مبارك / الحديث شجون / ٤٨٩ ، وعلاء الدين وحيد / زكي مبارك عملاق الأدب / ٤٨ .

(٢) زكي مبارك ناقدا / ٦١ .

(٣) انظر مثلاً تمهيد كريمة زكي مبارك لقصيدة والدها المسمّاة : « بالنظم الجميل أخدع نفسي » من ديوان « قصائد لها تاريخ » / ٩٦ - ٩٧ .

تجويع الرجل وتركيعه ، ومنها توقف وزارة المعارف عن دفع إيجار منزله الذى كانت تتخذه مدرسةً فى سنتريس[1] وعدم حصوله على « مليم واحد » ( كما تقول ابنته كريمة ) عن عمله فى دار الكتب فى أخريات حياته إلى أن مات ، فرفع أخوه قضية على الدار بعد وفاته باسم ابنة أخيه[2] .

وقد كان من جراء هذا كله ، وهناك الكثير مثله ، أن أُفْعِمَ قلب الرجل بالمرارة ، فكان قلمه دائم الأنين والتشكى من غدر الزمان ووغادة البشر . وهى سمة أخرى من السمات التى تميز أسلوبه ، بيد أنك لا تلحظ فى هذه الشكاوى رنّة اليأس أو الانهيار بل تجدها دائمًا حتى فى أحلك اللحظات مغلّفة بالظَّرْف والتجلد والمعجبانية .

ويحكى فتحى رضوان فى كتابه « أفكار الكبار » عن زيارات كان يقوم بها الدكتور زكى مبارك لمكتبه فى أخريات حياته طالبا منه أن يَحْضُر عنه فى قضية له فى محكمة بإحدى المدن القريبة من قريته سنتريس . وعبثا كان يحاول فتحى رضوان ، كما يقول ، معرفة طبيعة تلك القضية وأسماء المدَّعَى عليهم ، إذ كان ردّ الدكتور عليه دائمًا أن كل ما يريده منه هو أن يسافر معه إلى المحكمة حيث سيعلم هناك بكل شيء . ويعقب فتحى رضوان على ذلك بقوله : « لم ألبث حتى قام فى

(١) انظر « ألحان الخلود » / ٢٨٨ .

(٢) انظر « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » / ١٩١ ـ ١٩٢ .



ذهنى أنه لا توجد قضية حقيقية تشغل زكى مبارك وأن هذه القضية من قبيل ما يساور أبطال مسرحيات العبث فى الأيام الحديثة من أوهام لا وجود لها فى الواقع ، ومع ذلك يواصلون الكلام عنها والإلحاح فى ذكرها ثم تنقطع صلات التفاهم بينهم وبين الآخرين »[1] . وإن الإنسان ليعجب من هذا الكلام : أمعقول أن فتحى رضوان لم يكن يعرف المتاعب التى كان يصطلى بها زكى مبارك فى تلك الفترة بالذات ، وبخاصة أن الصحف كانت تكتب عنها دائمًا ؟ إن فتحى رضوان كان ، مثل الدكتور زكى مبارك ، كاتبا أديبًا ، وكان جاراً للدكتور رحمه الله فى مصر الجديدة ، وكان مِنْ ثَمَّ يستطيع أن يستفسر عن الأمر من أفراد أسرته ، كما كان من أعضاء الحزب الوطنى الذى كان ينتمى إليه زكى مبارك من قبله بأزمان . أوَلَمْ يكن إذن يعرف أن الدكتور زكى يعمل فى دار الكتب دون أن يحصل على شيء فى مقابل ذلك العمل ؟ أولم يكن يعرف أن وزارة المعارف حبست عن زكى مبارك إيجار منزله بالقرية الذى رأت أن تأخذه منه لتحوله إلى مدرسة ونزل هو على رأيها كرمًا منه وخدمة لبلده سنتريس ، التى كان مُدَلَّهًا فى غرامها ؟ أمعقول هذا يا إلهى ؟

وقد أبدى محمد على علوبة باشا ذات مرة إعجابه بما يكتب زكى مبارك من مقالات ، ثم لاحظ مستدركًا أنه « كثير الشكاية من زمانه » ، فكان تعليق الدكتور مبارك أنه مثلاً لم يكن يستطيع أن يدخل عليه حينما كان وزيراً للمعارف دون استئذان . وعبثًا حاول علوبة باشا أن

(١) فتحى رضوان / أفكار الكتاب / ٧٣ ـ ٧٥ .

يعتذر بكثرة مشاغل الوزارة ، إذ ردّ عليه زكى مبارك بأن هذا العذر يُقْبَل لو أنه كان يقصده لمصلحة من المصالح . وعندما وعده علوبة باشا بأنه لو رجع إلى الوزارة فسيعمل على إنصافه أجابه بأنه لو رجع إلى الوزارة فلن يذهب إليه لأى أمر كان[(١)] .

وفى مايو ١٩٤٣م نرى أديبنا الكبير يكتب فى « الرسالة » قائلاً :

« أسارع فأقرر أنى لا أقيم وزنا للتشكى من الزمان على نحو ما يصنع بعض الشعراء وعلى نحو ما كنا نصنع يوم كنا نتوهم أن الحظوظ تقسم بلا ميزان . أنا اليوم أومن بأن لله قانونًا اسمه النظام ، وهو يطّرد فى جميع الشؤون : فالشمس بنظام ، والقمر بنظام ، وجميع الخلائق بنظام يفسده أقل اختلال . لا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا وفقا لقوانين أزلية لا يجوز عليها الانحراف »[(٢)] . فهل معنى هذا أن الرجل قد كف فعلاً عن شكوى الزمان وظُلْم الناس له وبَغْيهم عليه وجحودهم لحقه المبين؟ لا أظن ، فكتاباته بعد ذلك لا تزال ترنّ فيها شكاواه المرة كما كانت ترن فى كتاباته السابقة ، كل ما هنالك أنه فى هذا المقال الذى اقتطفنا منه تلك الفقرة إنما كان يردّ على قارئ أرسل إليه يشكو حظه دون أن يبذل فيما يبدو جهداً لتغيير هذا الحظ ، فجاء ردّ زكى مبارك على ذلك النحو ليحفزه إلى نفض غبار الكسل وبذل الجهد والعرق للوصول إلى ما يراه حقًا له . وأديبنا ، رحمه الله ، لم يكن من الكسالى الذين يُخْلِدون إلى النوم ثم يتسخطون الأقدار والحظوظ بل كان صاحب مواهب غير

(١) انظر « الحديث ذو شجون » / ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) المرجع السابق / ٣٥٥ .



عادية ، وكان يَبذل أقصى طاقته فى ميدان الفكر والأدب ، لكن الظالمين قد تكأكأوا عليه ، والكثرة ( كما هو معروف ) تغلب الشجاعة . فشكواه إذن فى محلها لأنها شكوى القويّ العامل المغبون وليست شكوى الخامدين الخاملين .

وهذه الشكوى هى ، كما قلت ، إحدى السمات المميزة لأسلوبه وأدبه. وما من كتاب له تقريبًا إلا وتسمع فى عدة مواضع منه هذه النبرة قوية واضحة . يقول مثلاً فى مقدمة « الأخلاق عند الغزالى » ، وهو من أوائل ما أنتج : « هذا هو الكتاب الذى رُمِيتُ من أجله بالكفر والزندقة والذى فجّر لحسّادى ينبوعًا من اللغو والثرثرة لا ينضب ولا يغيض ، وما أنا والله بنادم على رأى ارتأيته أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ولغو اللاغين من مرضى القلوب وضعاف العقول وصغار النفوس ، وإنما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ويختلق المفسدون »[(١)] . ونفس الشكوى نسمعها فى خاتمة الكتاب[(٢)] .

وفى مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ، التى صدرت فى عام ١٩٢٨م ، نراه يكتب ما يلى : « وبينما أنا أعدّ نفسى لكتابة هذه المقدمة مرت بى حوادث خطيرة زادتنى ثقة بأن بنى آدم كأنما خُلِقوا ليبغى بعضهم على بعض ، وليكون أشرارهم حربا لأخيارهم ،

(١) زكى مبارك / الأخلاق عند الغزالى / دار الشعب / القاهرة / ١١ .

(٢) المرجع السابق / ٣٨١ .

ولتكون كرائم الخلال من المودة والوفاء والإخلاص براقع يلبسونها ليُخْفُوا ما فُطِر عليه لئامهم من الغل والحقد وما درجوا عليه من الإثم والبغى والعدوان . وكذلك أمضيت ثلاثة أسابيع أفكر فى أناس سقيتهم الشهد فسَقَوْنى العلقم ، وأصفيتهم الود فأصْلَوْنى نار الجحود »[١].

وعند تعداده ، فى مقدمة « النثر الفنى » ، مآثر هذا الكتاب نجده يختم كلامه بقوله : « ومعاذ الأدب أن أمنّ على لغة العرب التى أعزنى بها الله ، وإنما هى ثورة نفسية أنطقنى بها ما أراه فى زمانى من غدر وعقوق . والله المستعان على إفك هذا الزمان »[٢].

ويتساءل ، رحمه الله رحمة سابغة ، فى مقدمة « ليلى المريضة فى العراق » فى دهشة مريرة : « ما هذه الدنيا الصغيرة التى يتعادى فيها الناس بلا بينة ولا برهان ؟ وما بال قوم يؤذوننى وما قدّمتُ إليهم غير الجميل ؟ » ، ثم يعقب داعيا بهذه الكلمات ذات المغزى : اللهم اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون ! »[٣]. وفى الكتاب نفسه نجده يشكو من الظلم الفادح الواقع عليه من وزارة المعارف المصرية قائلاً : « إن ديونى على وزارة المعارف ديون ثقيلة ، ولن تدفعها إلاّ يوم يشهد معالى الوزير أو سعادة الوكيل بأننى رجل مظلوم لن يصل إلى مناصب تلاميذه إلا بعد أعوام طوال »[٤]. وفى موضع آخر من الكتاب نراه يوجه الكلام إلى

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ١٩ .

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٧ .

(٣) ليلى المريضة فى العراق / ١٣ - ١٤ .

(٤) المرجع السابق / ٨٤ .



على الجارم فيقول : « إننى أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك . وهل أنصفتنى مصر حتى تنصفك ؟ »[١]. وبعد عدة صفحات يتجه بالخطاب إلى قلبه هو سائلاً: « أين وطنك يا قلبى ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك إليه . أهو مصر ؟ كذبتَ ثم كذبتَ ، فلو عرفتك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق . ولكنك فى مصر منبوذ مجهول »[٢] . ولنقرأ معًا هذه الكلمات التى تفجر الدمع من عيون الصخر الصفوان ، وهى من نفس الكتاب : « يا أيتها الصحراء ، إن حالك مثل حالى : موات فى موات . وقد تمرح فوق ثراك الميت هوامٌ وحشرات ، وفوق ثرى قلبى الميت تمرح هوامٌ وحشرات هى السخرية من الناس واليأس من صلاح القلوب وجمال الوجود . وقد ترقّ حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الأعشاب، أما قلبى فقد أمْحَلَ إلى الأبد ولن ينبت فيه شيء . وأشقى الناس من يعيش بقلب أجدب من الصحراء . أيها الليل ، هل رأيت فى دنياك من ينافسك فى ظلامك غير قلبي؟ هل عرفت منذ أجيال وأجيال شقاءً مثل شقائى ؟ أيها الليل ، خذ السواد من قلبى إن أعوزك السواد . خذ الظلام من حظى إن أعوزك الظلام . خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات . خذ منى ما تشاء أيها الليل ، فلن تجد مشتهاك عند إنسان سواى . خذ منى ما تشاء بلا منٍّ عليك ، فما أخذتُ السواد إلا منك ، ولا ورثت الظلام

(١) السابق / ٩٣ .

(٢) السابق / ١١٨ .

إلاّ عنك ، ومثلى يحفظ الجميل . أيها الليل ، لا تجزع من العزلة ، فأنا هنالك أسامرك وأناجيك . لا تفزع من الوحدة ففى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات . عندك آلامى ، وعندى آلامك . والجريح يأنس بالجريح يا ليل. أنا أعرف من أنا فى دنياى ، فمن أنت فى دنياك يا ليل ؟ أنت جزء من الزمان هجرته الشمس فأظلمت دنياه ، وأنا جزء من الوجود هجرته الشمس فأظلمت دنياه ... إن شمسك تغرب ثم تعجز عن الصبر على فراقك فترجع إليك ، وشمسى تغرب فلا ترجع ، فليت حظى كان مثل حظك يا ليل . والمقادير تترفق بك فتسوق القمر والنجوم لإيناسك ، وأنا أعانى الظلام المطلق حين تغيب الشمس التى تعرف ، فليت حظى كان مثل حظك يا ليل . وأنت باقٍ على الزمان ، وأنا صائر إلى الفناء ، فليت حظى كان مثل حظك يا ليل . والناس يخافون بأسك فيتقربون إليك بالقناديل والمصابيح ، وأنا مأمون الجانب فلا يتقرب أحد إليّ بشيء ، فليت حظى كان مثل حظك يا ليل »[١] . أى ألم وأى إبداع يا إلهى ! أى ألم عبقرى هذا ! ويعود أديبنا العملاق مرة أخرى إلى التشكى من حبيبته مصر : «وأنتِ يا مصر ، ماذا تريدين منى ؟ كنتُ لك سفيراً نبيلاً فى الشرق ، فماذا تريدين أيتها الظلوم ؟ ماذا تريدين وقد وصلتْ مؤلفاتى إلى كل بلد يُذكَر فيه اسم الله واسم الرسول ؟ ماذا تريدين يا مصر ؟ أحب أن أعرف ماذا تريدين »[٢] .

---

(١) السابق / ٣٤١ ـ ٣٤٣ .

(٢) السابق / ٣٦٣ .



ولا يغادرَ هذا الهاجس ضمير زكى مبارك حتى وهو فى معمعة طلقات المدافع أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان وقتها نازلا فى بيت برمل الإسكندرية . لقد رفض أن ينزل مع سائر سكان البيت إلى المخبأ لأنه ، كما قال ، أراد أن يموت والقلم فى يده ، وكان الخاطر الذى ورد على باله ، وضَرْبُ المدافع على أشده ، هو : « هل حان الوقت لأستريح من دنياى ولأنجو من بغى الأعداء وغدر الأصدقاء ؟ طاخ ! طاخ ! طاخ! »[١] . وكذلك لا يغادر هذا الهاجس ضمير زكى مبارك حتى وهو فى أكبر مناسبة للبهجة فى حياته ، ألا وهى إهداء حكومة العراق له فى عهد الملك فيصل الثانى « وسام الرافدين » . لقد وثب قلبه من الفرح والانشراح ( على حد تعبيره ) لقيمة الهدية وقيمة من سيتلقاها منه ، وهو المرحوم د. محمد حسين هيكل وزير المعارف المصرية آنذاك ، ولكن الشعور بمتاعب النضال ومرارة الإجحاف سرعان ما يواتيه ، ومن هنا كان تعقيبه بالكلمات التالية : « ومع أن متاعب النضال لم تُبْقِ فى صدرى بقية من التأهب للجذل والانشراح فقد سرَّنى أن تشهد « الوقائع العراقية » بأنى ذُكِرْتُ بالخير فى « إرادة ملكية » يمضيها صاحب السموّ الأمير عبد الله . جعلنا الله ممن يَرْعَوْن العهد ويحفظون الجميل »[٢] .

وقد توقف ذات مرة فى عام ١٩٣٨م ليقارن بين ما أنتج من كتب

---

(١) ملامح المجتمع العراقى / ١٧٤ ـ ١٧٥ . و « طاخ ! طاخ ! طاخ ! » هى حكاية أصوات المدافع التى كانت تدمدم أثناء كتابته ذلك الكلام .

(٢) المرجع السابق / ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

ومقالات أربَتْ صفحاتها آنذاك على خمسة آلاف صفحة ( وذلك غير ما ألقاه من دروس ومحاضرات ) وبين ردّ فعل الوسط الثقافى تجاه هذا النتاج ، فكانت النتيجة أن أصابه الحزن والضجر وتألم ألما شديداً ، إذ كان نصيب ذلك الإنتاج الغزير هو الإهمال التام تقريبًا من قبل زملائه من النقاد والكتاب . يقول موجها الكلام لتلميذه محمد صبيح ، الذى أثارت رسالته إليه كل هذه الأحزان والأشجان : « فإن رأيتَنى أحزن وأضجر وأتألم لعقوق الوطن الغالى فليس الذنب ذنبى ، وإنما هو ذنب الوطن الذى لا يكاد يعرف أبناءه الأوفياء ... إن لم يكن بدّ من الشكوى إلى ذى مروءة فأنا أحدثك بأنى أسمع جرس التليفون مرات ولا أخفّ إليه لأخرج نهائيًا من دنيا الناس وأتفرغ لمؤلفاتى .... أما بعد فإن كان نصيب المفكرين والمؤلفين فى مصر أن تقهرهم الظروف على الدفاع عن أنفسهم فعلى حياة التفكير فى مصر ألف سلام وسلام ! أيها الوطن الغالى ، غفرانك ثم غفرانك ، فأنا فى طاعتك ، وإن لم آنس فى رحابك بغير رمال الصحراء »[1].

وفى موضع آخر من كتاب آخر له نسمعه يتساءل فى حسرة وهو يتذكر ما قدمه لوطنه : « هل تذكّرَتْ مصر ؟ لقد أبليتُ شبابى فى الدفاع عن وطنى فما رجعتُ بغير الحرمان من خيرات وطنى »[2]. ثم

(١) المرجع السابق / ٣٠٨ - ٣١٢ .
(٢) ألحان الخلود / ٢٤ .



يمضى بعد ذلك فى شكاواه قائلا فى تعليل السرّ فى اصطباغ أشعاره بلون الحزن المؤلم : « وهذا الاضطهاد الذى يتدفق من جميع الجوانب مُرْسَلاً بسخاء من كبار الوزراء ، وتلك الآثام التى تفيض بها ألسنة المغتابين ، إن بعض هذا يكفى ليخلع على أشعارى أثواب الحزن الوجيع »[1].

وهو يرجع نبوغه وعبقريته إلى ما قاساه من لؤم الناس : « ما قاسيت من لؤم الناس هو السبب فى عبقريتى ونبوغى »[2]، ويصرخ فى رسالة من رسائله إلى الحبيبة « سعاد » قائلا : « أنا مع الدنيا فى حرب، مع الأهل فى قتال ، مع الزملاء فى نضال »[3]، « ما قيمة الصداقة والحب فى هذه الدنيا الجَدُوب ؟ وهل كان أصدقائى إلا أقوامًا أسخياء بالهجر والصدود ؟ كم ليلة قضيتها فى كرب وضيق وأنا أنتظر من يسأل عني، ثم انقضت الليالى وأنا وحيد فريد لا سمير لى غير وساوس القلب ولواعج الفؤاد . هل تنسَّم هذا العصر روح الصداقة ... ؟ الصداقة كلمة خرافية حفظتها المعاجم كما تحفظ المتاحف جماجم الأجسام الخالية ، وسيكون لتلك الكلمة مدلول يوم يكون لهذه الجماجم أرواح، وهيهات ! هيهات ! ما أعظم شقائى ! وما أضخم بلواى فى دنياي! ... من يُبْلِغ بنى آدم فى هذه البلاد أنهم على شفا الهاوية لأن حيواتهم خلت

(١) المرجع السابق / ٢٩ .
(٢) مجنون سعاد / ٥٨ .
(٣) المرجع السابق / ١٠٨ .

من معانى الصدق فى الأخوة والحب ؟ »[1] .

وكما صرخ لفقدان الصداقة فى هذه الدنيا نراه يصرخ أيضا لانحسار الحق وعدم مبالاة أحد به : « إنك لا تستطيع اليوم أن تعادى أحداً فى سبيل الحق لأن الدنيا انقلبت إلى مطامع يترفع عنها الحيوان. أتَرَوْنَنى أظلم قومى ؟ أنا لا أظلمهم ، وإنما أشرح بلية اجتماعية يشكو منها أحرار الرجال »[2] ، « أليس من الحق أيها الناس أن الصراحة فى زماننا خُلُقٌ بغيض ، وأن النفاق يسمو بصاحبه أحيانًا إلى أرفع الدرجات ، وأن المداهنة أمضى سلاح ؟ »[3] .

ومع ذلك كله فإنه بين الحين والآخر يؤكد أنه لن ينهزم أمام اليأس مهما يكن سوء الأحوال . يقول معلقا على قول الإمام الغزالى حين تعب من أهل زمانه :

غزلتُ لهم غزلاً رقيقًا ولم أجد     لِغَزْلِيَ نسّاجا فكسَّرت مغزلى :

«وأنا لن أكسّر مغزلى ، ولن أضيق بأهل زماني»[4]. ويقول فى مناسبة أخري: « من الصحيح ... أنه يجب أن نقبل العالم على علاته الفوادح، وأن نرضى بأن يكون حالنا فيه حال من رَضُوا بالإقامة فى أرض معرضة لأخطار الزلازل والبراكين، وهم مع تخوُّف تلك الأخطار لا يفكرون فى

١) السابق / ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) السابق / ٨٤ .
(٣) ألحان الخلود / ٢٦ .
(٤) مجنون سعاد / ١٢٥ .



الرحيل » . إنها منتهى القوة والصلابة !

وكما يكثر كاتبنا من الشكوى والألم نراه يكرر ذكر الغربة والهتاف بأنه غريب غريب فى وطنه بل فى الدنيا كلها . ولعلّه أول من استخدم هذا اللفظ الوجودى بين كتاب العرب فى العصر الحديث . ولا أظن أحداً من زملائه ، رحمه الله ، كان يحس بالاغتراب بهذه القوة التى كان يحسّه هو بها : « إن استقلال إرادتى حال بينى وبين الاندماج التام فى هيئة من الهيئات أو حزب من الأحزاب ، فأنا عند أنصار الحزب الوطنى شعبى يناصر الوفديين ، وعند الوفديين خياليّ يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب ، وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا بَرٌّ عند الفجار ، وفاجر عند الأبرار ، فأنا فى كل بيئة أجنبى ، وفى كل أرض غريب »[1] ، « لقد جلست لحظة منذ أيام فى ذهبية ، ثم مرت سفينة فانتشيت . أتعرفون السبب ؟ لقد طاف بالخاطر حراقات دجلة والفرات التى تغنى بها شعراء العراق . أكنتُ أقاسى هذه الغربة الروحية لو أن شعراءنا شوّقونا إلى سفائن النيل ؟ »[2] ، « أنا الرجل الذى عانى مكاره الاغتراب فى كل أرض ، فكانت غربته فى القاهرة أقسى وأعنف من غربته فى باريس وبغداد »[3] ، « تذكَّرْتُ وتذكرتُ حتى كاد

(١) زكى مبارك / ذكريات باريس / المكتبة التجارية الكبرى / القاهرة / ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م / ٢٧٤ .
(٢) زكى مبارك / اللغة والدين والتقاليد / كتاب الهلال / أغسطس ١٩٩٠م / ٧٢ .
(٣) ملامح المجتمع العراقى / ٨٧ .

يفضحنى الدمع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فهو وحده يعلم ما يقاسى قلبى من الغربة بين القلوب »[1]، « وقفت على سدّة الهندية[2] لحظات ظفرت فيها بموعد سأنعم به يوم أعود إلى وطنى إن كان لى إلى أرض الوطن معاد. لا تحزن يا قلبى ، فليست هذه أول غربة، فقد كنتَ غريبًا فى كل أرض حتى فى سنتريس ! لا تحزن يا قلبي، فأقرب الناس إلى الله هم الغرباء لأن الغريب يؤدى امتحانا فى كل لحظة ، وتدرسه الأعين فى كل مكان ، ويؤدى حسابا إلى كل مخلوق ، ويعجز عن إصلاح ما يفسد المفترون . لا تحزن يا قلبى ، فكل غيم يتلوه صحو، وكل ليل يعقبه صباح . لا تحزن يا قلبي، فأنا بجانبك أرعاك وأواسيك ، وسأكفّنك بدموعى إن قضى الله أن تموت غريبًا بين القلوب . لا تحزن يا قلبى ، لا تحزن يا قلبى ! ما هذا ؟ ما هذا ؟ أتريد أن تفرّ من قفص الضلوع ؟ وإلى أين ؟ حدِّثنى إلى أين . إلى أين يا جاهل؟ ... إلى أين؟ وهل لك وطن أيها القلب؟ حدثنى أين وطنك، فقد نسيت ... أين وطنك يا قلبى ؟ أحب أن أعرف أين وطنك لأمضى معك إليه . أهو مصر ؟ كَذَبْتَ ثم كذبت، فلو عرفتْك مصر حق معرفتك لكان لك اليوم مكان مرموق ، ولكنك فى مصر منبوذ مجهول. قلبى ، قلبى ، رحمة الله عليك »[3]، « لِمَ تنفرين منى أيتها الغزالة الدعجاء ؟ لم تنفرين منى وأنا أثمن ما ملكت يمناك ؟ وما ذنبى حتى أجازَى بالقطيعة وأنا غريب؟

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٣٧ .

(٢) قنطرة على نهر الفرات بالعراق .

(٣) المرجع السابق / ١١٧ - ١١٨ .



أنا غريب يا ليلى غريب ! غريب مفارق سيشرب كأس اللوعة بعد أيام ثم لا يجد السبيل إلى التداوى برشفة من ماء الفرات . غريب لا يعرف متى يرجع إلى العراق . غريب سيظل فى كروب وأشجان إلى أن يغرق فى دجلة أو فى النيل ... بأى حق يجوز لك أيتها الآثمة الجانية أن تقتلينى بعينيك الناعستين وأنا غريب ؟

غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى    كما قيدَ عَوْدٌ بالزمام أديبُ »[1]

« إن لله كلمة عالية فيما أراده لحياتى . وقد رجوت صديقى الأستاذ سيد إبراهيم أن ينقش لوحة فنية فيها قول الله : { وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون } . وأنا عانيت الغربة فى حياتى بصورة مزعجة »[2]، «إن أيام الاعتقال[3] أورثتنى أحزانا كثيرة ، وهى أحزان لا تزال تعتصر قلبى . ولكنى استفدت من أيام الاعتقال ، فقد عرفت بها معنى الاغتراب فى الحياة ، وهو معنى جميل ... ثم توالت متاعب عنيفة إلى أخطر حدود العنف ، وكان أصعب تلك المصاعب هو هجرتى إلى باريس ، فقد أقمت فيها سنين كانت من أعجف السنين . ولم أعرف الراحة بعد الرجوع من باريس . وهل كانت أيامى وأنا رئيس قسم اللغة العربية

---

(١) السابق / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١١٩ .

(٣) اعتُقل زكى مبارك ، كما سبق القول ، أثناء ثورة ١٩١٩م لجهاده الوطنى ضد الإنجليز المحتلين .

بالجامعة الأمريكية أيام هدوء ؟ وهل كانت أعوامى وأنا أستاذ الأدب العربى بكلية الآداب أيام اطمئنان ؟ والسنون التى قضيتها وأنا مفتش المدارس الأجنبية بالمملكة المصرية ، هل كانت تلك السنون مما يريح ؟ وتلك المؤلفات الطوال ، ماذا أخذتْ من عافيتى وشبابى ؟ والقصائد والمقالات، ماذا صنعت ؟ عند الله جزائى . والغربة المزعجة التى قضت بأن أذْرَع فضاء الله من شاطئ المانش إلى شط العرب ... وهذا الاضطهاد الذى يتدفق من جميع الجوانب مرسلا بسخاء من كبار الوزراء ، وتلك الأيام التى تفيض بها ألسنة المغتابين ، إن بعض هذا يكفى ليخلع على أشعارى أثواب الحزن الوجيع »[١] .

وهذه الغربة سببها ألوان الظلم والإجحاف والجحود الكثيرة التى أصابته عن عمد وسبق إصرار ، وكذلك الأحزان الكثيرة التى صبغت حياته بالسواد والاختلاف الحاد بين شخصيته وشخصيات المعاصرين من نظرائه ، فهو لم ينتم إلى أى حزب من الأحزاب ، وفى نفس الوقت كان يريد أن يفرض اسمه على سمع الزمان ولا يعيش خاملاً . كما كان أيضًا صريحًا إلى حد بعيد فى زمن كان لا بد فيه من المهادنة والمجاملة بل النفاق ، فكان يعلن بكل قوة آراءه فى العقائد والمذاهب والأشخاص ، ويعرض أسراره ونواحى الضعف فى حياته وشخصيته عارية لا يدارى ولا

---

(١) ألحان الخلود / ٢٩ - ٢٩ . وله فى هذا الديوان أيضًا قصيدة فى نفس المعنى بعنوان « أنا الغريب » ( ص ٣١٥ وما بعدها ) .



يورّى . ولقد كان ، رحمه الله ، متمرداً يتحدى الأوضاع السائدة ويرى أنه أكبر من كل كبير وأنه لا ينبغى أن يخضع لغير الله جل جلاله . شيء واحد شَذَّ عن هذا الجو القاتم ومثَّل بقعة من الضوء الساطع فى وسط تلك الظلمات هو سفره إلى العراق لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين العالية ببغداد حيث نَعِمَ كاتبنا الكبير هناك بالحب الصافى والتقدير العظيم من الجميع طلابًا وأدباء وساسة . ولكن هذا لم يَدُمْ غير عام واحد، إذ لم يشأ الدكتور أن يجدد إعارته رغم إلحاحهم عليه فى ذلك كثيراً أملاً منه أن يتمكن من طبع النسخ المطلوبة من كتابه « التصوف الإسلامى » حتى يظفر بالترقية التى يستحقها فى وزارة المعارف المصرية بعد حصوله على درجة الدكتوراه للمرة الثالثة ، وحرصًا منه على ألا يبتعد طويلاً عن أولاده . وقد كان محصول هذه الإقامة القصيرة فى بغداد مباركًا ميمونًا ، إذ كتب « ليلى المريضة فى العراق » ( وهو قريب من خمسمائة صفحة ) و «عبقرية الشريف الرضي» (فى جزأين كبيرين) و« ملامح المجتمع العراقى » ( ٣٥٠ صفحة) و « من وحى بغداد » ، فضلا عن المحاضرات والمقالات والأحاديث الإذاعية والقصائد. وفى هذه الكتب نراه يلهج باسم العراق وأهله ويثنى عليهم ويعرب عن حبّه الشديد لهم وسعادته فى العيش وسطهم تحفّ به مشاعرهم الكريمة الفياضة ، كما صوّر المجتمع العراقى خير تصوير ودعا إلى توثيق الصلات بين العراق ومصر . ويُعَدّ ما كتبه الدكاترة زكى مبارك فى هذا المجال من أجمل وأروع وأخلص ما يكون . إنها وثائق أدبية واجتماعية وسياسية وتاريخية ذات قيمة عظيمة ، وقراءتها تمثل متعة صافية

وغنية. وقد زادت سعادة زكى مبارك عندما أهدته حكومة العراق بعد عودته إلى مصر « وسام الرافدين » ، وكان أول رجل من رجال التعليم فى مصر ينال هذا الوسام . وهذه بعض النصوص التى تصور حياته وغبطة روحه فى العراق وحبّه الغامر لهذا البلد :

« صمم وكيل وزارة المعارف العراقية أن يزورنى فى منزلى ليؤدى واجب التحية لرجل هجر وطنه وأهله ليتشرف بخدمة الأدب العربى فى العراق ، وكانت زيارته فى الليل ، فراعه أن يرى الظلام يغمر السلالم والدهاليز ، فاستشاط غضبًا وقال : كيف يجوز لصاحب المنزل وهو عضو بمجلس النواب أن يهمل الإضاءة الواجبة وهو يعلم أن من سكان منزله صاحب « النثر الفنى » ؟ سأعرف كيف أحاسب ذلك النائب وكيف أقهره على تعميم النور فى دهاليز البيت . فقلت وأنا أتخوف العواقب : أنا مطمئن إلى هذا الظلام يا سعادة الأستاذ . فقال : وأنا أخشى أن تشكونا إلى مجلة « الرسالة » أو جريدة «البلاغ» . ولم يمض يومان حتى نفّذ النائب المحترم ما أراد سعادة الوكيل»[١] .

« ويتفضل صديق عزيز فينقلنى بسيارته إلى منزل صاحب الفخامة نورى باشا السعيد ، وكنت أتمثل نورى باشا رجلا أضوته السنون ، فأراه فتى خفيف الروح كأنما قَدِمَ بالأمس من ملاعب مونبارناس . ويقبل علىَّ

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٦٤ .



فخامته فيقول : أنا تلميذك بالفكر يا دكتور مبارك لأنى قرأت جميع مؤلفاتك »[١] .

« الواقع أن تلاميذى فى بغداد أحبونى أصدق الحب ، وكنت أستأهل هذا الحب ، فقد خلعتُ عليهم كل ما أملك من المعارف الأدبية والفلسفية وعوّدتهم عادات حسنة هى الاعتماد على النفس واقتحام أخطر الموضوعات ومواجهة أصعب المعضلات ، وكنت أدعوهم إلى إحراجى إن استطاعوا بأدق الأسئلة الأدبية والنحوية والصرفية والبلاغية والفقهية . ومرّ العام الدراسى بدون أن يشهدوا على أستاذهم علامة من علائم الضعف فى تكوينه الأدبى والفلسفى ، وساعدنى هذا الفوز على إقناعهم بأن الأستاذ الحقّ هو الذى يملك مادّته ملكا تاما بحيث لا يطمع فى إحراجه أحد وأن مصايرهم فى مهنة التدريس مرهونة بهذا التفوق إن أرادوا أن يكونوا من أعلام الرجال »[٢] .

« مضيتُ إلى دار المعلمين العالية لأشهد الحفلة الختامية فرأيت هناك معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى وزير المعارف ، وسعادة الأستاذ طه الراوى مدير التعليم العام ، وسعادة الدكتور فاضل الجمالى مدير التربية والتدريس ... لم يكن فى نيتى أن ألقى خطبة فى ذلك الاحتفال، ولكن الدكتور فؤاد عقراوى أسرّ فى أذنى أن من الواجب أن

(١) المرجع السابق / ١٠٨ .
(٢) السابق / ٢٣٧ .

ألقى كلمة بوَصْف أنى أستاذ الأدب العربى فى المعهد ... اعتذرت عن
إلقاء كلمة ، ولكن الدكتور عقراوى أصرّ على أن أتكلم فقبلت ...
وقفتُ لأخطب ، ولكن كيف ؟ لقد هجم الحزن هجمة عنيفة ، وهجم الدمع
هجمة أعنف ، والتفتُّ إلى الدكتور فاضل الجمالى أسأله عن أبيات أبى
تمام فى العراق ، ثم انهدّت قواى فجلست وأنا دامع العين مفطور الفؤاد ،
وهمس الدكتور الجمالى فى أذنى يقول : « هذه أعظم خطبة سمعتها فى
حياتى » ، وكانت أول مرة عرفت فيها أن من البيان أن تعجز عن
البيان. وخيم الحزن على الأستاذ طه الراوى فلم ينطق فى مواساتى
بحرف. وجاء دور معالى الأستاذ الشبيبى فالتفت إليَّ وقال : ما هذا
الذى صنعْتَ فى كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » ؟ فقلت :
وما ذاك ؟ فقال : هل تعلم أن كتابك هذا حبسنى على قراءته ثلاث
ساعات ، وهو حظ لم يظفر به منى كتابٌ حديثٌ منذ أعوام طوال ؟ ثم
ساق فكاهة وردت فى كتاب « المدائح النبوية » فطابت نفسى وابتسمتُ،
وبعد لحظات قمت فألقيت خطبة الوداع ، وآه ثم آه من الوداع ! وما
انتهت الحفلة حتى كان الطلبة يهتفون : يحيا الدكتور زكى مبارك يا .
يحيا الدكتور زكى مبارك يا »(١).

« وفى الليلة التالية حضرت سهرة أقامها السيد عبد الأمير
لتوديعى ، سهرة باسمة فوق سطح الفندق « فندق العالم العربى » غنى

(١) السابق / ٢٣٨ - ٢٣٩ .



فيها الأستاذ محمد القومبانجى وأطرب حتى اهتاج ما فى دجلة من
سمكات. ثم وقف الشاعر عبد الرحمن البناء وأنشد هذا القصيد : ...
وأنشد السيد عبد الحسين ملاً أحمد قصيدة أذكر منها هذه الأبيات :
... ومددت يدى فخطفت القصيدتين ودسستهما فى جيبى فابتسم السيد
عبد الأمير وقال : ما معنى ذلك ؟ فقلت : لا تؤاخذنى يا مولاى، فقد
جُنِنْتُ ، فأنا أول مصرى أثنى عليه شعراء العراق فى أكثر من عشرين
قصيدة ، وحُبِّرَتْ فى العطف عليه عشرات الخطب والمقالات . ولولا خوف
الفتنة لجمعت ذلك فى كتاب يكون ذخيرة تذكرنى بها ليلاى فى الزمالك
وليلاى فى العراق . وبعد انقضاء السهرة رجعت إلى بيتى فتوضأت
وصليت العشاء وحمدت الله على نعمة التوفيق »(١).

« فى جرائد بغداد قرأتُ أن جريدة « العُقَاب » تقترح أن أُمْنَح لقب
« ابن بغداد » ، ثم قرأتُ أن جريدة « اليوم » تقترح أن أُمْنَح لقب «ابن
العراق» ، فما هذا الكرم يا أبناء الرافدين ؟ ابن بغداد ؟ ابن العراق؟
أهلا وسهلا ، فأنا بإذن الله أخوكم الشقيق ما حييت . أنا ابن بغداد
وابن العراق لأنى وقفت وقفة الأُسُود أدفع التهم الكواذب عن بغداد
والعراق . فهل يعرف العراقيون كيف وقَفْتُ ذلك الموقف ؟ الله يشهد
أنى فكرت فى خدمة مصر قبل خدمة العراق ، ومع ذلك اتهمنى الغافلون

(١) السابق / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

بأنى أجامل أهل العراق ، وهل يكون من المجاملة أن تقول كلمة الحق ؟[1]
لم أرد ، يشهد الله ، إلا أن أحفظ لوطنى مكانه فى قلوب الصناديد من
أهل العراق . فإن كان العراقيون رأونى أدّيتُ لوطنهم خدمة حين دفعتُ
عنهم قالة الزور والبهتان فذلك منهم تلطف وترفق ، وستحفظ لهم مصر
هذا الجميل . أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟ إن من الشرف العظيم أن
أكون ابن بغداد وابن العراق . لم يبق فى نفسى إلا كلمة أقولها لكم يا
أبناء الرافدين ، وهى دعوتكم إلى الثقة بأن المصريين يحبونكم أصدق
الحب ويَرَوْنكم إخوتهم الأشقاء ، وما رأيتموه من عنف الصحافة المصرية
لم يقع إلا لهول فاجعة كلية الحقوق . أنا ابن بغداد ؟ أنا ابن العراق ؟
الحمد لله ، الذى كتب أن أكون موصول العهد بأهل العراق ! الحمد لله ،
الذى جعل لى مقام صدق فى البلاد التى رفعت لواء الحضارة الإسلامية !
الحمد لله ، الذى قضى أن أذكر بالخير فى المدينة التى فيها شارع
العباس بن الأحنف وشارع صريع الغوانى ! الحمد لله ، الذى تفضل
فوصل قلبى بالغُرّ البهاليل من أهل العراق ! الحمد الله الذى رفع اسمى
فى بلاد تحفظ الصنيع ! ... إخوانى فى بغداد ، أشكر لكم ما حبوتمونى
من لطف وعطف ، ثم أعترف بأنى أغار غيرة شديدة على سمعة العراق ،
فهل أنتظر أن تغاروا على سمعة مصر كما أغار على سمعة العراق ؟

(١) يشير إلى كتابته فى الصحف ، عند مقتل أستاذ مصرى فى بغداد على يد أحد الطلاب المختلين ، أن الحادث فرديّ وليس موجها من العراقيين ضد المصريين بوجه عام .



إنى أرجوكم أن تحفظوا عهد البلد الذى أحبكم أصدق الحب ورحب
بأخوّتكم أجمل ترحيب. فى مصر ذخائر من الأدب والذوق ، وإن خفيت
عنكم بعض الخفاء . إن مصر تنتظر أن يكون لها سنادٌ من عواطف أهل
العراق ، فكونوا عند ظنها الجميل . أرجو أن تذكروا أنى لم أتفرد
بالصدق فى هواكم ، فلكم فى مصر أصدقاء يُعَدّون بالملايين. ثقوا أيها
الإخوان بأننا أقسمنا أمام الله وأمام الضمير بأن نحفظ العهد . ثقوا
بأننا نؤمن أن الوفاء هو أكرم ذخائر الرجال . أنا ابن بغداد . أنا ابن
العراق . أنا ابن بغداد . أنا ابن العراق . أنا أخ صادق لأبناء دجلة
وأبناء الفرات »[1]. الحق أن هذا ليس نثراً بل هو الشعر كلّ الشعر !

وعندما عاد زكى مبارك إلى مصر كرّمته الحكومة العراقية بـ « وسام
الرافدين » فى سنة ١٩٤٠م . وقد كتب ، رحمه الله ، يصوّر مشاعره
حينما علم بالنبأ قائلاً : « فى صباح اليوم الخامس عشر من تموز تلقيت
برقية من الصديق الكريم السيد عبد القادر أحمد الموظف بمديرية الرعاية
فى بغداد يهنئنى بوسام الرافدين . ومعنى ... هذه البرقية أننى خطرت
فى بال أهل الصدق والوفاء من أقطاب بغداد . وأنا مع ذلك لا أعد
« وسام الرافدين » تحية شخصية ، وإنما أعده رمزاً لتوكيد الصلات الأدبية
والعلمية بين مصر والعراق ، وقد جاهدت فى ذلك جهاد الصادقين ...
إن الله تباركت أسماؤه خصنى بمزية جليلة هى وسام الود الصحيح الذى
شرّفنى به الشعب العراقى ، الشعب النبيل الذى قيدنى فى هواه بقيود

(١) السابق / ٣٦١ .

متينة من شرف الحب وكرم الإخاء . وإذا قيل إن العراق يجزينى وفاء بوفاء وإخلاصًا بإخلاص فأنا أقول إنى سأمضى دهرى كله مدينا للعراق، ولن أستطيع أداء ما للعراق فى عنقى من ديون ولو بذلت دمى وروحى فى حب العراق وأهل العراق ... المرء كثير بإخوانه ، ولى فى العراق إخوة يُعَدّون بالألوف ، فلله الحمد وعليه الثناء »[١].

وعندما أصدرتْ جريدةُ « الهدف » البغدادية عدداً خاصًا عن زكى مبارك بعد عودته إلى مصر علّق ، طيب الله ثراه ، على هذه التحية النبيلة قائلا : « فكرتُ كثيراً فى الأسباب التى جعلت لى هذا الحظ المرموق فى العراق ، ثم رأيتُ أن الأسباب كلها تنتهى إلى سبب واحد هو الصدق ، فما تحدثتُ عن العراق بالجميل إلاّ وأنا صادق ، ولا ذكرتُه بالملام إلا وأنا صادق . وكيف لا أصْدُق فى حب وطن كاد ينسينى وطنى؟ ولو عبّرتُ عن نفسى تعبيراً صحيحًا لقلت إنى لم أستطع أن أتوهم أن مصر والعراق وطنان مختلفان . وما صحّ عندى أبداً أنى كنت غريب الدار فى بغداد . وكما كان الشريف الرضيّ يهدد خصومه فى العراق بأن له فى مصر أصدقاءَ يستنجد بهم حين يشاء ، فأنا أشعر بأنى لى فى العراق أصدقاءَ أستنصر بهم حين أشاء . والله سبحانه هو المَفْزَع لأبرار القلوب . وفى اللحظة التى أكتب فيها هذه الكلمة يستعد فريق من الأساتذة المصريين للتوجه لخدمة العلم والأدب فى العراق ، فأرجو أن

(١) ملامح المجتمع العراقى / ٢٣٧ ـ ٢٣٩ .



يذكروا جميعًا هذه الكلمة الصادقة : « كما تكون للعراقيين يكونون لك» . فمن أراد أن يظفر بحب أهل العراق فليَصْدُقْ فى حب أهل العراق، وليعرف جيداً أن العلانية قليلة الأهمية، فالمعوّل عليه هو صدق القلوب، فقد كنتُ على جانب من جفاء الطبع حين كنت هناك ، وما ضرنى ذلك بشيء لأن قلبى كان مأهول الجوانب بالصدق فى حب أولئك الرجال الصادقين فى الحب والبغض. وهم ، برغم قالة الحجاج[١] ، أبعد الناس عن الرياء . ما أذكر أنى كلّفت نفسى ما لا تطيق فى التودد إلى العراقيين ، وإنما أرسلت نفسى على سجيتها وعشت فى بغداد كما كنت أعيش فى القاهرة وفى باريس ، وكنت أصادق وأعادى كما أصادق فى بلدى وأعادى ، فكانت العاقبة ما عرف إخوانى فى مصر من تواتر العطف عليّ من جميع أهل العراق ... ويجب أن أسجل أن إخوانى العراقيين أعانونى على تحقيق هذا الغرض الشريف ، فهم الذين خلطونى بأنفسهم ودَعَوْنى إلى الاشتراك فى أنديتهم الأدبية والعلمية وحضُّونى على المشاركة فى توجيه الرأى العام بالمقالات والمحاضرات حتى استطعت فى أشهر معدودات أن أدوّن ألوفا من الصفحات لم يظهر منها غير ستة مجلدات ... وقد وصلت بحسن النية وبرعاية الله إلى تحقيق ما أردت بلا مشقة ولا عناء »[٢].

ويقول من كلمة وجهها إلى محرر جريدة « الهدف » بمناسبة العدد

(١) يقصد قول الحجاج عنهم : «يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق » .
(٢) المرجع السابق / ٢٤٢ ـ ٢٤٧ .

الخاص الذى أصدرته هذه الصحيفة عنه : « إن وسام الرافدين الذى تريدون أن تسجلوا ذكراه بعدد خاص من « الهدف » ، هذا الوسام له قيمة عظيمة جداً فى نفسى لأنه صدر عن بلاد أحببتها أصدق الحب ، وكنت ولا أزال سفيرها فى كل مكان حتى صحَّ لأحد إخوانى عندكم أن يقول : « إن الزكى المبارك يحب العراق أكثر مما يحبه العراقيون » . وهذا قول تظهر عليه المبالغة ، ولكنه حق ، فأنا أحب العراق أكثر مما يحبه العراقيون ، كما أحبُّ مصر أكثر مما يحبها المصريون ... ويقول اللائمون إنى أنظر إلى العراق بعين المحب المفتون ، فكله محاسن وليس فيه عيوب . وأقول إن هذا هو الأدب الصحيح ، فما يجوز لرجل عربى أن يرى فى بلد عربى غير الجمال . وقد أوغلتُ فى هذا الأدب حتى صار عقيدة قوية ، فأنا اليوم أجد صعوبة شديدة إذا فكرت فى أن أهل العراق كسائر الناس قد تجوز عليهم النقائص . وحاش لله أن يكون فى العراق نقائص ! »(1) .

وفى خطاب أرسله إلى رئيس تحرير « الأهرام » أنطون الجميِّل آنذاك يقول كاتبنا العملاق واصفًا حب أهل العراق لمصر والمصريين وكلّ ما يتعلق بهم : « أتريدون الشواهد على مكانة مصر فى العراق ؟ عيشوا فى العراق شهراً أو شهرين ، فإن فعلتم فستَرَوْنَ وجه مصر هناك فى كل مكان : سترونه فى المدارس والمعاهد والمكاتب والأندية والملاهى

(1) السابق / ٢٦٧ ـ ٢٧١ .



والشوارع . سترون جرائد مصر ومجلات مصر ومؤلفات مصر وأغانى مصر مبثوثة فى كل مكان . ستسمعون نشيد الجامعة المصرية فى اليوم الواحد عدة مرات . سترون صورة الملك فاروق فى جميع البيوت وحولها صورُ الزعماء المصريين . سترون العراق أكرم وأوفى مما تظنون . إن العراق أيها الإخوان بلد جميل جدا ، وأهله أكرم الناس وأوفى الناس . ولو قضيت دهرى فى الثناء على أهل العراق ما استطعت أن أؤدى ما طوّقوا به عنقى من أطواق العطف والإخاء »(1) .

ومع هذا كلّه وغير هذا كلّه مما تفيض به الكتب والمقالات التى ألفها زكى مبارك أثناء مُقَامه فى بغداد وبعد عودته منها ويدلّ على أن العراق حكومة وشعبًا قد بوَّأتْ زكى مبارك حين كان يعيش فى ذلك القطر الشقيق مكانًا عزيزاً وكريمًا فى حبة القلب نفاجأ بأحد من كتبوا عن الدكتور زكى مبارك فى الأعوام الأخيرة ، وهو محمد جاد البنا ، يتعجب تعجبًا شديداً من عدم مُكْث الدكتور زكى فى العراق سوى عام واحد ، بينما مكث غيره ممن سبقوه إلى العمل هناك كالزيات وعبد الوهاب عزام ثلاث سنين تقريبًا ، ثم يردف هذا التعجب بسؤال له مغزاه ، إذ يحمل فى طريقة صياغته الإجابة عليه فيقول : «ما السبب يا ترى الذى لم يجعل العراقيين يحرصون على تجديد عقده وهو الذى ملأ الدنيا تمجيداً للعراق وأهله ؟ »، ثم يسمى الأمر لغزاً ، إذ يعقب قائلاً : « الحق أن هذا اللغز فى حياة مبارك إذا انضم إلى لغز خروجه من الجامعة الأمريكية

(1) السابق / ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

دون أن يفصح عنهما أو عن أحدهما على كثرة ما أفصح يجعلنا نقع فى حيرة »[1]. ومن الواضح أن سؤال الباحث قد صيغ بحيث يبدو وكأن الحكومة العراقية لم تفكر فى تجديد عقد زكى مبارك عندما كان يشغل فى دار المعلمين العليا ببغداد ، وهو ما جعلنى أقول إن طريقة صياغة السؤال تحمل فى طياتها الإجابة عليها . وعلى هذا الأساس فإن القارئ لو سُئِل بعد قراءته ذلك الكلام : لماذا لم يمكث زكى مبارك فى بغداد أكثر من عام مثل من سبقوه من المصريين للعمل هناك ؟ كان جوابه على الفور : لأن الحكومة العراقية لم تكن راضية عنه ، ومن ثم لم تحرص على تجديد عقده .

وقد التقط د. محمد رجب البيومى ، أستاذ الباحث ، هذا الخيط فكتب فى مقدمته لدراسة الأستاذ البنا ما يلى : « أريد أن أزيل حيرة الباحث فأقول إن المسألة واضحة لا ترتقى إلى حدّ الإلغاز ، فهو يعرف عن طبيعة مبارك سرعة الإعلان عن كل ما يختلج فى نفسه وما يدور فى طوايا أعماقه ، وقد ملأ مئات الصفحات حديثا عن رجال العراق ، وفيهم الرسميون من الملوك والأمراء والوزراء ، وأجرى على لسان بعضهم ما كان يجب ألا يذاع ! وكتاب « ليلى المريضة فى العراق » بأجزائه الثلاثة شاهد على ذلك . ولزكى مبارك طيبة قلب جعلته يعتقد أن تناول

---

(١) محمد جاد البنا / المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه / دار الكتاب السعودى / الرياض / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م / ٥٨ / هامش ١ .



أحاديث الرسميين مما يرجح به الميزان الأول (؟) فى دنيا الأسمار والأحاديث ، ولكنه نسى أن بعض من تحدث عنهم قد لا يسرّه أن يعلن الدكتور ما قاله فى مجلس خاص ! لذلك قدّرت العراقُ ، ممثّلةً فى وزارة المعارف ، أدبَ الدكتور زكى مبارك فمنحتْه « وسام الرافدين » عقب انتهاء عمله العلمي . ولكنها من ناحية أخرى حرصت على أن يكون بمنأى عن بلادها كيلا يسرف فى نشر ما قيل أو يتخيل أنه قيل، لأن طبيعة المبارك فى تسجيل الأقوال تميل به إلى بعض الإسراف . ونحن جميعًا نعرف أن كلا من الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ أحمد حسن الزيات أديب ملتزم صموت لا يتدخل قليلا أو كثيرا فيما ليس يعنيه . ومن هنا طابت لهما الإقامة فى بلاد الرافدين ، إذ لم يسمحا لقلميهما أن يخوضا فى غير ما يعنيهما من أمور . ولهذا السبب ذاته حرصت الجامعة الأمريكية على إنهاء عقد الدكتور مبارك لأن ما كتبه فى باب «الحديث ذو شجون » بجريدة « البلاغ » قد تناول بعض رجالها وأساتذتها بما ظنه الدكتور لا يقع موقع الاستياء . وكان يمكن أن يأخذ العبرة من ذلك فلا يقع مرة أخرى فى تسرعه ، ولكنه استجاب إلى طبيعته فأباح[1] بكل شيء فيما كتبه عن رجال العراق ! وكانت العاقبة متوقعة دون مراء »[2].

هذا ما قاله الدكتور البيومى ، ولكن الواقع أن « العاقبة » لم تكن

---

(١) الصواب « باحَ » .

(٢) المرجع السابق / ١١ - ١٢ .

كذلك البتة ، بل كان رجال العراق متمسكين بزكى مبارك أشد التمسك وحاولوا معه بكل سبيل أن يبقى عندهم لكنه أصرّ على أن يرجع إلى مصر للأسباب التى سنذكرها حالاً . وهذا الكلام ليس من عندنا ولا هو مجرد تخمينات أو حتى استنتاجات ، بل هو كلام موثق وموجود لمن يريد الاطلاع عليه فى «ليلى المريضة فى العراق » وفى غيرها . وهذا الكتاب قد ذكره د. البيومى وأحال القارئ عليه بما يوهم أن فيه ما يعضّد دعاواه ضد زكى مبارك مع أن فيه الأدلة القاطعة على عكسها ، فما السبب يا ترى الذى جعل الأستاذ الدكتور يفعل ذلك ؟ إن هذا لهو اللغز الذى يستحق من أحد الباحثين أن يحاول فكّه، وإن هذه لهى الحيرة التى تحتاج إلى من يُخْرِجِ القارئ منها . والآن إلى الحقائق (لا الأوهام ولا التخمينات أو حتى الاستنتاجات) المتصلة بهذه القضية :

لقد طلبت الحكومة العراقية من مصر أن ترسل إليها أستاذا للأدب العربى بدرجة دكتور ، فعرض المسؤولون فى وزارة المعارف المصرية على الدكتور زكى مبارك السفر إلى بغداد للقيام بهذه المهمة ، لكنه تردّد بل اعتذر . وكان السبب فى ذلك أنه يريد تسوية وضعه الوظيفى فى وزارة المعارف للحصول على الترقية التى يستحقها بعد فوزه بالدكتوراه الثالثة من الجامعة المصرية مما لا يمكنه أن يصنع فيه شيئًا لو ترك مصر[1]. لكنه، رحمه الله ، تلقى خطابا من نائب القنصل العراقى فى مصر يطلبه

(١) انظر « ليلى المريضة فى العراق » / ١٧ ، ٢٢٩ .



بالاسم لهذه الوظيفة ويستسمحه « بالتفضل » بزيارة المفوضية العراق للتباحث فى مسألة انتدابه للتدريس فى العراق « بناء على شدة رغ وزارة المعارف العراقية فى ذلك »[1]، فقبل زكى مبارك الدعوة بعده انتقلت المسألة من مجرد ترشيح من وزارة المعارف المصرية إلى حرص م وزارة المعارف العراقية على انتدابه هو شخصيًا وليس أحداً غيره . وَق كان عنده ، حين قبل السفر ، أمل فى أن تنصفه وزارة المعارف المصر وهو بعيد عن الوطن لتشجعه على الاطمئنان إلى عمله بالعراق[2].

بيد أن الأمور لم تسر على نحو ما كان يشتهى ويستحق ، إذ إ الدكتور طه حسين ، وكان إبّانذاك عميداً لكلية الآداب ، التى نا منها د. زكى مبارك دكتوريته الثالثة ، قد أضاف إلى الخطاب الذ يفيد حصول الدكتور مبارك على إجازة الدكتوراه بمرتبة الشرف سطور فى أسفله تنص على أن الجامعة لن تسلمه هذه الإجازة إلا بعد أن يقد لها خمسين نسخة مطبوعة من رسالة الدكتوراه ، وهو ما لم يكن فى قدرة الدكتور زكى مبارك المالية أن يفعله . لكن المسألة عنده كانت مسألة تحدٍّ بينه وبين الدكتور طه حسين فعقد العزم ، بعد أن قارب العا أن ينصرم ، على الرجوع إلى مصر وطبع الرسالة بأى ثمن كى يحصل

(١) فى « ليلى المريضة بالعراق » ( ص ٢٣٠ ) صورة زنكوغرافية من هذا الخطاب .
(٢) السابق / ٢٢٩ - ٢٣٠ ، وسيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٨٢ .

على الترقية التى لا شك أنه كان يستحقها عن جدارةٍ . ومن هنا فعندما سألته دار المعلمين العالية ببغداد عن مناهج العام المقبل وطلبتْ رأيه فى تجديد العقد كان ردّه خطابًا بالاعتذار لهذا السبب مع تأكيده أنه كان يودّ البقاء معهم مثلما يودون هم وشُكْرِه لهم على هذه الثقة الكريمة والمحبة الغالية التى أَوْلَوْهُ إياها[1].

وقد حاول المسؤولون فى دار المعلمين ببغداد أن يَثْنُوه عن عزمه ، وحاجّوه بأن كثيراً من العراقيين يطبعون كتبهم فى مصر دون أن يتركوا أعمالهم فى العراق ، ولكن كان هناك سبب آخر وراء قراره بالعودة خَجِلَ أن يصرّح به لهم لأنه يمس وطنه الغالى الذى ظل يهتف باسمه ويمجده ويتغنى بمحاسنه وعظمته رغم ألوان الإجحاف التى صبها عليه بعض المسؤولين فى هذا الوطن صبًا ، وهذا السبب هو « أن وزارة المعارف فى مصر قدّرت لى مرتبا لا يكفى أن يكون مصروف جيب » . فعاد المسؤولون بدار المعلمين ببغداد يرجونه سحب خطاب الاعتذار ، لكنه تمسّك بموقفه . ولم تقف المسألة عند هذا الحدّ ، إذ علمت وزارة المعارف العراقية بالأمر فألحت عليه أن يبقى ، ولكنه أصرّ على الرحيل ، فأكد له الأستاذ طه الراوى وكيل الوزارة أنهم على استعداد لترضيته إذا كان هناك ما يشكوه منهم ، بل ذهب معه إلى حدّ القول بأنهم على استعداد

---

(١) نص الخطاب موجود فى صفحتى ٢٣٣ - ٢٣٤ من كتاب « ليلى المريضة فى العراق» ، وقد اكتفى كاتبنا فيه بالقول بأن طبع الكتاب المذكور لا يتسنى فى بغداد لأسباب فنية .



لإعفائه من التدريس تمامًا ويكفيهم أن يبقى معهم بالعراق بعدما أحدث فيها موجة فكرية وأدبية ، فاعتذر زكى مبارك وكتب له بيتين شعريين يصوّر فيهما لوعته واشتياقه إلى أبنائه وبناته ، فكان له فى النهاية ما أراد[1].

ونحب أن نذكر أن زكى مبارك قد كتب هذا كله فى مجلة « الرسالة » وهو لا يزال بالعراق قبل أن يجمعه فى كتاب ، ولو كان فى كلامه أدنى تزيُّد لوجد بكل تأكيد من يردّ عليه . ليس ذلك فقط ، بل نشرتْ صحيفة « العراق » البغدادية فى ذلك الوقت خبراً تحت عنوان « أستاذ الآداب العربية فى دار المعلمين العليا » جاء فيه : « علمنا أن وزارة المعارف قد طلبت إلى المفوضية العراقية فى مصر أن تراجع ذوى الشأن فى مصر لانتداب أحد أساتذة الآداب فى مصر للقيام بتدريس الآداب العربية فى دار المعلمين العالية بعد أن أبدى الدكتور زكى مبارك إصرارا

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٢٣٠ - ٢٣٦ . وانظر كذلك قوله عن الأستاذ الرادى : «وأخذ يعاتبنى على ذنب جنيته ، وهو أنى اعتذرت عن مواصلة العمل فى دار المعلمين العالية فى العام المقبل بدون أخذ رأيه . ثم قال : لقد قضيتُ يومين وأنا مبلبل الخواطر بسبب فراقك » . وهذا الكلام مثبت فى كتاب « وحى بغداد » ، وقد نقلته عن كتاب الأديب العراقى عبد الرزاق الهلالى « زكى مبارك فى العراق » ، الذى ظللتُ أبحث عنه طوال أكثر من عامين حتى وجدته مساء اليوم ( الأحد ١٧/٥/١٩٩٨م ) عند د. مصطفى الشكعة ، الذى تفضل مشكوراً بإعارتى إياه (ص ٢١١/ط . المكتبة العصرية / بيروت / ١٩٦٩م ) . وقد ورد هذا الكلام فى الأصل فى مقالٍ نشره زكى مبارك فى مصر وهو لا يزال فى بغداد .

على عدم تجديد عقده للسنة الدراسية القادمة »[١]. وفضلاً عن هذا فقد ذكر د. زكى مبارك فى مقالاته عن « ليلى المريضة فى العراق » أن المسؤولين فى وزارة المعارف المصرية قد نصحوه بمراعاة عواطف أهل بغداد وتلبية رغبتهم فى بقائه معهم ، لكنه أصرّ على الاعتذار « لأُخْرِس الألسنة التى قالت إنى أدافع عن أهل العراق[٢] لأحافظ على منصبى فى بغداد »[٣]. ومرة أخرى لو كان زكى مبارك يتقول هذا على المسؤولين فى وزارة المعارف المصرية (وقد سمّاهم ، وهم العشماوى بك وعوض بك وفهيم بك ) أكانوا سيسكتون على هذا الذى ينسبه إليهم زوراً ؟

والحقيقة ، خلافًا لما قاله د. البيومى ، هى أن زكى مبارك كان حريصًا على عدم الزج بنفسه فى شؤون العراق السياسية ، بل إنه حين عُرِض عليه فى بداية عمله ببغداد أن يوجه كلمة إلى الجمهور العراقى فى الإذاعة اعتذر أكثر من مرة ، وذلك بناءً على نصيحة الدكتور طه حسين له قبل سفره بأن يترك « الهوسة الأدبية » هناك ، وإن عاد فقبل تحت إلحاح سكرتير الإذاعة العراقية أن يدلى بالحديث المطلوب[٤]. كذلك ففى إحدى محاضراته فى نادى المثنّى بالعراق ، وكانت عن « العروبة فى

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٣٦٢ .

(٢) يقصد المقالات التى كتبها ، إثر مقتل أستاذ مصرى ببغداد على يد طالب عراقى ، لتهدئة الخواطر حتى لا تسوء العلاقات بين البلدين .

(٣) المرجع السابق / ٣٦٣ . ومن هؤلاء د. سعيد عبده وأحمد الصاوى محمد ( نفس المرجع / ٣٣٢ ـ ٣٣٥ ) .

(٤) انظر « ملامح المجتمع العراقى » / ١٥٧ ـ ١٥٨ ، ١٦٩ .



مصر » ، نسمعه يقول : « أسارع أيها السادة فأنصّ على أن محاضرتى لا صلة لها بالمعانى السياسية ، فليس فى بغداد مصرى يحق له أن يتكلم فى السياسة غير سعادة الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وزير مصر المفوض فى العراق »[١]. كما ذكر أن د. طه حسين قد نصحه بالامتناع عن التعليق على الأوضاع فى بغداد لدقة مركزه وحساسيته ، وأنه قد وضع هذه النصيحة نُصْبَ عينيه[٢].

والحقيقة أيضًا هى أن بعض زملاء الدكتور زكى مبارك من المصريين فى العراق هم الذين كانوا يتدخلون فى الشؤون الخاصة بذلك القطر مما كان سببًا فى وقوع بعض الاضطرابات والمشاكل لهم . ومن هؤلاء د. محمود عزمى والدكتور سيف ، الذى أطلق عليه أحد طلابه الرصاص فقضى نحبه بعدها بساعات[٣].

والحقيقة ثالثًا هى أن الدكتور زكى مبارك أول مصرى أنعمت عليه العراق بـ « وسام الرافدين » كما ذكر هو نفسه بمناسبة أبيات قالها فى وزير المعارف العراقية عند زيارته لمصر بعد عودة كاتبنا من العراق بعدة أشهر[٤]. وإذا كان هذا غير صحيح فنرجو ممن يعرفون الحقيقة أن يتكلموا ويكذِّبوا ما قاله .

(١) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ١٢٩ .

(٢) انظر عبد الرزاق الهلالى / زكى مبارك فى العراق / ٥٤ .

(٣) انظر « ليلى المريضة فى العراق » / ٢٧٣ ـ ٢٩٧ .

(٤) انظر « قصائد لها تاريخ » / ٣٠ .

ثم إن الوسام الذى حصل عليه الدكتور زكى مبارك من العراق إنما خُلِع عليه بعد عودته من هناك على خلاف ما قد يُفهم مما قاله د. البيومى عن هذه المسألة ، إذ يبدو كلامه وكأن العراق أرادت إرضاء زكى مبارك ظاهريًا والتخلص منه فعليًا ، فأعطته الوسام وهو لا يزال عندهم حتى تخفف عليه صدمة الاستغناء عنه . على أن المسألة ليست مسألة « وسام » تضحك به الحكومة العراقية على زكى مبارك ، بل أصدرت كذلك صحيفةُ « الهدف » البغدادية (وكان ذلك أيضًا بعد عودة زكى مبارك من العراق) عدداً خاصًا عنه على ما مرّ بيانه . ولست أدرى هل فعل العراقيون هذا مع غيره ممن ذهبوا إلى العراق « وطابت لهم الإقامة» هناك على حدّ تعبير د. البيومى .

ثم هل كان الدكتور زكى مبارك بعد عودته إلى مصر سيسكت عن العراقيين بَلَهَ يظل يتغنى بحبهم وبالأيام الجميلة التى قضاها فى بلادهم والذكريات الحميمة التى ربطت بين قلبه وقلوبهم لو كانوا هم الذين استَغْنَوْا عنه ؟ إن ذلك لهو المستحيل بعينه بالنظر إلى ما نعرفه من شخصية زكى مبارك الصريحة المقتحمة التى لا تبالى بشيء ، وبخاصة أن هجومه على العراقيين حينئذ لم يكن ليضرّه بشيء ، فقد استغنَوْا عنه وانتهى الأمر ، وذلك على رأى المتنبى : « أنا الغريق ، فما خوفى من البلل ؟ » .

كذلك فإن الرسائل التى تُبودلَتْ بين الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية و د. زكى مبارك بعد عودة الأخير من العراق لتدلّ على



قوة الآصرة التى كانت تربط بين أديبنا وهذا المسئول العراقى حتى لقد طلب د. محمد حسين هيكل من زكى مبارك أن يتوسط لأحد الفلسطينيين عند المرحوم طه الراوى ليعاونه ( فيما يبدو ) فى الحصول على وظيفة بالعراق ، وقد قُبِلت وساطته من فورها[١] . وعندما مات الراوى أرسل الملحق الثقافى بالمفوضية العراقية فى مصر خطابا للدكتور زكى مبارك يدعوه فيها إلى الاشتراك فى تأبين الأستاذ الراوى بقصيدة تُلْقَى فى حفلة بدار المعلمين العالية ببغداد خاصة بهذا الغرض . والقصيدة تدل على مدى الحزن الذى شعر به أديبنا عند سماعه نبأ وفاة الرجل . وفى تقديمه للقصيدة كلام عن الحفاوة التى كان يستقبل بها الفقيدُ أديبنا وزملاءه من المصريين[٢] . وما كان زكى مبارك ليقول شيئًا من هذا أو ينظم القصيدة أصلا لو كان العراقيون هم الذين استَغْنَوْا عنه .

وأخيراً وليس آخرا فإن الحكومة العراقية ، حينما مات الملك غازى فى عام ١٩٣٩م، قد دعت أدباء الأقطار العربية لحضور الاحتفال بتأبينه، فأرسلت وزارة المعارف المصرية ( التى كان يشتغل زكى مبارك فيها مفتشا ) الأستاذ على الجارم ، فما كان من المفوضية العراقية فى القاهرة إلا أن هاتفته ودعته بصفته الشخصية لتصلح هذا الوضع[٣] .

(١) انظر حارث طه الراوى / طه الراوى / المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر / ١٩٦٥م / ١٤٣ ـ ١٥١ .

(٢) المرجع السابق / ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ، وانظر القصيدة فيما يلى ذلك من صفحات .

(٣) انظر « الأسمار والأحاديث » / ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، وسيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٨٧، وقصائد لها تاريخ / ٣٥ .

ترى هل كان من الممكن أن يفعل العراقيون هذا لو كانوا هم الذين استغنوا عنه ؟ وبالمناسبة فقد استمع الملك غازى إلى أول حديث لزكى مبارك فى الإذاعة العراقية عندما كان ببغداد واتصل به هاتفيا لمناقشته فيما قال[1]، وكذلك حضر رئيس الوزراء العراقى أول محاضرة له عن «عبقرية الشريف الرضى » فى حقوق بغداد[2]. فعلام تدل هاتان الواقعتان ؟ ألا تدلان على حبّ المسؤولين العراقيين له واحترامهم إياه ؟[3].

هذا ، وقد قرأتُ فى كتاب الكاتب العراقى عبد الرزاق الهلالى «زكى مبارك فى العراق» ما يؤكّد كل ما قلته عن القضية التى نحن بصددها ، ومنه أن « المسؤولين فى وزارة المعارف العراقية أسفوا على إصرار الدكتور على ذلك ( أى على عدم رغبته فى تجديد انتدابه ) ، وأخذ أصدقاؤه يلحون عليه فى سحب هذا الكتاب (يقصد خطاب

---

(١) ملامح المجتمع العراقى / ١٥٨ - ١٦٣ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٨٢ - ٨٣ .

(٣) كنت قد أرسلت للصديق الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين ، الكاتب والشاعر العراقى المعروف ، أسأله عن الانطباع الذى تركه د. زكى مبارك فى نفوس العراقيين خلال السنة التى عمل فيها ببغداد ، فوصلنى منه خطاب جاء فيه : « أما الدكتور زكى مبارك فله مكانة كبيرة فى نفوس الأدباء فى العراق ، ولا ينساه كاتب أو أديب . ومن جراء هذه السمعة الحسنة تعرّفْتُ علْى ابنته كريمة وعلى ولده ، وبينى وبينهما صلات ود . ولم أره غير مرة واحدة فى الإسكندرية عندما كان الأستاذ عبد الحميد العبادى عميد الآداب يدرّسنا التاريخ . دخل زكى مبارك ، وكان قد سجّل لدكتوراه ثالثة أو رابعة ، فعرّفنى به أستاذنا ، وغازل طالبة عراقية » .



الاستقالة) ... وهكذا وبناء على إصرار الدكتور زكى مبارك تُكْرَه وزارة المعارف العراقية على قبول طلبه بإنهاء خدماته اعتباراً من يوم ١٩٣٨/١٠/١. وكتبت جريدة « البلاد » البغدادية تقول : بملء الأسف أن يطلب الدكتور زكى مبارك أستاذُ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية إنهاءَ خدماته ، وقد وافقت وزارة المعارف على طلبه ... ومهما أردنا أن نتحدث عن حضرته فنجد القلم عاجزاً واللسان كليلاً ، فهذه سَنَةٌ قضاها الأستاذ الكبير فى ربوعنا كان خلالها مثال العربى النبيل مضحيًا بأسعد ساعاته وألذ أوقاته فى سبيل تثقيف ناشئينا . ومؤلفاته العظيمة ومقالاته عن العراق سوف تمر أعوام وأعوام وأهل العراق يذكرون الدكتور زكى مبارك وما قام به فى سبيلهم من خدمات. فيا سيدى الدكتور ، بقلوب مملوءة بالإجلال والاحترام يودعك العراقيون وفى قلوبهم الحسرة والألم لفراقك ... لقد انتهت أيام الدكتور فى العراق يوم ١٩٣٨/٦/٢٣ وغادره عائداً إلى أرض الكنانة بعد عام دراسى حافل بنشاط أدبى وثقافى منقطع النظير »[1]. وأظن أنه لا مجال لأى كلام آخر بعد هذا الذى قلناه .

على أنه ينبغى ألا يظن ظان ، بناء على مفهوم المخالفة ، أنه ما دام أديبنا كان يحب العراق كل هذا الحب الحارّ العميق لِمَا وجده هناك من ترحاب وتقدير وتكريم لم يكن يشعر بهذا الحب نحو مصر ، التى حُرِم

---

(١) عبد الرزاق الهلالى / زكى مبارك فى العراق / ٢٢٨ - ٢٣١ .

فيها على المستوى الرسمي ما يستحقه من اهتمام وحفاوة . لقد كان زكى مبارك على العكس عاشقًا مولهًا بحب مصر ، لا يستطيع أن ينساها أو يتوقف عن الهتاف باسمها والتغنى بأمجادها وعظمتها فى الماضى والحاضر وزعامتها لبلاد العرب والمسلمين ولو للحظة . أى أن مصر ، التى يرى أنها ظلمته وغمطته حقه وقدره ، كانت تحتل المكانة الأولى عنده لا يستطيع أى بلد آخر أن ينازعها فى ذلك ، ثم تأتى العراق تاليةً لها . ولست أستطيع أن أتذكر أى كاتب آخر قد دانى زكى مبارك فى هذه الوطنية الجارفة بله أن يتفوق عليه فيها . وهذه سمة أخرى من السمات التى يتميز بها أسلوبه . إن مصر دائمًا فى قلبه ووجدانه ، وفى فمه وعلى لسانه ، وما من فرصة تسنح من قريب أو من بعيد إلاَّ وينطلق يهدر بأناشيد حبه لها وتعظيمه لمكانتها وتاريخها وهيامه بجمالها وفُتُونها . ولننصت خاشعين لهذه التراتيل البديعة التى كان يرتلها على مسمع الزمان فى الولَه بأرض الكنانة المحروسة :

« هل فى الدنيا ، ولولا التُّقا لأضفت إليها الآخرة ، وَطَنٌ خليقٌ بأن يُعَذَّب فى سبيله أبناؤه مثل وادى النيل ؟ ... لقد كانت مصر ولا تزال بابا من الفتنة لكل من يُمْسِى وله فيها رأى مطاع ، وبفضلها يقول فرعون : { أليس لى مُلْك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ } . وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورِّث أهلَها من العزة وتغرس فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك



ويحبّب إليه العدوان »[1]، « لقد زرت عشرات القصور فى فرنسا فوجدتها جميعًا دون قصر الكرنك . إن قصر الكرنك ، وهو خرائب وأطلال ، لأعظم وأروع من قصر فرساى ، وطريق الأسود فى الكرنك يشهد بأن المصريين لعَهْدِ الفراعين كانوا أئمة الدنيا فى تصور الانسجام بين الجمال والجلال »[2]، « أحبك يا وطنى ، أحبك ، أحبك . أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول . لم يعان أحد من الظلم مثل ما عانيت ، فما زادنى ذلك الظلم إلا عرفانا بجمال وطنى . وهل رأيتم جميلاً غير ظلاَّم ؟ »[3]، « ما استوطن أجنبيٌّ مصرَ إلا خَلَعَتْ عليه أثواب القوة والبهاء ، وما دخل غريب مصر إلا نسى بلده الأصيل أبد الآبدين »[4]، « وطنى ، أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرنى فى العصبية لك ، لأنك وطنى وحدى ولأنى لا أسمح لأحد أن يسبقنى فى الوصول إلى مواقع هواك »[5]، « نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمة لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية . نخدمه صادقين لا كاذبين ، ولا ننتظر منه أى جزاء لأن خدماتنا تجل عن الجزاء . وماذا يملك الوطن حتى يكافئ المجاهدين من أرباب الأقلام ؟ أيمنحهم الألقاب؟

---

(١) الموازنة بين الشعراء / ١٤٥ - ١٤٦، وأحمد شوقى / ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) الموازنة بين الشعراء / ٣٠٠ .

(٣) أحمد شوقى / ٤٥ . وينبغى ألا نَغْفُل عن هذه اللفتة المذهلة فى تعليل الظلم الذى وقع عليه !

(٤) الحديث ذو شجون / ١١٨ .

(٥) المرجع السابق / ١١٩ .

أيمنحهم الأموال ؟ وأى لقب أفخم من لقب الأديب ؟ وأى ثروة أعظم من روح الأديب ؟ أستغفر الله وأعتذر إلى الوطن الغالي، فجزاءُ الأديب من وطنه مضمون لأن الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب ... وهل نخدم الوطن أو نحبه طائعين حتى نَمُنّ عليه بالخدمة والحب ؟ هيهات ثم هيهات . إنما نحب مصر الغالية مأخوذين بسحرها الأخاذ ومفتونين بجمالها الفتان . وهل فى الدنيا أكرم أو أجمل من مصر ؟ ... وطنى ، لو ظهرتْ أشراط الساعة نذيراً بقيام القيامة وخَرِسَت الألسنةُ وجفَّت الأقلام وشُغِل المرء عن أخيه وزوجته وبنيه لرأيتُ من واجبى أن أرفع القلم لصوتك وفضلك وأن أجعل آيتك فى البيان خاتمة آيات الوجود ... وطنى ، إن جَهِلْتَ من أنا فإنى أعرف من أنت ، والحياة صراع بين الجهل والعلم واليأس والرجاء ، وسأعرف كيف أجزيك على فنائى فيك »[1]، « بلادنا طوقتْ جميع البلاد بأغلال الديون العقلية والروحية ، ولن يتنفس بلد فى شرق أو غرب إلا وهو مدين لمصر بديون ثقال ... ثم أذكر أن بلادنا هى التى صدَّت المغول الوافدين من الشرق ، وهى التى صدت الصليبيين الوافدين من الغرب فكُنَّا الميزان لأبناء ذلك الزمان ... لن تضام مصر أبداً لأنها وطن الرجال وأول وطن غلب الدهر الخوّان . أحبك يا وطنى ، أحبك يا بلادى حبًا لا ينتظر أى جزاء لأنه أعظم من أى جزاء »[2]، « الصيف المصرى جدير بالترحيب ، وبفضله نتذوق نسمات

(١) السابق / ٢٧٨ .

(٢) السابق / ٣٠٠ .



فى المساء لا تجود بمثلها الطبيعة فى أى أرض . والقيظ فى مصر يُتَّقى بالظل ، وفى غير مصر لا يُتَّقَى القيظ إلا بوسائل يغلب عليها الافتعال وطعم الظل فى مصر لعهد الصيف جميل المذاق إلى أبعد الحدود ، و أدرى كيف تركناه بلا تنويه فيما كتبنا عن خصائص الطبيعة المصرية »[1]، « سأقول وأقول إن مصر هى باعثة الأدب العربى بعد أ طال عهده بالهجود ... نحن خلفاء العرب ، والمصحفُ لا يُطبَعَ إلا فى بلادنا ، وسترفع راية العروبة فى جميع الميادين ... الآن عرفت أ التجنى على مصر ... إنما هو نزوة تطوف برؤوس حرمها اللهُ نعمةَ العقل وكتب عليها الخذلان »[2]، « زعامة مصر الأدبية عبء ألقاه القدر علينا، ولولا الحياء لفررنا من حمل ذلك العبء الثقيل »[3]، «إن الذى ينام بمصر فى المقمرات من ليالى الصيف ليس إلا قطعة من ثلوج الشمال نُقِلَتْ ظلما إلى هذه البلاد ! النوم ضرب من الموت ! وهو الموت الأعظم لمن يجهل فضل الليالى المقمرة بمصر فى أوقات الصيف »[4]، « الأخوة التى بينى وبين الدكتور الجمالى[5] فرضت عليه أن يرى مصر بعينى ، مصر التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد ، مصر التى وُلِد فيها موسى ونشأ بها عيسى وصاهرها محمد ، وهم صفوة الأنبياء ... إن استباح السفهاء

(١) السابق / ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) السابق / ٥٣٢ - ٥٣٣ .

(٣) السابق / ٥٤١.

(٤) ملامح المجتمع العراقى / ١٩٦

(٥) هو الدكتور محمد فاضل الجمالى مدير التربية والتدريس فى العراق آنذاك

من أهل البغى أن ينالوا مصر بسوء فسيكون لهم من وراء البغى ألوان وصنوف من غضب صاحب العزة والجبروت ، مصر التى لم يهتف بمثلها شاعر ولا كاتب ولا خطيب ، مصر التى لم يتفتح الزهر فى أرض أكرم من أرضها ولا أخصب ، مصر التى يتخطر على ثراها أسراب لا ترى مثلها العيون فى شرق ولا غرب . مصر الجميلة الغالية ليس فيها ما يعاب ... فإن صح أن فيها ما يشوك فهو سواد الخال فى الخدّ الوهّاج »[١] ، « رباه ، إن القاهرة نعمة من نعمك على عبادك ، فاجعلها عامرة أبد الآبدين ، واجعلها يوم القيامة عروس الشعر والخيال ، بل احفظها واجعلها شقيقة الفردوس يوم يلقى المخلصون جزاء ما يعملون . رباه ، إن القاهرة هى الشاهد على أن اللغة العربية خليقة بالسيطرة فى عالم العلم والمدنية . رباه ، إن القاهرة من أجمل ما خَلَقْتَ من المدائن ، فاجعلها كنانتك واحفظها من السوء حتى أعيش فيها عيش السعداء وحتى يعيش فيها أبنائى وأحفادى عيش النضرة والنعيم على وفاق وسلام مع جميع الأقطار العربية »[٢] ، « ماذا يريد الشرق ؟[٣] هو يفهم أن مصر عندها العلم وعندها المال ، وفى مقدورها أن ترفع دعائم القومية العربية ... إن مصر هى أعظم أمة عربية »[٤] ، « هنا القاهرة . هنا القاهرة وطن العروبة . هنا القاهرة وطن الإسلام »[٥] ، « إن مصر

---

(١) المرجع السابق / ٢١٧ ـ ٢١٨ .
(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٥٥ ـ ٥٦ .
(٣) يقصد الشرق العربى .
(٤) السابق / ٣٦٩ .
(٥) السابق / ٤١٠ .



عربية ، وهى فى عروبتها أصدق من بلاد الحرمين وطن النبى العربى الأمين »[١] ، « إن المانجة فاكهة هندية الأصل ، ولكنها حين غُرِسَتْ فى مصر أقامت الدليل على أنها كانت فى الهند من الغرباء . والإسلام نشأ فى بلاد العرب ، ولكنه حين اتصل بمصر عرف أن مصر هى وطنه الأصيل. واللغة العربية نشأت فى جزيرة العرب ، ولكنها حين استأنست بمصر آمنت بأن العروبة هى من خصائص وادى النيل »[٢] ، « نهر النيل هو المبدع للجمال ... وقد رأيت أن أهب حياتى لوطنى وأن أرفع اسمها بقلمى ، فكان جزائى جزاء من يحمل خزينة حديدية مملوءة بالذهب ليسقط تحتها وهو صريع ، ولكنى راضٍ عن بلادى لأنها وطن الجمال »[٣] ، « لن أكفر بوطنى ولو شربت فيه الصاب والعلقم ، فالقول بأن مصر زعيمة الأمم العربية ليس حديث خرافة ، وإنما هو قول صحيح . إن مصر هى التى نشرت كتاب سيبويه ولم ينشره العراق ، وهو الوطن الأول لمؤسس الفلسفة النحوية »[٤] ، « هذا وطنى ، الوطن الذى عانيتُ من أجله ما عانيتُ ، ولم أخنه فى سرّ ولا فى جهر ، ولم ير منى غير الصدق والوفاء »[٥] .

---

(١) السابق / ٤١٤ .
(٢) السابق / ٤٢٩ .
(٣) قصائد لها تاريخ / ١٢٠ .
(٤) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٥٤ .
(٥) المرجع السابق / ٢٤٣ .

كذلك ألقى زكى مبارك محاضرة فى نادى المثنَّى بالعراق عن «العروبة فى مصر » وهدر صوته ، فى مسامع العراقيين الذين أكرموه غاية الإكرام واحتفوا به وأحبوه أشد الحب والاحتفاء ، بتمجيد مصر وتأكيد زعامتها لا للعرب وحدهم بل لهم وللمسلمين أيضًا أجمعين . وقد جاء فيها أن « مصر أعظم موئل للعروبة » ، وأن المستعمرين « يفهمون جيداً أن الأمم العربية تمنح مصر حق الزعامة الأدبية ، فهم يسلكون جميع المسالك ليسوِّئوا سمعة مصر بين الأمم العربية» ، وأن «مصر اليوم هى الشاهدة على حيوية العرب» ، وأنها « هى البلد الوحيد بين البلاد العربية ... الذى يعيش فيه حملة الأقلام عيش المياسير » ، وأنها « هى التى استطاعت أن تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية دولية ، وهى التى استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الإسلامية بلا استثناء ، وذلك لون من الحرية الفكرية كانت مصر أول من شرعه بين جميع الأمم الإسلامية»[١] .

أرأيت حبًا للوطن كحب زكى مبارك لوطنه ؟ إن هذا الحب يجعل كل شيء فى مصر فاتنًا فى عينيه خلاّب الفتنة . هل سمعنا بأحد يتغنى بجمال القيظ فى بلده ؟ ومع ذلك فقد تغنى زكى مبارك بجمال القيظ فى مصر . لماذا ؟ لأنه يتيح له الاستمتاع بالظل والنسيم ، وهو ظل

(١) انظر المحاضرة كلها فى كتاب « ملامح دينية بقلم زكى مبارك » / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / مطبوعات الشعب / القاهرة / ١٤١١هـ - ١٩٩٠م / ١٢٩ - ١٣٥ .



ونسيم لا وجود لحلاوته فى أى بلد من البلاد . إن هذا هو منطق المحب ، وهذه هى عين الحبّ ! وهى نفس العين التى ترى أن جمال مصر قد أعدى بناتها فكنَّ أجمل الجميلات : « إن الناس أبناء بلادهم فى كثير من الخصائص . والبلاد المصرية جميلة ، ولهذا يكثر فيها الجمال . وقبل سنين أقيم معرض للجمال فى باريس فكانت الجائزة لفتاة قبطية مصرية »[١] .

وهى كذلك نفس العين التى ترى كلام الذين يتحدثون عن استبداد الفراعين برعيتهم مجرد دعاوى سخيفة لا تنهض على أساس : «من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيداً مسخرين يؤمرون فيأتمرون[٢] ... إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى فى سبيل رمسيس ، ويحكم بأنها كانت على شقائها تهواه فى السر والعلانية ، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين لا صبر العقلاء . ونحن أيها الشاعر نسألك : كيف تهوى الرعية مليكها فى السر والعلانية وهو ظالم ؟ كيف تهواه وهى تعرف أنه يسومها الخسف والضيم والذل ؟ ... إن الفراش يحترق وهو يغازل النور ، ولكنه يعشق النور عشقا يهوّن عليه قسوة الاحتراق ، فمن أين علمتَ أن رعية فرعون لم تكن ترى فى فرعون غير جبار غشوم ؟ لعلها عرفت فيه

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٥٤ .

(٢) وذلك فى قصيدته النونية التى يتحدث فيها عن رمسيس الثانى ورعيته .

معانى فاتنة غابت عنك ، وقد جئتَ تغمزه بعد أن طمرت أمجادَه رمالُ السنين الطوال . وللسنين رمال ، وفيها زوابع وأعاصير : رمال من النسيان ، وزوابع من العقوق . إن تمثال رمسيس الثانى لم يصنعه صانعوه وهم غافلون عما يصنعون . لابد أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرقة فى أنفس من تعبوا فى نحته وتذوقوا فى سبيل روعته طعم الضجر والعناء . وللتعب طعم معسول فى أذواق من يعرفون ما يصنعون. ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد واستبد بالخلود فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال . رويدك أيها الشاعر . ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم فى زمانهم وجود ملحوظ ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سنّة طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصر على رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات فى الأقطار الفرنسية والإنجليزية والجرمانية ؟ قد تذكر أسماء بعض المهندسين ، ولكن انتظر حتى يمر على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس ، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه، فإن وجدت من يعرفه فعندى لك نسخة مذهبة من ديوان مطران ... أيجوز فى ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس ؟ إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء ، وقد وصل المصريون فى عهد رمسيس إلى أشياء : كانوا لعهده من الغزاة الفاتحين ، وكانوا لعهده أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون ... إن ما تم فى مدته كان بفضل إخلاص الرعية ، وهل تُخْلِص الرعية لجبار



مستبد غشوم ؟ إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين ، قوانين من تجاوب المشارب والأرواح ، قوانين من أنس القلوب بالقلوب وقرب العقول من العقول . ولا بد أن يكون رمسيس الثانى ظفر فى زمانه بقبس من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع به ، وهو فرد ، أن يسوق المصريين إلى ميادين المجد فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف ... من الحق أيها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية ، ولكنْ فى أى آذان ؟ فى آذان من يقرأون ولا يفقهون . أما الأمة التى خلّدت رمسيس فهى باقية فى ذمة الصمّ الخوالد من أحجار الكرنك ، على أيامه السلام ! »[1]. إن هذا ليس نثراً بل شعر . لا بل هو شيء فوق النثر والشعر جميعا. إنها أقباس من نار الفؤاد المتوهجة بالحب والفتنة والتولّه القاهر الجبّار . إن هذه النصوص ، وأمثالها كثير ، لهى جديرة بأن تُختار ليحفظها التلاميذ والطلاب فتغرس فى قلوبهم محبة الوطن الغالى والثقة به والافتتان بجمال طبيعته وعظمة تاريخه وبطولة رجاله وزعمائه الأبرار المخلصين .

ولا بد من الإشارة إلى أن بعض هذه النصوص قد كُتِبَ أثناء إقامة الكاتب الكبير فى العراق ، وكأنه يريد أن يقول إننى أحب العراق وأهله، فقد أحبونى وكرّمونى والتفوا حولى وقدروا أدبى وفكرى ، ولكنى أحب بلادى أكثر مما أحب أى بلد آخر فى الوجود برغم أنى قد اكتويت بنار

(١) الموازنة بين الشعراء / ٣٠٤ .

الظلم فيها وسُدَّت فى وجهى الأبواب والطرق المؤدية إلى نيل حقى الذى أنا به جدّ جدير .

بلادي، وإن جارت عليَّ، عزيزة     وقومي، وإن ضنُّوا عليّ، كرامُ

وهذا أكبر دليل على أنه ، عندما كتب ما كتب عن محبته للعراق وأهله، لم يكن يصانع أو يقدم مجاملة من طرف اللسان بل كان يعنى ما يقول : يعنيه بالنسبة للعراق لأنه بلد عربى مسلم، وقد عاش زكى مبارك رغم كل ما يمكن أن يقال عن سلوكه الشخصى وبعض أفكاره المتمردة (وبعض ذلك حق لا يمكن نكرانه أو حتى المماراة فيه) وفيًا لدينه ومنافحًا عن عروبته كأشد بل كأضرم ما تكون المنافحة . ويعنيه بالنسبة لمصر ، فهى الوطن الغالى الجدير بكل حبّ وتضحية ومفاداة .

وهناك قصة حكاها زكى مبارك تصور نبل هذا الحب العجيب تصويراً بلغ كمال الروعة فى الصدق والفن . قال : « كنت أختلف إلى قهوة[١] فى أعوام الحرب مع صديق إنجليزى كان زميلى فى السربون ، وكان صورة من الإنجليزى الجنتلمان . وكان ذوقه يوحى إليه بأن يوصلنى بسيارته إلى بيتى ليطمئن على نجاتى من ليالى الظلمات ، وكانت له رغبة شديدة فى التكلم بالفرنسية فكنت أعاونه ساعات فأسمع منه ويسمع منى . وفى ختام إحدى السهرات قال : أنا فى الغد مسافر إلى طبرق ، وهى ميدان مخيف ، وأنا برتبة كولونيل ، ولا يجوز أن أتخلف.

(١) استبدلتُ كلمة « قهوة » هنا بالضمير العائد عليها .



وإن وقع ما أتوقع ، وهو الموت فى ساحة القتال ، فهذه صورتى هدية إليك ، فتفضل بإهدائى صورتك ، فأخرجت من جيبى « أبونيه المترو »، ونزعت الصورة وقدمتها إليه . وقال وهو يودعنى : كنت أتمنى أن تحب بريطانيا من أجلى . فقلت : لو أبقى حب مصر مكانا فى قلبى لوهبته لبريطانيا إكرامًا لك يا صديقى »[١]. إنه لا يداهن فى هذا الموضوع بل لا يجامل ولو بكلمة طائرة فى الهواء لا تعنى شيئًا ولا يحاسبه أحد عليها بشيء . ورغم أنه قد حسم الأمر بقوله إن حب مصر قد استولى على كل كيانه فلم يعد فى قلبه أى مكان لحب سواها جاعلاً بهذا حبه لبريطانيا هو المستحيل بعينه ، فقد صارح صديقه بأنه لو حدث وصار المستحيل ممكنًا فإنه سيحب بريطانيا آنئذ إكرامًا للصداقة لا لشيء آخر، ولكن شيئا من هذا لن يكون . أى أن الموقف الحساس الذى الْتُمِسَتْ منه هذه الرغبة خلاله لم يؤثر فيه ولو مقدار قلامة ظفر . ذلك أن حبّه لبلاده، رغم ما صُبَّ عليه فيها من المحن وضروب الجحود والإجحاف ، هو فوق كل الاعتبارات .

وهذا الحب العجيب ليس مقصوراً على الوطن الكبير مصر ، فما أكثر ما ترنّم زكى مبارك بقرية سنتريس وطنه الأصغر هاتفًا بجمالها وروعة مجالى الطبيعة فيها إلى أن صارت تقريبًا أشهر قرية عربية . والفضل فى ذلك إنما يرجع إلى لهيب الوجد العبقرى الذى يسربل هتاف زكى مبارك بقريته وبداعة أسلوبه فى وصف سحرها وافتنانه بها حتى

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٥٢ .

أضحى يُلَقَّب بـ « فتى سنتريس »(١). ولم يقتصر ذكر سنتريس على نثر أديبنا بل شَرِكَهُ شعره فى ذلك . وبحق يقول فتحى رضوان فى هذا الصدد : « وُلِد زكى مبارك ... فى قرية من قرى محافظة المنوفية أذاع ... اسمها لكثرة ما تغزل فيها وأشاد بها وتحدث عنها حتى بات اسم «سنتريس» بديلا عن اسم زكى مبارك أو جزءاً منه »(٢). ليس ذلك فحسب بل ارتبط اسم «سنتريس» ( تلك القرية المصرية التى ما كان أحد ليدرى عنها شيئا لو لم يولد فيها زكى مبارك ) باسم باريس (إحدى أكبر عاصمتين عالميتين فى عصر زكى مبارك) لدرجة أننا فى كلامنا عن زكى مبارك لا نستطيع أن نقول « سنتريس » إلاّ ويسبق إلى لساننا اسم « باريس » ، والعكس بالعكس . فأية عبقرية تلك التى تنتشل قرية مصرية نكرة من بئر النسيان وترتفع بها إلى أوج الشهرة والمجد فى آدابنا وتجعلها على ألسنة أرباب الأقلام عندنا مساوية لباريس بهيلها وهيلمانها !(٣) وقد استغل زكى مبارك استغلالاً ذكيًا رنين اسم «سنتريس» وتجاوبه موسيقيًا مع عاصمة الفرنسيس . وفى هذا الصدد يقول : «شغلتنى المصايف الفرنسية ستة أعوام عن المصايف المصرية فعدت لا أعرف إلا قليلا عما جدّ فى مصايف هذه البلاد . ثم اتفق أننى

(١) انظر مثلاً مقال محمود تيمور عنه فى مجلة « الهلال » ( مايو ١٩٦٦م ) بعنوان «فتى سنتريس» .

(٢) أفكار الكبار / ٥٨ .

(٣) جاء بعد زكى مبارك كاتب من قريته فألف كتابًا سماه « فلاح من سنتريس » تقليداً لكاتبنا رحمه الله . ولكن شتان بين كاتب وكاتب ! والسبب نفحة العبقرية التى يهبها الله لمن يشاء ، ويحجزها عمن يشاء .



أقبلت على مصيفى فى سنتريس لأظفر بسجعة طريفة فأقول : «من سنتريس إلى باريس ، ومن باريس إلى سنتريس» كما سافر الصاحب بن عبّاد عمدا إلى النوبهار ليكتب إلى أبى الفضل بن العميد فيقول : «أكتب إليك من النوبهار ، فى وسط النهار»(١).

ويرى فتحى رضوان فى هذا الهيام المباركى بسنتريس رمزاً عاطفيا وحضاريا ، إذ « لم تكن سنتريسُ بلدهُ والهتافُ بها والتعلقُ بجمالها الحقيقى والموهوم إلا « ليلى » أخرى ، ولكنها كانت فى هذه المرة تؤدى كالعادة دورين : الدور الأول هو أن تتيح له فرصة التفريج عن عواطفه المكبوتة(٢) وقدراته المحبوسة ، والدور الثانى أن تعبر تعبيراً حقيقيا عن موقف زكى مبارك من الحضارة الغربية ، فقد نهل من مواردها وأفاد من علمها وفنها ، ولكنها لم تستطع أن تنتزع من نفسه حبه الأصيل ولا انتماءه الغائر فى أعماق تلك النفس . لقد بدأ فلاحًا ، واستمر فلاحا ، ومات فلاحا . بدأ فلاحا مصريا قُحًّا ، واستمر فلاحا مصريا قحا ، ومات فلاحا مصريا قحا ، وعجز تمامًا أن ينتحل هذا المظهر الأوربى الذى انتحله غيره ممن تعلموا فى أوربا ورطنوا رطانتها وأصهروا إليها وشعروا فى أعماقهم بتفوقها وعجز بلادهم ، وعظمتها وحقارة حضارتهم ، وبأن الانتماء إليها والمسير وراءها هو السبيل إلى الشهرة والمنصب وتألف

(١) الأسمار والأحاديث / ١١٣ .

(٢) يقصد عواطفه تجاه المرأة ، التى يقول إن زكى مبارك كان مأخوذ اللب بسحرها (انظر « أفكار الكبار » / ٧٢ ) .

أصحاب الجاه والشهرة والمنصب »[1]. وهذا تفسير لا بأس به ، لكنه لا ينفى أبداً أن زكى مبارك كان يهتف بجمال سنتريس وروعة فتنتها لأنها كانت فعلاً جميلة فى عينيه فاتنة ساحرة الفتنة والجمال . وقد بلغ ارتباط اسم قريته باسمه ، رحمه الله ، أن أحمد حسن الزيات عند كلامه عن هجوم زكى مبارك على رصفائه من الأدباء والكتاب وتسميته إياه بـ«الملاكم الأدبى فى ثقافتنا الحديثة » قد وصف قفازه النقدى بـ « القفاز السنتريسى »[2].

ومن العجيب فى هذا الحب العجيب أن أول كلام زكى مبارك فى أول محاضرة له فى الجامعة ( وكان لا يزال طالبا ) كان عن سنتريس رغم أن موضوع المحاضرة ، وهو « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ، ليست له أية علاقة بسنتريس سوى أن صاحبها من سنتريس ويحب سنتريس ، وهذا كل ما هنالك . قال : « أيها السادة ، فى ضواحى سنتريس حيث يحلو السمر ، فى ضوء القمر ، وعلى شاطئ النيل هناك حيث النجم والشجر ، والماء والزهر ، فى تلك البقعة المشتبهة الأزاهر المشتبكة الجداول ، حيث السواقى الشاديات ، والطيور الصادحات ، وتحت تلك الشجرة المعطَّفة الغصون المهدّلة الشعور ، حيث أجلس فى الضحا والظهيرة ، مع الصحب والعشيرة ، بجانب ذلك الطريق الجميل حيث تعدو السيارات الفاخرة ،

(١) المرجع السابق / ٧٢ - ٧٣ .

(٢) انظر مقاله الذى وجهه إلى توفيق الحكيم فى مجلة « الرسالة » / ٢٩ يونيه ١٩٤٢م .



من القاهرة إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى القاهرة ، حيث يمشى فضلاء سنتريس فى الأصائل والعشيات ، جماعات جماعات ، يتناشدون الأشعار ، ويتناقلون الأخبار ، هناك حيث أستظرف الجلوس مع أولئك الأمجاد ، وشجعان البلاد ، أولئك الذين لم تخالط نفوسهم أوضار الحضارة ولا سموم المدنيّة ، ولم تفارق طباعهم أخلاق البداوة ولا رسوم العصبية ، أولئك الذين أجلس إليهم فيعود إليَّ ضلالى القديم وعدوانى الموروث ، فأتمدّح بأجدادى الشجعان وآبائى الأبطال ، وأذكر ما شنُّوا من الغارات ، فى العصور الخاليات ، هناك حيث أقضى شطرا من الصيف وجزءاً من الخريف بين خطاب أكتبه ، أو جواب أقرؤه ، وحبيب أساهره ، أو أنيس أسامره ، وعهد أحنّ إليه ، أو عيش أبكى عليه .

ليالىَ النيل ، واللذاتُ ذاهبةٌ ،      وجدى عليكن أشجانى فأضنانى

لو يرجع الدهرُ لى منكن واحدةً      فى سنتريس ويُدْنِى بعض خلانى

إذن تبين دهرى كيف يرحمنى      من ظلم همى ويُدنى بعض خلانى

هناك حيث جلست فى بعض الأصائل مع الصديق الحميم ، الشيخ حسين الحكيم ، يحدثنى وأحدثه عن الشاعر الغزل عمر بن أبى ربيعة المخزومى ... فلما قضينا بعض مآرب الشباب من الجرى فى ميدان الخيال الساحر ، وشرحنا بعض أهوائنا وميولنا فى شخص ابن أبى ربيعة، وكانت الشمس قد جنحت إلى الغروب ، ونسمات الأصيل قد مالت إلى الهدوء ، وبدت لنا سنتريس وكأنها بسمة فى فم الكون يُضْمِرها إذا جنّ الظلام فما نتبين

منها غير المصابيح الزاهرة ، فى المغانى الساهرة، والأندية السامرة ، لم نجد بدًا من العودة إليها ومساهرة السامرين فيها . ولأمر ما أراد صديقى الشيخ حسين أن يذهب إلى منزله فى شمال البلدة ، وأردت العودة إلى منزلى فى جنوبها الشرقى ، بَيْدَ أنا لم نكد نبتعد كثيراً حتى سمعته يقول : إذا عُدْتَ غداً فأحضر معك ديوان ابن أبى ربيعة . فقلت له مازحًا : ومن ابن أبى ربيعة ؟ فأجاب مسرعا : فتى قريش وشاعرها . فأُعْجِبْتُ بجوابه ، وسُرِرْتُ من بداهته ، إذ علمت أن ابن أبى ربيعة ، مهما درسنا شعره ، وحللنا شخصيته ، فلن نجده إلا فتى قريش وشاعرها . وكذلك أريد أن أحدثكم عنه من هذه الناحية فأشرح لكم فتوّته وشعره ، أو حبه ونسيبه . أيها السادة ، إن الغرض من هذه المحاضرات ... إلخ »[1].

وعندما أصدر ديوانه الأول أهداه « إلى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة والتى قُلْتُ فيها أول قصيدة وسكبتُ عليها أول دمعة، إلى تلك الفتاة المنسيّة التى تنام فى قبرٍ مجهول تحت سماء سنتريس ، إلى بقاياك فى التراب يا فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال ، إليك يا كل ما كنت أملك فى مطلع الصبا وفجر الشباب أقدم هذا الديوان » . وله ، رحمه الله ، أشعار جميلة فى الشوق إلى سنتريس ، كما نظم قصائد أخرى فى التغنى بجمالها وذكرياته فيها . وكان يؤكد لمحدثيه أن

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٣٥ ـ ٣٨ .



الإنسان إذا ركب ومضى على الريّاح المنوفى عرف سنتريس من غير سؤال، إذ يحس قلبه يخفق حين يدنو من ذلك الحرم الأمين . فإذا حدَّثْتَه أنك مررت من هناك ولم يخفق قلبك أجابك وهو يبتسم: « إنك يا صديقى لا قلب لك »[1].

وهكذا كان زكى مبارك يهتبل كل سانحة ليذكر اسم قريته ويمجدها فى الخافقين ، بل إنه إذا ذكر الزمالك قال : « إن الزمالك تشبه سنتريس لأنها تقع بين نهرين كما تقع سنتريس بين نهرين : الرياح المنوفى والترعة العامرية ، ولأن ليلاى فى الزمالك تنطق اسم سنتريس بلسان ألثغ وصوت مطلول »[2]، وإذا جاءت سيرة القناطر الخيرية وصفها بأنها «فى منتصف المسافة بين القاهرة وسنتريس »[3] كما يصف أهل سنتريس قائلا إن « لأهل سنتريس مزية من أكرم المزايا، وهى التعاون وقت الشدة، ولو كانوا فيما بينهم خصماء . وليس على الرجل الذى يشب الحريق فى بيته أن يؤدى خدمة صغيرة لإخماد الحريق ، وإنما يقف موقف المتفرج وهو فرحان بمنظر الرجال الجدعان. إنهم يضربون النار بالنبابيت فتنحسر وهى ذليلة ، أما النساء فيضربن النار بالماء والتراب إلى أن تموت »[4]. وعندما يصف دخوله سنتريس هو وبعض الضيوف من

(١) جريدة « الصباح » القاهرية / ٢٢ ديسمبر ١٩٢٩م ، وألحان الخلود / ٢٦٨ .
(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٤٠١ .
(٣) المرجع السابق / ٤٤١ .
(٤) ألحان الخلود / ١٠٥ .

أصدقائه الفرنسيين ومعهم الموسيقار محمد عبد الوهاب يستطرد قائلاً إن « أخصب أقاليم مصر هو إقليم المنوفية ، وأخصب مراكز المنوفية مركز أشمون ، وأخصب البلاد فى مركز أشمون هو سنتريس ، وأخصب بقاع سنتريس هو ما ورثته عن أبى وجدى ، وأجمل دار فى سنتريس هى دار شاعر سنتريس »[١]. أمّا مُغنُّو سنتريس فقد جعلوا عبد الوهاب ينسحب « قبل انتهاء السهرة بحجة أن عنده موعداً فى منتصف الليل » إعلانًا عن هزيمته أمامهم ، إذ كانوا يريدون أن يباروه فى تأدية أغانيه مؤكدين أن أصواتهم فيها أحلى من صوته[٢].

وهو يتحسر على أنه لم يعد بمستطاعه زيارة سنتريس إلا لمامًا : «فما ذقتُ طعما للحياة الهادئة منذ قضت الأيام بألاّ أزور سنتريس إلا كما يزور طيف الخيال »[٣]. ويقول فى هواء سنتريس إنه « أتعب أهل سنتريس ... لأنه جعلها مراداً لأصحاب الأذواق ، فهى الملتقى لأكثر سكان المنوفية ، ومن أجل هذا عمّ فيها الغلاء »[٤].

وقد بلغ حبه لسنتريس أن ظل يناضل وزارة المعارف المصرية حتى نزلت على رغبته فأنشأت مدرسة فى سنتريس يؤمها تلاميذ البلاد المجاورة بعد أن كان المسؤولون يريدون أن يجعلوها فى قرية أخرى من

(١) الحديث ذو شجون / ٦٥ .
(٢) المرجع السابق / ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) السابق / ٦٦ .
(٤) السابق / ٤٨٢ .



قرى المركز . وعندما اقترح بعض المسؤولين الحكوميين أن يتنازل عن بيته الذى لم يكن يملك غيره فى مقابل إيجار تدفعه له الوزارة لم يسعه إلا أن يلبى رغم حاجته الشديدة للبيت وحبه له ، وخرج يومها من البيت والدموعُ فى عينيه[١] . والعجيب أن الوزارة قد جازته على هذا الإيثار جزاء سنمار ، إذ أوقفت دفع الإيجار فى نفس الوقت الذى لم تكن دار الكتب تدفع له فيه شيئا لقاء عمله بها حتى مات[٢]. وعاش الرجل فى أخريات حياته فى ضائقة وضنك . وهذا بالله سخف ، وقلة ذوق ، وقسوة قلب ، وفضيحة مخزية ! أهكذا يُعامَل الأفذاذ من عباقرة الأدب والفكر ؟ صحيح أن الرجل كان صريحًا وجريئا فى إبداء رأيه حول بعض الأمور فى وزارة المعارف آنذاك ، لكن أهكذا يكون الرد على جرأته وصراحته ؟ لقد كان فى ميدان الكتابة مندوحة لمن يريد أن يردّ عليه ، أما إيذاء إنسان فى رزقه على هذا النحو الجِلْف الغبى فهو عارٌ ، وأى عار !

وقد كان أديبنا ، رحمه الله ، واعيا تمامًا بأنه كثير اللهج بذكر بلده كما فى قوله مثلا عن الشيخ عبد الله عفيفى : « حرص الأستاذ على إفهام القراء أننى قروى من سنتريس ، وكتب هذا وأعاده ثلاث مرات . أفيستطيع أن يحدثنا فى أى قصر وُلِد من قصور الحواضر ؟ إن الأستاذ يشاطرنا شرف الانتساب إلى الريف ، وقد وُلِد فضيلته فى قرية بالقرب

(١) انظر القصة فى « ألحان الخلود » / ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ، و «سيرة حياة الدكتور زكى مبارك»/ ١٧١ ـ ١٧٤ .
(٢) انظر « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » / ١٩٢ ـ ١٩٣ .

من سنتريس . والفرق بينى وبينه أنى أتحدث عن بلدى فى جميع المناسبات ، أما هو فلا يذكر بلده على الإطلاق ولا يجرى اسمها على قلمه ولا لسانه مع أن الأوطان الصغيرة هى حبات العقد فى الوطن الكبير »[١].

وهذا الصدق وهذه الصراحة هما سمة أخرى من سمات أدب زكى مبارك وأسلوبه . وهو متنبه إلى هذه الخصيصة فى شخصيته وكتاباته ، فهو دائما ما يذكرها ويفاخر بها : « السرّ فى نجاحى يرجع إلى أصلين: الصدق والوضوح . يضاف إلى هاتين المزيتين مزية ثالثة هى الحيوية العنيفة فى نقد الآراء ، فأنا فى كل ما أكتب وما أقول محارب لا يرى الحياة إلا فى حومة قتال ، وليس الأدب مزاحا أتلهى به فى الأسمار والأحاديث ، وإنما هو عراك فى ميادين الفكر والخيال »[٢]، « فكرت كثيراً فى الأسباب التى جعلت لى هذا الحظ المرموق فى العراق ، ثم رأيت أن الأسباب كلها تنتهى إلى سبب واحد هو الصدق ، فما تحدثت عن العراق بالجميل إلا وأنا صادق ، ولا ذكرته بالملام إلا وأنا صادق ... فمن أراد أن يظفر بحب أهل العراق فليَصْدُق فى حب أهل العراق ، وليعرف جيداً أن العلانية قليلة الأهمية ، فالمعوَّل عليه هو صدق القلوب، فقد كنت على جانب من جفاء الطبع حين كنت هناك فما ضرنى ذلك بشيء لأن قلبى كان مأهول الجوانب بالصدق فى حب أولئك الرجال

(١) من مقاله بجريدة «البلاغ » فى ٢٤ فبراير ١٩٣٣م .
(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / ٤١ .



الصادقين فى الحب والبغض . وهم ، برغم قالة الحجاج ، أبعد الناس عن الرياء »[١]، «وقد اتفق لى فى بعض الأحيان أن أناوش فريقًا من السوريين واللبنانيين فما ضرنى ذلك بشيء لأن من ناوشتُهم يعرفون فى ضمائر قلوبهم أنى سليم القلب »[٢]، « ما كنتُ فى كل أدوار حياتى إلا نموذجا من الصدق والأمانة والإخلاص »[٣]، « أقول بصراحة إنى كُنت أخشى أن يُمْنَع كتاب « ملامح المجتمع العراقى » من دخول العراق لأنى تحدثت فيه عن رجال تغير فيهم رأى العراقيين ، ثم ظهر أن العراق لا يرضيه أن يصادر كتابا أملاه الصدق والإخلاص وتنزه مؤلفه عن المداجاة والرياء»[٤]، « وقد هدتنى التجارب إلى أن أنفع سلاح هو الصدق ، فأنا لا أوارب ولا أخاتل ، وإنما أصل إلى غرضى بأساليب صريحة لا تعرف الالتواء ولا الاعوجاج ... والرجل الصادق يذيب الصخر ولو كان من الكافرين»[٥]، «أكره الدسائس، ولا أحب العمل إلا فى ضوء النهار»[٦]، « لم تعد لى طاقة بمقاومة الدسائس والوشايات ، ولم يبق لى صبر على تحمل مكاره الذنوب التى تُخْتَلَق اختلاقًا لإفساد ما بينى وبين رؤسائى . وقد فكرت فى مقابلة الدس بالدس والبهتان بالبهتان ،

(١) الحديث ذو شجون / ١١١ - ١١٢ .
(٢) المرجع السابق / ١١٤ .
(٣) السابق / ١٤١ .
(٤) السابق / ٢٧٦ .
(٥) ليلى المريضة فى العراق / ٣٦٨ - ٣٦٩ .
(٦) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٣٣ .

ولكننى لم أستطع لأن الله حرمنى المقدرة على حياكة الدسائس والأراجيف »[١].

وقد كانت هذه الخلة موجودة فى زكى مبارك منذ بداياته الأولى ، إذ « وقف الدكتور ( طه حسين ) ليلقى محاضرته الأولى ( بعد عودته من فرنسا حاصلاً على درجة الدكتوراه فى التاريخ الأوربى القديم ) فشكر أعضاء مجلس الجامعة ... واندفع بعد ذلك فى محاضرته فحدثنا أنه عزم على إحياء التراث اليونانى لأنه يؤمن إيمانًا جازمًا بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان . وما كاد الدكتور طه يفرغ من محاضرته حتى نهض أحد طلبة الجامعة واسمه زكى مبارك[٢] فردّ على الدكتور ردًا خطابيا أثار إعجاب الجماهير ، فوقف الدكتور طه وردّ على الطالب ردا ظفر بشيء من القبول . وبدا للأستاذ محمود عزمى أن يؤرخ وقع المحاضرة الأولى للدكتور طه بكلمة ضافية فى جريدة « الاستقلال » ، ولم يفته أن يوجه عبارة نابيةً إلى الطالب الذى ثار حين رأى من يقول بأن مرجع الفكر كله إلى مفكرى اليونان . وفى المحاضرة التالية رأى الدكتور طه حسين أن يبدأ بكلمة فى التعقيب على مقال الأستاذ محمود عزمى ليبين خطأ الطالب الذى ثار عليه ، فنهض زكى مبارك وقال : لا تتعالَوْا علينا ، ففى مقدورنا أن نساجلكم

(١) مجنون سعاد / ٩٩ .

(٢) لنلاحظ أن الذى يحكى هذه الواقعة هو زكى مبارك ، وإن تحدث عن نفسه بضمير الغائب كأنه شخص آخر .



بالحجج والبراهين . وفى تلك اللحظة مال إسماعيل بك رأفت على أذن الدكتور طه فأسرّ إليه بكلمات فانصرف الدكتور طه عن التعقيب ومضى فى المحاضرة الأساسية و « ليس » فى نفسه أشياء »[١].

فها نحن أولاء نرى زكى مبارك ، وكان لا يزال طالبا صغيراً ، يواجه أستاذه طه حسين ، الذى كان عائداً لتوّه آنذاك من فرنسا حاصلاً على شهادة الدكتوراه ، هذه المواجهة العنيفة داخل المحاضرة على مرأى ومسمع من بعض كبار المسؤولين والصحفيين غير مبالٍ بشيء ولا متهيب من أيٍ من الحضور : لا الأستاذ نفسه ولا الطلبة ولا الضيوف . ولم يفعلها مرة واحدة بل مرة ومرة حتى سكت الأستاذ المحاضر ، فعندئذ سكت الطالب .

كذلك كانت رسالته التى حصل بها على دكتوريته الأولى فى مخالفة الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه ونَقْد ( بل نَقْض ) كثير من آرائه وتسفيهها فى صراحة تامة غير واضع فى حسابه المكانة المقدسة التى كان الغزالى حينئذ يحتلها فى عقول المفكرين والجمهور مما كان له أثره فى أثناء مناقشة الرسالة وبعدها ، إذ هوجم هجومًا شديداً واتُّهِم فى عقيدته ورُمِيَ بالكفر والزندقة[٢]. ومن منطلق الصراحة أيضًا يعلن زكى

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٣٢ - ١٣٣ ، وقد ثارت معركة حول هذا الموضوع نفسه بين الكاتبين الكبيرين بعد ذلك بأكثر من عشرين عامًا ( انظر ص ١٣٤ وما بعدها ) .

(٢) انظر مقدمة كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وفاتحته / ٣ - ١٣ ، وكذلك مقدمة محمد جاد المولى لكتاب زكى مبارك « التصوف الإسلامى » / ١ / ٣ - ٤ .

مبارك أنه رجع بعد ذلك عن الآراء التى بثها فى ذلك الكتاب بل يصفه بأنه « كتاب تجنيت فيه على التصوف ورميت أشياعه بالغفلة والجهل وجعلت سلوكهم سببا فى انحطاط الأمم الإسلامية . وما كاد يُنْشَر هذا الكتاب حتى ضعفت حماستى لما أقمته عليه من أساس العقل لأن الدنيا كانت بدأت ترينى أنى تحاملت على الغزالى وتعجلت الحكم على آرائه فى سياسة النفس ، فقد كان يدعو إلى النفرة من الناس ، وكنتُ أرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية ، ثم تكشفت بعض الحقائق فرأيت المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس . ومن ذا الذى سَلِم أديمه من عدوان الخلق فلم يتمنَّ الاعتصام من شرهم بالعزلة فى شواهق الجبال ؟ وكذلك عدتُ أستروح بذكرى التصوف وأُضمِر له الشوق والحنين »[1]. وهكذا نجد الدكتور زكى مبارك صريحًا حتى فى إعلان تراجعه عن بعض مواقفه وآرائه رغم أنه قد بنى على هذه المواقف والآراء رسالته التى حصل بها على الدكتوراه من الجامعة . ومن هذا الباب إشارته إلى ما فى كتابه « حب ابن أبى ربيعة وشعره » من مآخذ وهفوات كالاستطراد والتناول العاطفى للموضوعَ فى بعض الأحيان ، وإن كان قد ذكر أنه مضطر مع ذلك إلى إبقائها كما هى «إجلالاً للثقة بالنفس ، وإكباراً لنزق الشباب»[2]. وهذه من صراحته أيضًا ، وهى صراحة ( كما ترى ) عجيبة ، وكلها ظَرْفٌ وثقة بالنفس .

---

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ١٦ ـ ١٧ .

(٢) حب ابن ربيعة وشعره / ١١ ـ ١٤ .



وهذه الصراحة هى التى جعلته يقول فى بساطة وهو بصدد الحديث عن الدكتور أحمد أمين : « نحن جيران ، ومع ذلك لا نتبادل المودات والزيارات »[1]. وبنفس البساطة أيضًا يقول عن نفسه وعجزه عن استخدام الشوكة والسكين فى أكل الحَمَام فى وليمةٍ دُعى إليها ببيت أمير الشعراء ، الذى كان حريصًا على الأناقة فى تناول الطعَام واستخدام هاتين الأداتين : « حَضَرْتُ المائدة ، وهى أعاجيب من الألوان. وقد دهشتُ حين رأيت شوقى يأكل الحمام بالشوكة والسكين ولا يُبْقِى منه شيئًا . وقد استأذنته فى أن آكل الحمام بيدى فسمح لأنى لم أكن أعرف أن الحمام يؤكل بالشوكة والسكين »[2]. وقد كانت هذه أول مرة يذهب فيها إلى دار شوقى مما يعنى أن الكلفة كانت موجودة ، ومع ذلك لم يجد زكى مبارك أدنى حرج فى أن يأكل الحمام على طبيعته ولا فى أن يذكر ذلك للقراء بغاية الصراحة وغاية البساطة أيضًا .

وبهذه الصراحة البسيطة كذلك يقول إن شوقى ، حين احتفل فى داره بالشاعر الهندى طاغور أثناء مروره بمصر ، أرسل دعوة إلى الدكتور طه حسين لحضور هذا الحفل مع أن طه حسين كان من خصومه آنئذ، بينما لم يَدْعُه هو رغم المودة التى كانت تربطه به « لأن الدكتور طه كان موظفًا فى الدرجة الثانية ، وكنت موظفا فى الدجة السادسة . وفرقُ ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التى يفهمها جيداً أمير الشعراء ، الذى

---

(١) الأسمار والأحاديث / ١٢٨ .

(٢) أحمد شوقى / ٣٠٩ .

عوّدته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات »[١] . وبنفس هذه البساطة أيضًا يعترف زكى مبارك بأنه حاول طويلاً أن يقضى على الدكتور طه ولكنه عجز عن ذلك عجزا تامًا : « لو كان الأمر بيدى لقتلت الدكتور طه حسين ، ولو كان الأمر بيده لقتلنى ، فقد تحاربنا سنين . أردت أن أقتله فما استطعت ، وأراد أن يقتلنى فما استطاع . نحن يا سيدى الدكتور لم نُخْلَق للموت وإنما خُلِقْنا للحياة وللمجد »[٢] . ومن هنا يدعوه بصراحة تامة عُقَيْبَ هذا إلى الاتفاق على أن يكف كل منهما شره عن الآخر : « فمن واجبك أن تكف شرك عنى لأكف شرى عنك ، وأنا على الشر أقدر منك » . وهذه الصراحة وذلك الوضوح هما اللذان جعلاه يتحدث عن غنائه لقصيدة من قصائده بمحطة الإذاعة المصرية فى أواخر الأربعينات ، والكلام المؤذى الذى تناوله به لهذا السبب بعض الصحفيين فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، واعتراض أبنائه الشديد على ذلك. يقول فى هذا الصدد : « لا بد للمصدور أن ينفث ، وقد نفث المصدور فغنَّى بصوته « غرام يوم الثلاثاء » فى محطة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية . غنَّى وأطرب . وفى محطة الإذاعة شريط لذلك الغناء، شريط مسجون ، فكيف سُجِن ذلك الشريط ؟ سجنه معالى الأستاذ عبد المجيد باشا بدر إلى أن يسمعه . ولكن متى يسمع ؟ قيل إنه لا يستظرف أن يغنى مدرس سابق فى الجامعة المصرية ، ومفتش

(١) المرجع السابق / ٢٦٤ .

(٢) من مقال له بمجلة « الرسالة » فى أول ديسمبر ١٩٤١م .



سابق بوزارة المعارف ، وأستاذ سابق بدار المعلمين العالية فى بغداد كأن الغناء محظور على رجال التعليم والتثقيف ! ليت هذا الوزير يعرف ! ليته يعرف أنى أبدعت ثمانين لحنا من الأناشيد الصوفية ، وأن روحى غناء فى غناء ! لقد ناوشنى بعض الصحفيين بكلمات مؤذية فى بعض الجرائد والمجلات فى مصر وبلاد الشرق ، ولن ألوم تلك الصحفَ ولا أولئك الصحفيين ، فأنا أقدِّس حرية الرأى وأرى أن النقد باب من أبواب التقدير والاحترام . فإليهم تحيتى وعليهم ثنائى ، ولا حَرَمنى الله من تجنيهم الظريف ! لو أنهم علموا سبب ذلك البكاء لبَكَوْا بكائى ، فقد سمعتُ أن الروح الذى أوحى « غرام يوم الثلاثاء » عليل . شفى الله من أجله كل عليل، وجعل الحياة فداء لروحه الجميل . غنيتُ ليطيب حين يسمع غنائى ، ثم نظرت إلى صورته وهو فى نضرة شبابه فرأيتها تماثل صورتى حين كنت فى نضرة شبابى »[١]، « خطر فى البال أن أغنى قصيدتى فى محطة الإذاعة بصوتى ، وهو فى رخامة صوت الموسيقار محمد عبد الوهاب ، ولكن أبنائى اعترضوا ، فما يجوز عندهم أن يكون أبوهم من المغنين وهو يملك أكبر مجموعة من الألقاب العلمية . قلت لأبنائى : ألا تسمعوننى أغنى من حين إلى حين بقوة تنقل صوتى من الدور الثانى إلى أسماعكم بالدور الأول ؟ قالوا : نعم . قلت : أنا أغنى أشعارى حين يجود بها الوحى ، فما الذى يمنع من تقديم صورة ناطقة

(١) ألحان الخلود / ١٥٧ .

ليعرف بها الجمهور كيف أنظم أشعاري؟ قالوا : وأين الملحن ؟ قلت: أنا الملحن ، فالشعر شعرى ، وأنا أعرف كيف ألحنه بالصورة التى تموجت بها خفقات قلبى . ولم يكن من السهل أن أقنع أبنائى . وهل أقنعت نفسى حتى أقنع أبنائي؟ إن جاز أن أغنى هذه القصيدة فى محطة الإذاعة فيجب أن أكون فى حال تشابه حالى فى الأوقات التى نظمت فيها هذه القصيدة . وهذا غير ممكن ، ففى المذيعين فريق من تلاميذى ، ولم يرنى أحد من تلاميذى فى لحظة بكاء . . . أنا عرضت الفكرة على الأستاذين محمد فتحى وعلى خليل فرأيا الفكرة مبتكرة وأن من الوفاء للأدب والفن أن يغنى الشعراء أشعارهم فى الجو الروحاني، الجو الذى تنسّموا هواءه وهم يغنون . . . وسمع أصدقاءُ كرامٌ بما اعتزمته فَنَهَوْنى ، وكانت حجتهم أنه لا يليق برجل فى منزلتى أن يغنى ، وفاتهم أن الشعر روحه غناء . ترددت مرة ومرتين ومرات ، ثم صممت على أن أغنى ليسمع ذلك الروح أنى لعلّته عليل . ثم جاءت ساعة الامتحان ، ومن المحنة جاء الامتحان ، فحضر فريق من رجال الإذاعة ليسمعوا صوتى وأنا أغني. حضر مصطفى بك رضا والأستاذ على خليل والأستاذ عبد الوهاب يوسف، الذى قدمنى إلى الجمهور بأسلوبه اللطيف . وفى انتظار الإذاعة قال مصطفى بك : أسمعنا بغنائك أبياتا من القصيدة . فغنيت بيتين ، فقال الأستاذ على خليل : صوتك فى التليفون وأنت تغنى كان له فى سمعى وقع أطيب من هذا الوقع . فقلت : لأن تلك اللحظة كانت من لحظات التجلى ، وستسمع ما يطربك حين يُفْتَح المذياع لأنى سأومن بأن غنائى



موجه إلى الروح العليل . شفى الله من أجله كل عليل ، وجعل الدنيا الجميلة فداءً لروحه الجميل ! ثم يظهر نور أحمر وأخضر وأصفر ، وهى أنوار تؤذن بأننى سأغني فأقول : يا ليل يا ليلى يا ليل . ثم ينطلق صوتى ويتفجر دمعى فأقول:

يا ساقى الراح ، هات الراح يا ساقى

من نور هديك أو من نار أشواقى

واشرب رحيق الهوى الفضاح يا ساقى

من نظرتى لك فى ساعات إشراقى

. . .

وينتهى التسجيل فيُقْبِل المذيعون مهنئين وهم فى اندهاش واستغراب»[1]. وهى ، كما ترى ، قصة مؤثِّرة بل مؤلمة . ومع ذلك فقد رواها الكاتب بهذه البساطة والصراحة التى رأيت . ولو كان بطل القصة شخصًا آخر غير زكى مبارك ما حكى منها للقراء شيئًا ، فضلاً عن أن يسجل بصدقٍ وتفصيلٍ إنكار أولاده وزملائه ورؤسائه عليه أن يغنى فى الإذاعة وهو « الدكاترة » والمفتش والأديب المرموق ، بل ما كان فكّر أصلاً فى موضوع الغناء .

وقد استطاع زكى مبارك من خلال هذه الصراحة المستقيمة الشُّجاعة

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٢٧ - ٢٣١ .

أن يتناول أموراً شديدة الحساسية ببساطة عجيبة دون أن يثير شيئًا من تلك الحساسية المتعلقة بها : من ذلك مثلاً كلامه عن عمى طه حسين ، إذ يتناول هذه العاهة عنده مراراً في مقالٍ واحدٍ ، ولكن بلباقة مدهشة تجعل ، فيما يُخَيَّل إليَّ ، هذا الكلام عسلاً على قلب طه حسين : « يشهد الدكتور طه على نفسه أنه ضرير ، وذلك فن من الإعلان ، فقد صحبته نحو عشر سنين ولم أتنبه إلى أنه ضرير . وكيف أصدِّق دعواه وما رأيت رجلا أرشق منه في تناول الشؤون التي يتناولها المبصرون ؟ كنا نخرج من الجامعة المصرية حين كانت في قصر الزعفران فنثب إلى المترو بعد أن يتحرك ، ولا يشعر أحد بأنني أصاحب رجلا من المكفوفين . ومن يصدِّق أني لم أفكر في حلق ذقني بيدي إلا بعد أن رأيته يحلق ذقنه بيديه ؟ وهو يمشي بقامة منصوبة تُزْرِي برشاقة الرمح المسنون ! ... ولو كنتُ أصدِّق أنه أعمى لكففتُ عنه قلمي ، ولكني واثق بأنه مبصر وبأنه أستاذ قدير ومفكر حصيف وأديب موهوب ، وأنا لا أكف قلمي إلا عن الضعفاء . وما قلت إنه أعمى إلا لأن درس اليوم يوجب ذلك ، فليتناس هذه العنجهية ، فما كنتُ ولن أكون إلا أعرف الناس بواجب الذوق »[1] .

ومن ذلك أيضًا كلامه في المقارنة بين الإسلام والنصرانية حيث يقول في اطّلاع الإمام أبي حامد الغزالي على الأناجيل : « اطلع الغزالي على

(١) زكي مبارك ناقدا / ٦٢، والمعارك الأدبية بين طه حسين وزكي مبارك / ١٠١ - ١٠٢ .



الإنجيل واستفاد منه واعتمد عليه ما شاء في مؤلفاته . وهذا طبيعي من رجل مسلم أوصاه دينه ألا يفرق بين أحد من الأنبياء . ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر في هذا الموضوع لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالي إلى مطالعته للإنجيل مع أن الغزالي لم يضلّ إلا حين تعلق بأهداب الآداب السلبية التي دعا إليها الإنجيل »[1] . إنه يقرّ برجوع الغزالي للأناجيل ولا يجد في الرجوع ذاته أدنى غضاضة يمكن أن تلحقه، لكنه في ذات الوقت يسارع فيؤكد أن هذه الاستفادة من الأناجيل قد أساءت إلى فكر الغزالي وصبغت نظرته إلى الأخلاق بصبغة سلبية . ثم يمضي موضحا أن الأخلاق الإنجيلية لا تتناسب والطبيعةُ البشرية ، ومن ثمَّ لا يمكن أن يتمسّك بها أحدُ نصرانيًا كان أو غير نصراني ، وإلا فمن ذا الذي إذا ضُرِب على خده الأيمن أدار لصافعه خده الأيسر ليصفعه عليه أيضًا ؟ أو من ذا الذي إذا سُخِّر ميلاً تبرّع لمسخِّره بالمشي معه وخدمته ميلاً أخر؟ ولا يتوقف كاتبنا عند هذا الحدّ بل يستمر فيتهكم بالدكتور زويمر لاهتمامه بتصحيح عدد الأيام الحقيقي التي ذكرت كتب النصارى أن المسيح عليه السلام قد مكثها يناجي ربه دون أن يتناول أي طعام . لقد قال الغزالي إنها ستون ، فسارع زويمر قائلاً : « الحقيقة أنها أربعون » ، ليعلق زكي مبارك بقوله : « ولِمَ تتعب نفسك يا سيدي الدكتور في هذا التصحيح؟ المسألة برُمَّتها خيال في

(١) الأخلاق عند الغزالي / ٩٠ .

خيال لأن الذى يمكث ستين يوما أو أربعين يوما بلا طعام لا يصلح لشيء فى هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد . وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يَحْيَوْا هذه الحياة؟ وهبهم استطاعوا ، فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟ ». كما يعلّق على ما ذكره الغزالى عن السيد المسيح أيضًا من أنه ظلّ لابسًا ثوبًا واحداً عشرين عامًا بقوله : « إن عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم يعرفه التاريخ ، وإلا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ولا يعرّض لابسه لنفرة تلامذته وأصدقائه ؟ »[1]. فانظر كيف أبدى الدكتور مبارك رأيه فى هذه القضية الشائكة بهذه البساطة الشديدة دون أن يثير أية حساسيات . لقد كتب رسالته كلها ، وهو المسلم ، فى نقد الغزالى نفسه على ما يتمتع به فى قلوب المسلمين من تبجيل وتقديس ، أفلا يمكنه أن ينتقد بعض الأخلاق النصرانية إذن ويَسْخَر من أحد دعاتها المتعصبين من بلاد العم سام ؟ وهو فى ذلك النقد وهذا التهكم لا يسبّ ولا يتجاوز الحدود . وهو سبب آخر من الأسباب التى مكّنته من تناول المسألة بهذه البساطة دون أن تثير أيّا من الحساسيات .

ومن هذا الباب أنه ، عندما كتب سلامة موسى يهاجم المشتغلين بالأدب العربى القديم ومن بينهم زكى مبارك على أساس أن هذه موضوعات بائدة لا تثير النفوس إلى الكفاح فى سبيل خدمة الأمة ،

---

(١) المرجع السابق / ٩١ - ٩٢ .



انبرى يردّ عليه بكلام طويل نجتزئ منه بالفقرات التالية : « يهمنى أن أدفع الشر عن الأدب العربى ، فهو ليس أدبا ميتا كما يتوهم بعض الناس ، وإنما هو أدب يتوثب من فيض القوة والحيوية . وبفضل الأدب العربى بقيت الذاتية الشرقية إلى اليوم ، ولولا الأدب العربى لكان الأستاذ سلامة موسى فى أيامه هذه كاتبا يرطن فى لغة الأرمن أو لغة اليونان » .

ثم يغزوه من الناحية الوطنية لينتقل منها ببساطة وشجاعة ذكية إلى الجانب الإسلامى فيقول : « ومن محاسن الأستاذ سلامة موسى أنه وطنى صادق الوطنية . ومن هذه الناحية أغزوه بلا رفق ، فمصر التى يحبها أصدق الحب لم تَسُدْ فى الشرق إلا بقوتين عظيمتين هما اللغة العربية والشريعة الإسلامية . وهل من القليل أن تأخذ بلادُ العرب ثقافتَها العربية عن مصر ؟ هل من القليل أن يأخذ وطن الرسول معارفه الدينية عن مصر ؟ هل من القليل أن تكون مصر هى البلد الذى صارت العربية لغته القومية الوحيدة وصار الإسلام هو دين الأكثرية الساحقة من أبنائه الأوفياء ؟ قد يكون سلامة موسى فى دينه أصدق منى فى دينى ، والله أعلم بالسرائر ، ولكن من المؤكد أنى أصدق منه فى الوطنية ، فأنا أحرص على اللغة العربية والإسلام خدمة لوطنى ، وأنا أغض النظر عن هفوات كثيرة لرجال الدين لأنهم على أى حال من الشواهد على أن وطنى له سلطة روحية . وقد تطوع المسلمون فى مصر لمعاونة الأحباش أيام محنتهم بعدوان الطليان لغرض وطنى هو الشعور بأن الكنيسة القبطية

لها سلطان روحى على عقائد الأحباش . فهل يغار الأستاذ سلامة موسى على الأزهر الشريف كما أغار على الكنيسة القبطية ؟ وهل يحب المسلمين كما أحِبُّ الأقباط ؟ أستغفر الله وأستغفر الوطن ، فالأستاذ سلامة موسى بحقٍّ وصدقٍ من أكرم أصدقاء العروبة والإسلام لأنه بالفعل من مشاهير الكتاب فى اللغة العربية . وإنما أعيب على سلامة موسى أن يكون أقل وطنية من مكرم عبيد ، الذى يحفظ القرآن عن ظهر قلب ليكون من أفصح الخطباء باللغة العربية . وإنما أعيب عليه هذا لأنى أكره أن يكون السياسى أصدق وطنية من الأديب ... وهل تعاب فرنسا وإنجلترا وإيطاليا بأن فيها مئات من الباحثين لا يهتمون بغير درس الذخائر من الأدب القديم عند اليونان والرومان ؟ وما رأى الأستاذ سلامة موسى فى التوراة والإنجيل وهما من النصوص العتيقة بلا جدال ؟ هل يرى أن الاهتمام بدرس التوراة والإنجيل من العبث السخيف بحجة أنهما لا يمثلان معضلات العصر الحديث ؟ وهل يرى أن نحرق جميع ما حفظ الزمن الشحيح من تراث المصريين القدماء ؟ ... الدنيا كلها تجتمع ، ونحن نفترق مع أننا أحوج من سائر العالمين إلى الائتلاف . والعرب والمسلمون فى جميع بقاع الأرض يَرَوْنَ مصر مشرق الأنوار العربية والإسلامية ، وأخونا سلامة موسى يريد أن ينزع عن رأس مصر هذا التاج المرموق ... فكيف يستبيح أن يسيء إلى سمعة مصر العربية والإسلامية؟ سلامة موسى من أعز أصدقائى ، فهل أرجو أن يراعى خاطر صديقه الأمين حين يتحدث عن صلة مصر بالشؤون العربية والإسلامية ؟ إلى صديقى سلامة أوجه هذا الرجاء ، ففى الدنيا مكاره تشغلنى عن



مكايدة الصديق للصديق . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعًا إلى سواء السبيل ، فإنى أو إياه لعلى هُدًى أو فى ضلال مبين »(١).

وقد كان سلامة موسى أحد الذين هَبُّوا فى وجه طه حسين عندما تسبب فى إخراج زكى مبارك من الجامعة ، مؤكدا أن الجامعة تتشرف بوجوده بين أعضاء هيئة التدريس فيها لا العكس . ومن هنا يمكننا أن نقدر مدى الشجاعة والاستقامة النادرة فى هذا الكلام الذى يوجهه زكى مبارك لصديق آزره مؤازرة قوية فى ذلك الظرف العصيب ، وكذلك مدى الحصافة والذكاء واللباقة التى عالج بها زكى مبارك هذا الموضوع الحسَّاس داخلاً إلى نفس « الصديق الخصم » من مدخل الوطنية والمودة الشخصية ، فاستطاع أن يزلزل رأيه حول دراسة الأدب العربى القديم بل أن يهدمه وينسفه نسفًا . وأعتقد أن سلامة موسى بعد أن قرأ هذه السطور قد شعر بالخجل وودّ لو تنشق الأرض وتبتلعه من جراء ما تجنَّى على العروبة والإسلام . لقد كتَّفه زكى مبارك بوثاقٍ لا تُحَلُّ عقدته . وبم كان يمكنه أن يردّ على هذا المنطق المُفْحِم وتلك المشاعر الوطنية والدينية والشخصية النبيلة المجدولة كلها فى ضفيرة واحدة لا تنفصم طاقاتها ؟

ويتناول كاتبنا الكبير هذه القضية مرة أخرى فيقول : « وللباحث أن يؤمن بالإسلام وألا يؤمن ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن الإسلام يسيطر على كثير من الشعوب . والباحث لا مفر له من درس اللغة التى أدّيَتْ بها مذاهب ذلك الدين . وهو يفعل ذلك علمًا إن لم يفعله تدينًا ، أى أنه

---

(١) الحديث ذو شجون / ٧٩ - ٨٥ .

لا مندوحة من درس أصول ذلك الدين من النواحي اللغوية والتشريعية . والمسلم وغير المسلم فى ذلك سواء لأن العلم لا يوجب على العالم أن يؤمن بالإسلام قبل أن يدرس الإسلام ولا يفرض عليه أن يعتنق المسيحية قبل أن يدرس المسيحية ، وإنما يأتى الإيمان بعد الدرس، وقد لا يأتى أبدا ، فما أحسب صديقى سلامة موسى سيُسْلِم ، وإن سبق الناس إلى فهم القرآن »[١]. وفى العبارة الأخيرة غمزة ذكية ، فزكى مبارك يريد ، فيما أعتقد ، أن يقول إن سلامة موسى ، رغم فهمه للقرآن ومعرفته بفضائل الإسلام واقتناعه بينه وبين نفسه بصدقه ، لن يستطيع أن يتخلص من مشاعر النفور التى ورثها ضد ذلك الدين وكتابه . ولكن تأمل كيف أدّى هذا كله بتلك الصراحة البسيطة العجيبة ! والأعجب أنه لم يوجه إليه لومًا من أجل ذلك لأن هذه مسألة تتعلق بحرية الضمير والاعتقاد مما ليس من حقّ أحد أن يتدخل فيه . وقد كان زكى مبارك يحترم بل يقدّس هذا المبدأ الذى هو مبدأ إسلامى صميم أرسته نصوص مختلفة من القرآن المجيد وأحاديث النبى المشرّفة كما هو معلوم.

وهناك مقال لزكى مبارك بعنوان « أفانين من الأحاديث » يوجِّه فيه من سمَّاه بـ « أبجد أفندى » الحديثَ إلى مسيو كومنين أحد رجال التربية والتعليم الفرنسيين بمصر فيقول : « لا يا مسيو ك . لا ، لا . لا تبالغ فى تمجيد الإسلام إلى هذا الحدّ ، فإن هذا يزيد صديقنا مبارك

(١) الأسمار والأحاديث / ٣٧٨ ـ ٣٧٩ .



زهوا . وقد رأيتَ كيف يتحامل على من لا يعتنق دينه الحنيف » ، فيرد زكى مبارك عليه قائلاً : « أنا لا أتحامل على أحد ، وليس من حقك أن تأخذ عليَّ أن أعتز بدينى ، فإنه جدير بذلك »[١]. وعندما يريد أبجد أفندى إحراجه بالكلام عن بعض النصارى المتمسكين بكثلكتهم لا لشيء إلا لأنها الدين الذى ورثوه عن أجدادهم وآبائهم وأمهاتهم قائلا : «وأنت ما شأنك ؟ أنت والله لا يرضيك إلا أن يصبحوا مسلمين » ، يكون ردّه بالبساطة السابقة ذاتها : « من فمك إلى باب السماء »[٢].

كذلك يتناول زكى مبارك فى الفقرة التالية مسألة على جانب عظيم جدا من الحساسية ، ولكنه كالعادة يفعل ذلك فى سهولة لا تصدَّق ، إذ يوردها مورد الفكاهة . يقول : « وقد يكون من الفكاهة أن أحدّثكم أن الكنافة تقوم فى مصر بعمل قومى جليل ، فإخواننا المسيحيون يُدْعَوْن كثيرا لتناول الفكاهة مع إخوانهم المسلمين فى رمضان ، وأكثرهم يتوهم أن جنة المسلمين ستكون مملوءة بالكنافة، وأنا لذلك أرجو أن يهديهم الله جميعا للإسلام فيجتمعوا على الكنافة هنا وهناك »[٣]. وهو لا يترك الأمر لذكاء السامعين ليعرفوا أن الكلام إنما هو فكاهة بل ينص على ذلك نصا فى أول الفقرة متغلّبا بذلك على ما فى المسألة من حساسية .

وفى هذا الصدد ينبغى ذكر الموقف التالى الذى وجد زكى مبارك

(١) المرجع السابق / ٣٠١ ـ ٣٠٢ .
(٢) السابق / ٣٠٧ .
(٣) د. زكى مبارك / ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ٨١ .

نفسه فيه فعالجه على طريقته المعروفة عنه ، طريقة المواجهة الصريحة .

لقد أقامت جمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية سنة ١٩٤٠م ، فى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى ، احتفالاً آخر سمته « عيد الورد » ، ودعت إليه جماعة من أدباء القاهرة ليخطبوا فيه ، ومنهم د. زكى مبارك . وقد كان بإمكانه أن يرفض الذهاب إلى هذا الاحتفال الذى بدا وكأنه قد اختير له يوم المولد النبوى اختياراً مقصوداً ، أو أن يذهب فيتكلم فى الموضوع الذى دُعِيَ للكلام فيه . بيد أنِ زكى مبارك ، بصراحته واستقامة ضميره، قد ذهب ثم جعل كثيرا من كلامه عن الإسلام : فالإسكندرية هى « التى استقبلتِ طلائع الجيش الإسلامى وجعلت للإسلام دولة على شاطئ المحيط » ، والبحر المتوسط هو « أول بحر خفقت فوقه الراية الإسلامية ، وسيظل إلى الأبد صلة الوصل بين حضارة الإسلام فى الشرق وحضارة النصرانية فى الغرب ، ولن تكون شواطئه الشرقية إلا بأيدينا مهما بغى الاستعمار واستطال » ، و « أول معهد دينى نظامى هو المعهد الإسكندرى » ، وهو معهد « منسيٌّ فى هذه الأيام ، ولكن الذين عاشوا قبل الحرب الماضية يذكرون كيف استطاع أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبان أن يقيم به زعامة دينية تصل روحها إلى أكثر المدن المصرية. وإن كُشِف غطاء التاريخ فستعرفون أن الشيخ اللبان كانت له يد فى تأريث الثورة المصرية » ، وإن الإسكندرية «تحتفل الليلة بالمولد النبوى احتفالاً أفخم وأعظم من جميع الاحتفالات بسائر المدن المصرية ».

ثم اختتم خطبته قائلاً فى عزة وشموخ : « نحن حفظنا مصر للعروبة



والإسلام ثلاثة عشر قرنا ، وسنحفظ لأبنائنا وأحفادنا وأسباطنا هذا التراث الغالى . والله مع المجاهدين »[١]. والملاحظ أنه لم يتحدث عن مناسبة الاحتفال التى دُعِيَ للحديث عنها بشيء أكثر من إشارتين عارضتين ذكر اسمها فيهما مجرد ذكر . إن ما فعله زكى مبارك ليصعب جدا أن يفعله غيره ، وإن الإنسان ليتساءل : هل نسى زكى مبارك أنه يخطب فى « عيد الورد » وحسب أن الاحتفال إنما هو بـ « المولد النبوى » ؟ والجواب : كلا . كل ما فى الأمر أن الرجل كان صريحًا شجاعًا نظيف النفس والضمير .

وزكى مبارك الذى يقول هذا ويؤديه كما رأينا ببساطة بالغة هو نفسه الذى يقول أيضًا وبالبساطة ذاتها تعليقا على ما ذكره البوصيرى فى سبب نظمه لـ « بُرْدته » فى مدح سيد الأنام عليه أزكى الصلوات والتسليمات من أنه قد أصيب بفالج فنظم البردة واستشفع بها إلى الله تعالى كى يَشْفِيَه ، ثم نام فرأى النبى عليه السلام يمسح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردته فيقوم سليمًا معافى : « وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة كأكثر الصوفية، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها أو قصيدة ينشدها كما برئ البوصيرى بقصيدته . ولو مرض مفتى الديار المصرية ، لا سمح الله ، ما استغنى بالبردة عن الطبيب ! ولعل حكاية البوصيرى

---

(١) الحديث ذو شجون / ١١ ـ ١٩ .

هذه هى سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة : فبعضها أمان من الفقر ، وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم ، فقد كان الزمخشرى يذكر شيئًا من مثل هذا عن سور القرآن . ويلاحظ كذلك أن البوصيرى كرر عبارة «صلى الله عليه وسلم» خمس مرات فى هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبى كلما ذُكِر اسمه من وساوس المتأخرين »[1]. إن زكى مبارك فى هذا النصّ يمشى على أرض زلقة ، ولكنه لا يبالى ، وعدّته فى ذلك صراحة نفسه التى تأبى عليه أن يتملق الآخرين بقول شيء لا يعتقده فى قلبه ، وصدقه فى الدفاع عن دينه وحبّه له ، ومنطقُه المحكم الذى يعالج به ما يمسّه من قضايا . وقد تكرر لهذا هجومه الحاد على النفاق والمنافقين ممن يأكلون الدنيا بالدين فى بطونهم ناراً متسعرة . ونحن حين نقول هذا لا نقصد بالضرورة أن نصادر حق أحد فى أن يعتقد ما يشاء فى مثل هذه المسائل، ولكننا أحببنا فقط أن نبين أن زكى مبارك حين قال ما قال إنما كان يصدر عن سمة جِدٍّ أصيلةٍ فى شخصيته وأدبه ، وهى سمة الصراحة والتعبير الواضح الشجاع عما يعتقده فى ضميره .

وهنا نصل إلى مسألة إيمانه بالله ، وهى مسألة اشتجرت فيها الآراء واختلفت اختلافا عنيفا يصوره هو نفسه بقوله : « أنا بين المؤمنين ملحد، وبين الملحدين مؤمن . وأنا برٌّ عند الفجار ، وفاجر عند الأبرار . فأنا فى كل بيئة أجنبى ، وفى كل أرض غريب »[2]. ونبدأ أولا برأيه

(١) الموازنة بين الشعراء / ١٧٨ .

(٢) ألحان الخلود / ٣٩ .



فى الدين . إنه يدافع عن الدين دفاعًا مجيداً ويراه من مقومات الاستقلال الوطنى والسعادة فى الحياة ، فـ « الدين الصحيح ... ثروة قومية يجب أن يحرص على تنميتها ساسة الشعوب »، وهو « حجاز من الزيغ والإفك والبهتان » ، ولو كان له « سلطان على أرواح الناس لانعدمت النمائم والسعايات والوشايات وانقطعت هذه المجازر البشرية التى يخلقها الدسّ والاغتياب » ، و « لما رأينا شهود الزور يضللون القضاء بلاحياء » ، و « لما استطال الأقوياء على الضعفاء ، ولما رأينا ذلك الحقد الذى يبيّته الفقراء للأغنياء » ، و « لقلَّ البغى والعدوان وعرف كل امرئ قدر نفسه واطمأن إلى أن الله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء » ، وهو أيضا « عماد من عُمُد الاستقلال لأنه يصحح ضمير الفرد ، والفرد الصحيح الخُلُق ليس إلا حجرا سليمًا فى بناء القومية »[1]... إلى آخر ما قاله فى هذا الصدد ، وهو كثير .

والدين الذى يقصده زكى مبارك « هو الدين الذى يهتم أهله أولا وقبل كل شيء بالفضائل الإيجابية » ، إذ « لا يكفى أيها الناس أن تصلوا وتصوموا وترسلوا لِحَاكُمْ وتكثروا من التسبيح ، فهذه فضائل ، ولكنها فى روحها فضائل فردية . إن الدين الذى يسند الاستقلال هو الدين الذى صوره الرسول حين قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ... هو الدين المضمَّخ بالنفحات الشعرية الذى يوجب

(١) اللغة والدين والتقاليد / ٧٧ ـ ٧٨ .

عليك أن تفرح لفرح أخيك وأن تحزن لحزنه ، وإن تقطعت بينك وبينه الأسباب ... إن الدين الحق يوصى بدفن الضغائن والحقود ... إن الدين الحق يعصم من الشقاق ... ولعل السر فى كره البدع أنها تقسم الناس إلى شيع وأحزاب وتغريهم بالتعاون والعناد وترميهم بأسباب الفتون . والأمة السعيدة بدينها هى الأمة الموحَّدة المذهب ، أما الأمة المشتتة فى نوازعها الدينية فهى أمة ضعيفة الرأى منحلة العزم لا يُرْجَى لها سلام »[١].

وهو يحمل على المرائين حملة شعواء : « رباه ، كم قاسينا من عنف المرائين ! إن الرياء فى الدين باب من أبواب الخراب لأنه يروض الناس على التكلف والافتعال فيما يأخذون وما يَدَعون ويوحى إليهم أن المراوغة لباقة وذكاء » ، ثم يصرخ قائلاً : « أنا أشتهى أن أومن ، ولكن الشوق يخمد فى قلبى كلما تذكرت أعمال المرائين »[٢]. ولعلَّ هناك من يقف عند ظاهر العبارة الأخيرة فيرى أن زكى مبارك لم يكن من المؤمنين . وهذا خطأ بواح ، لأنه هنا إنما يتهكم ولا يقصد ظاهراً من القول ، وإلاَّ فماذا نفعل بما نقلناه آنفا من كلامه عن الدين وأهميته ؟ كل ما فى الأمر أنه يفرق بين الدين الصحيح ودين الرياء والمنافقين مصورًا ذلك فى تلك العبارة المجازية الساخرة ..كما أنه يفضّل الأنبياء على الفلاسفة

(١) المرجع السابق / ٨١ ـ ٨٢ ، ٨٩ .

(٢) السابق / ٨٤ .



تفضيلا بعيدا ولا يرى هؤلاء شيئًا بجوار أولئك ، ويختلف مع طه حسين اختلافا عنيفا لقوله بعكس هذا : « حجة الدكتور طه على قوة الغرب أنه وطن الفلاسفة ، وحجته على ضعف الشرق أنه وطن الأنبياء ، فما هذا الكلام إذا أقيمت له الموازين ؟ لقد نجح الأنبياء والمرسلون فى هداية الشرق والغرب ، فإليهم يرجع الفضل فى إقامة الدعائم للحضارة الإنسانية ... إن محمدا هو القائد الأول فى الفكر الإنسانى ، وإذن يكون القائد الأول للفكر هو محمد لا سقراط ولو غضب الدكتور طه حسين »[١]. أما الفيلسوف فهو مجرد رجل «محب للحكمة ... رجل يريد أن يسمو بنفسه عن الجهل ويهمه أن يتحرر من تقاليد الأنبياء ، ولكنه فى أكثر أحواله يؤثر السلامة ، وقد يركن إلى الخمول . ومعنى هذا أن الفلاسفة لم تكن لهم فاعلية بدليل أنهم عاشوا فى عزلة عن المجتمع ولم يفكروا فى إقامة حكومة تحقق آمالهم فى شرف الوجود »[٢].

وهو دائمًا من الله على ذُكْرٍ لا يكاد ينساه ، ومن ذلك أنه عند حديثه عما وُهِبَه من الجَلَد والصبر على لأولاء الجهاد فى الحياة وقوة التحمل وكثرة النتاج الفكرى والأدبى يعزو السرّ فى ذلك إلى إيمانه بالله بل يقصره عليه : « ما كنت أملك غير إيمانى بالله ، وهذا هو السرّ فى عقيدة التصوف التى أقمتُ عليها بناء حياتى . جاوزت الخامسة

(١) زكى مبارك ناقدا / ٨٩ ـ ٩١ ، والمعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٣٧ ـ ١٤٠ ، وسيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢) زكى مبارك ناقدا / ٨٩ ، والمعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٣٧ .

والخمسين ولم أشعر بمرض يلزمنى السرير ليلة واحدة بغض النظر عن المتاعب التى يوجبها برد الشتاء ، وهى متاعب قاسية . وتأذت عيناى من كثرة المطالعات العربية والفرنسية ، ومع ذلك نجحتُ فى امتحان القومسيون الطبى سنة ١٩٣٧م حين عُيِّنْتُ مفتشا بوزارة المعارف العمومية ، وكانت سنِّى تزيد على السابعة والأربعين . نؤمن بالله أولا ثم نترك لله الخيرة فيما يشاء وفيما يريد »[١]. وهو يؤكد أن « الله عز شأنه يعلم أن نعمه العظيمة تصل إليّ بدون دعاء ، والأدب مع الله أن تثق بأنه يمنح ويَهَبُ من غير سؤال »[٢]، وأن « الله وحده هو الذى يجزى الجميل بالجميل ، وهو لفضله وكرمه وعدله لا يُضيع أجر من أحسن عملا »[٣].

وهو يستغرب أشد الاستغراب من صنيع علماء الكلام الذين يظنون أن بمستطاعهم البحث عن ذات الله وصفاته . والعبارة العنيفة التالية لا تصدر إلا عن قلب يعرف لله جلاله وعظمته . يقول : « وأنا لا أدرى سبب هذه الشهوة الغريبة التى تحمل علماء الدين على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون ... فإن البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه . وإنما سبيل المؤمنين أن يتأملوا ما يحيط

(١) ألحان الخلود / ٢٠ .

(٢) المرجع السابق / ١٨٦ .

(٣) السابق / ١٩٥ .



بهم من جلال الوجود وأن يبحثوا فى المراد من أن الله سَخَّر لهم ما فى الأرض جميعا ، فإنه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس يده وترى عينه ليغيب فى مجاهلَ من الظنون يسميها سَفَهًا علم التوحيد »[١].

وعن علاقته بالله جل جلاله يقول هذا الكلام الحلو العجيب : «وما بينى وبين الله لا يعرفه عدوّ ولا صديق ، وإنما يعلمه علاّم الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وأنا أتقرب إليه بالصدق فى درس شرائع الهدى وذرائع الضلال »[٢]. وهو يعلن دائمًا رضاه بقضاء الله وقدره : « إن لله حكمة عالية فيما أراده لحياتى . وقد رجوت صديقى الأستاذ سيد إبراهيم أن ينقش لوحة فنية فيها قول الله : {وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون } »[٣]، « ولو أننى اتجرت بالتراب وأضعت عمرى فى طلب المال حيث توجد منابعه لصرت كما صار فلان ... ولكن الفرصة ضاعت من يدى ، وأنا راض بقضاء الله .

رضينا قسمة الجبّار فينا  لنا علم ، وللجهال مالُ »[٤]

وعن إخراجه من المعهد العالى لفن التمثيل يقول : « تحملت ما قضت به إرادة الوزير السابق ، وأفْضَل منها إرادة الله ، التى قضت بأن أخرج

(١) الأخلاق عند الغزالى / ٢٣٦ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٠٣ .

(٣) المرجع السابق / ١١٩

(٤) نفس المرجع والصفحة .

إلى حياة النضال من جديد ، وفى يدى قلم يفُلّ الحديد . وصدق الله العظيم حين قال : { وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم } »[1]. وعن توكله على الله وكرمه سبحانه معه نقرأ هذه السطور الجميلة : « حضر الأستاذ ( أحمد حسن الزيات ) ونظر فى المكتبة ، وهى أعجوبة الأعاجيب ، وقال : ألا تخاف على عينيك ؟ قلت : أنا متوكل على الله، والله لن يبخل ببقاء النور فى عيونى . إن الله أكرم وأجود من الجود »[2]. وهو يخشى إن اعتمد على سواه عز وجل أن يبوء بسخطه :

« أنت يا صديقى تنكر أن أُضيّع حظى ممن عرفت من أكابر الوزراء ، وأقول إنى أخشى أن يغضب الله عليّ إن اعتمدت على سواه »[3].

وذات مرة تسخَّط طعامًا قُدِّم له فى البيت وهمّ بالاعتراض ، إلا أنه سرعان ما فاء إلى الرضا خشية أن يعاقبه الله بالحرمان . ولنتركه يروى هذه القصة بأسلوبه البديع وبساطة نفسه الأبدع : « كان من أدبى أن أفرح علانية بطعام البيت ، وكان فرحى حقيقيا لأن الطعام فى تلك السنين كان غاية فى نضارة المنظر وحلاوة المذاق بحيث صح عندى أن زوجتى هى وحدها اليد الصَّنَاع فى تأليف الصنوف الطريفة من أطايب الطعام المحبوب . ولكنّ يوما صائفا جاء بما لا أريد فقُدِّم إليّ طعام لا أشتهيه فى أيام الصيف ، وكانت النتيجة أن أهم بالاعتراض . وعلى من

(١) المرجع السابق / ١٩٠ .

(٢) السابق / ١٣٩ .

(٣) الحديث ذو شجون / ٥٠٨ .



أعترض ؟ إن زوجتى تحتمل غضبى ولا يصعب عليها أن تترضانى ، فهل ألومها على الذى اختارت من الطعام فى ذلك اليوم الصائف ؟ فى أقصر من لمح البصر تيقظ قلبى وأدركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانخذال وأنى لو جحدت الرزق فى أى صورة لذهب إلى غير معاد . أقبلت على الطعام كارها لأتقى غضب الله وإيذاء زوجتى فرأيته طعاما هنيًا لم أتذوق مثله من قبل ، وكانت العاقبة أن أحمد الله من صميم الوجدان » . ثم يعقب بهذه الكلمات العظيمة : « إن نعم الله تواجهنا من كل جانب ، ويكذب من يزعم أن الله يتخلى عمن يتوكلون عليه فى النعماء والبأساء . الله لا يتخلى عنا إلا حين ننساه . وهل يتخلى الله عنا حين ننساه ؟ إنه يتركنا لما نريد بأنفسنا فيحبّب إلى من نعتمد عليهم أن يشغلونا عنه بالجاه والمال تأديبا للانحراف عن طريق الرشاد . والعقاب الصارم هو أن نستغنى عن الله ونحتاج إلى الناس . الديدان الجاهلات فى أجواف الأحجار والثلوج أصدق إيمانا بالله من أشباه العلماء، والشجرة اليتيمة فى البادية القاسية ترى الله بأقوى مما تراه الأشجار المزودة بالأنهار الجارية . وهل حُفِظ تاريخ الملوك بقدر ما حُفِظ تاريخ الصوفية ؟ إن الفاجرين الذين صدقوا فى فجورهم كانت لهم مكانة فى التاريخ القديم والحديث ، فكيف يضيع من آمنوا بصاحب العزة والجبروت ؟ »[1].

(١) المرجع السابق / ٥٠٤ - ٥٠٥ .

وهو ، رحمة الله عليه ، يستغرب الكفر بالعالم الآخر ويرى العيش فى ظله جافا مجدبا : « لا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحُلْم الأعظم ، حلم الخلود ، فقد تشبث الإنسان بهذا الحلم فى جميع أدواره التاريخية ، وعزّ عليه أن تكون أيامه فى هذه الدنيا هى كل ما يملك من حظوظ الحياة ... وقد راعت الديانات هذه الأمنية الإنسانية فقررت فى ثقة مصحوبة بالرفق والعطف أنْ سيكون للإنسان حياة أخرى هى أعلى وأبقى من حياته الدنيا وأنْ سيكون له جنة ونعيم ورَوْح وريحان. ولا أكتم القارئ أننى أعجب كيف يعيش الناس فى بعض أنحاء الصين فى ظلال المعتقدات الجافة التى تنذر بألاّ حياة بعد الموت وألاّ رجعة للإنسان بعد فراق دنياه » (١).

ويقول إنه فى يوم الحساب سيمسك فى يمينه بكتبه ومقالاته التى سطرها خدمة للغة القرآن « كتاب الله العزيز » مستشفعًا بها عنده سبحانه : « لقينى الأستاذ درينى خشبة فى وزارة المعارف وأنا أتوكأ على العصا فقال : تشجّع يا رجل ، فأنت لا تزال فى شبابك . فقلت : إن الأيام هدّتنى هدّاً : فأعوام فى باريس ، وعام فى العراق ، وأربعون كتابا منها اثنان باللغة الفرنسية ، ومقالات بالمئات فى البلاغ . وهذا كله لخدمة لغة القرآن ، وهو كتاب الله العزيز . وهذه الخدمة هى الكتاب

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢ / ٣٤٧ .



الذى سيكون بيمينى يوم الحساب » (١). وهو تقريبا نفس جوابه عل
سؤال وجهه إليه تلامذة مدرسة سنتريس حين قالوا له : « إذا قضى ال
أن تموت بعد عمر طويل ، فما هو قولك يوم الحساب ؟ » ، فكان جوابه
« سأقدم إلى الله مقالاتى فى البلاغ ، وبها خدمتُ لغة القرآن »(٢)
ولكنه فى مناسبة أخرى يقول أثناء كلامه عن ليلى المريضة فى العرا
وأشباهها من الملاح : « أشهد أنى سأكون أضعف الناس حجة يوم ألق
ربى ، وما أظننى سألقاه إلا بدمع دافق ، فهل يتفضل عز شأنه فيغف
ذنوبى كما ستر عيوبى ؟ إنى لأعجب ثم أعجب ثم أعجب كيف سكت
الله عنى عشرين سنة أو تزيد فلم يفضحنى مع أنى رجل مسكين لن يج
فى حسابه حسنة واحدة يوم تُنْصَب الموازين . وهل رأت العيون أغرب
وأعجب من أن يكون لمثلى تلاميذ يقبّلون يمناه بحرارة وقوة ؟ عفا الل
عنكم يا تلاميذى ، فأنتم لا تعرفون أن أستاذكم خرّب ما بينه وبين الل
أشنع تخريب . ثقوا يا تلاميذى بأننى خدعتكم أقبح خداع ، وما سكت
الله عنى إلا لأنه رآنى أصغر من أن أستحق التأديب أو لأنه رأى من ح
الأطفال أن يرسموا ما يشاؤون من الخطوط فوق الرمال ... لا تغترو
بعفو الله يا تلاميذى كما اغتررتُ إلا إذا كان فيكم رجال يعرفو
عيوبهم كما أعرف عيوبى . وأنا أدعوكم إلى سحب الثقة من أستاذك
المجهول . أدعوكم إلى اليقين بأنكم عرفتم رجلا لا يستأهل رحمة الله .

(١) أحلام الحب / ٩٧ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٧٦ .

ولو حاسبنى الله بميزان العدل لمحا اسمى محوا من قائمة الوجود »[١]. وهو كلام يتضوّع بالإيمان باللّه والإجلال له والخوف منه .

وهو يعزو الصحة التى ظل يتمتع بها حتى آخر عمره إلى بركة القرآن : « فى الخامس من أغسطس أبلغ الستين . وأنا بحمد الله فى صحة قوية ، ولعل السرّ فى ذلك أن الله يمنح القوة لمن يخدم لغة القرآن»[٢]. وقبل ذلك بنحو عامين نجده يردّد نفس الكلام : «والمؤكد أننى خدمت وطنى بخدمة لغة القرآن ، وصحتى تقوى من يوم إلى يوم لحكمة يريدها الله ، وهى خدمة اللغة العربية »[٣].

ويقول عن تغنِّيه بجمال الكون والحسان : « سأذكر يوم أموت أننى كنت شاعر الحب والجمال وأننى عبدتُ الله أصدق العبادة ، فقد أثنيت على ما صنع وما أبدع حين جعل الدنيا غرائب وعجائب من الصنع »[٤]، « تمرّ لحظات تحملنى على التفكير فى صنع الله فأزداد إيمانا بالله »[٥].

وهو يكثر من دعاء اللّه والابتهال له ، وفى هذه الأدعية والابتهالات حرارة وصدق شديد ، ومن ذلك قوله : « أدعو الله ، تباركت أسماؤه ، أن يُسْبِغ على هذا العمل الخالص لوجهه الكريم حُلّة القبول . إنه قريب

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق / ١٦٠ .

(٤) السابق / ٢٣٣ .

(٥) أطياف الخيال / ٧٠ .



مجيب »[١]، « اللهم ، إنى أعوذ بك أن أقول قولاً حقا فيه رضاك ألتمس به أحدا سواك ، وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشيننى عندك، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد بما علّمتنى منى »[٢]، « تباركت يا ربى وتعاليت ، وبك يستعزّ ويستنصر كل من شاء ت رحمتك ألا يكون له نصير غيرك، وما أسعد من تفضلتَ عليه فكتبتَ ألاّ يعرف نصيرا سواك ! »[٣]، «تباركت يا ربى وتعاليت ، فلك الفضل فى كل حال ، وكنت أحكم الحاكمين فى خلق الشر والدمامة والقبح ، فتلك أصول قام على أساسها الوجود . ولو رحمت من يرجون رضاك من شر خلقك لكان نصيبهم الضياع »[٤]، « تباركت يا ربى وتعاليت ، فما مرت لحظة بلا شاهد يدل على عظمتك . أنت تغفر لأنك عظيم ، وبنو آدم لا يغفرون لأنهم صغار. كم أقمت الدلائل يا ربى على أنك تطّلع على كل شيء وإن دقّ وهان ! وكم نظرتَ إليّ كما ينظر الأب الرحيم إلى طفله الصغير ! ولولا الأدب معك لقلتُ إنى صافحتك بيدى أكثر من ألف مرة . نعم ، صافحتك ثم صافحتك ! وأنا أراك حين توجهتُ . أنا راض عنك يا رب ، فهل أنت راضٍ عنى ؟ »[٥]، « مولاى ، أنا أحب أن أكثر من الثناء عليك ،

---

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ١٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ١٣ .

(٣) السابق / ٢ / ٣١٨ .

(٤) السابق / ٢ / ٣٤٠ .

(٥) ليلى المريضة فى العراق / ٢٥٣ .

ولكنى أخشى الوقوع فى مزالق الرياء ، فارْضَ منى بالقليل يا من لا يعرف القليلَ فى الإحسان إلى العاصين والطائعين. إن الكافرين بنعمتك لم يَفُتْهم برّك وإحسانك ، فكيف يفوتنى لطفك وعفوك وسترك وأنا فى سريرة نفسى من أخلص عبادك ؟ مولاى ، إليك الأمر كله ، فافعل ما تشاء ، ولن ترانى إلا حيث تحبّ فى جميع الأحوال »[1]، « رباه ، أنت صاحب الحول والطول ، وبيدك أمر الأقوياء والضعفاء ، ومن فضل جودك صار النهر الصغير أنفع لخلقك من البحر المحيط ، وبفضل حكمتك صار من حق النِّمال أن تعيش فى أرض يصول فيها الأفيال ، وصار من حق الطير الضعيف أن ينقر أنياب التماسيح ليظفر بحاجته من القوت »[2].

وهذه مجرد أمثلة قليلة .

ولزكى مبارك مناجيات مع ربه جل شأنه لا تصدر إلا من زكى مبارك، إذ يرفع سجاف الكلفة ويخاطبه سبحانه مخاطبته لصديق له عليه حق الدلال والعتاب والتبسط الشديد الذى يصل إلى حد فقدان التوازن فى مخاطبته سبحانه : «إنك يا رب تعلم كيف ابتدأتُ وكيف انتهيتُ. إنك يا ربى تعلم أنى أشرف مخلوق سوّته يمناك مع استثناء الأنبياء»[3]. « هل فى الدنيا بلاء مثل بلائى أنا العاشق المهجور الذى غدرت به ليلاه ؟ ولو كانت ليلى واحدةً لصبرتُ ، ولكنهن لَيْلَيَات ! فيا

(١) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ١٧٤ .

(٢) مجنون سعاد / ١١٢ .

(٣) ليلى المريضة فى العراق / ٥٣ .



بديع الملاحات ، ويا فاطر السماوات ، كيف ترى حالى ؟ ويا خالق النخيل والأعناب ، كيف سكبتَ الصهباء فى روحى ؟ ويا مُجْرِيَ الدمع فى الشؤون ، كيف علّمتنى وعلّمت الحمائم النُّواح ؟ وما الذى أعددتَ لتكريمى يوم ألقاك وقد سبَّحْتُ بحمدك فوق أفنان الجمال ؟ وما عندك لسلامتى من الناس وقد خاصمتُ فيك جميع الناس؟»[1]، «المرأة مخلوق جميل ، ولكنه سخيف لأنها تجهل ما فُطِرَتْ عليه من الضعف ، وهى لا تسيطر ولا تستطيل إلا على كرام الرجال .. غضبة الله على جميع بنات حواء ! لن ينقضى عتبى على ربى حين ابتلانا بهذا المخلوق الذى يجمع بين الرفق والعنف . المرأة الجميلة قد تؤذى زوجها بلا تهيب ، والمرأة الدميمة قد تستعبد زوجها بلا ترفق ، فلأية حكمة خُلق هذا الجنس اللطيف ؟ »[2]، « هل تصدقون أنى رأيت ربى رأى العين وأننى حاسبته أشد الحساب ؟ أنا أتهم الله أمامكم ... فهو الذى هدانى إلى الضلال ، وهو الذى دعانى إلى التغريد فوق أفنان الجمال . هو الذى صاغ قلبى من الرفق والعطف والحنان . هو الذى قضى بأن أعيش شقيا لأموت شقيا . هو الذى اختصنى بهذا الروح الشفاف لأكون أضحوكة الجاهلين والسفهاء. هو الذى خلق لى لسانا لا يتحبّس وقلمًا لا يتوقف لأعلن عن سفاهتى فى كل أرض ولتسير غوايتى سير المثل الشرود ... يا رب ،

(١) المرجع السابق / ١٨١ .

(٢) السابق / ٣٩٠ .

ماذا ادّخرت لعبدك الأواب ؟ اكتبنى من المشرَّدين فى حبك ، واجعلنى من المضللين فى هواك »[١]، « بينى وبين الله عهود ومواثيق ، والعهد بينى وبينه أن أقضى العمر ساجعًا فوق ما أبدع من أفنان الجمال ، فأنا واثق بأن العافية لن تضيع من يدى . وهل يرضى الله أن أسجع سجع الجريح ؟ »[٢]، « تباركت وتعاليت يا فاطر الأرض والسماء ، فقد أغنيتنى عن مجاملة الصاحب وملاطفة الصديق . فى لحظة من لحظات الضيق دعوتك فقلت : «اللهم ، لا تحوجنى إلى أحد من خلقك » ، وقد استجبت لدعائى فلم تحوجنى إلى أحد من خلقك. وأنا بعد هذا أشكر لك نعمة لم تجد بها على أحد من خلقك إلا أن يكون فى مثل إيمانى بك وأدبى معك ، وهى نعمة الصفح عن الصديق الكافر بالجميل . إن قدرتك على خلق البرية بما فيها من أنهار وبحار وجبال ونجوم وكواكب ... إلى آخر ما تعلم وأجهل لا تقاس إلى قدرتك على إغنائى عن خلقك . علّمنى كيف أثنى عليك ، فقد عجزت عن الثناء عليك. ثلاثون سنة ، ثلاثون، وأنا أحارب الناس ولم يهزمونى لأنهم جهلوا سرّ قوتى . وأنا أعتزّ بك ، وصاحبُك مِنْ بَخْتِك ، وأنت يا إلهى صاحبى وبختى ، ولم يبق إلا أن أرجوك أن تعلمنى كيف أثنى عليك »[٣]. ونعم بالله !

(١) السابق / ٢٠٢ .

(٢) الحديث ذو شجون / ٤٠٣ .

(٣) المرجع السابق / ٥٤٠ .



ولكن هذا كله رغم جرأته وتقحمه ليس بشيء إلى جانب الآتى : «تمردت فقلت : « إننى لا أخاف الله إلا تأدبا مع ذاته العلية ، فكيف أخاف الناس ؟ »[١]، ثم بالغتُ فى التمرد فتحديت الله لأننى أعرف أن الله لا يستطيع مقابلة التحدى بالتحدى . وأنا أتحداه إن تحدانى ، وأنا حاضر للتحدى . إن غضب أحد الملوك على رجل ثائر نفاه إلى بلد بعيد ، فماذا يصنع الله إن ثُرْتُ عليه وهو ملك الملوك ؟ هل يوجد مُلك غير مُلك الله ينفينى إليه ؟ أين ؟ فى السماء ؟ فى الأرض ؟ ولكن الله المنتقم الجبار أجاب عن التحدى بالتحدى فأشجانى وأبكاني. لم يستطع أن يخرجنى من الملكوت لأنه لا يستطيع ، فجعلنى سادنا لكعبة من ساحات الملكوت وأمَرَ أن أغرد فوق أفنان الجمال :

قالوا : عشقتَ ، فقلت: كم من فتنة    لم تُغْن فيها حكمة الحكماءِ !

إن الذى خلق الملاحة لم يشأ    إلا شقائى فى الهوى وبلائى

وما الموجب لهذه المكايدة ؟ أنا أحب أن أعرف ! وقد ناب عنى سلطان العاشقين عمر بن الفارض حين قال :

كل من فى حماك يهواك ، لكن    أنا وحدى بكل من فى حماكا »[٢]

سيعجل أقوام ويقولون إن هذا كفر وتجديف ، لكننا لا نرى ذلك ، إذ لا

(١) لعلّه يشير إلى قوله : « تواضعْ لله أدبًا لا خوفا ، فهو يحب أن يراك فى أخلاق السادة لا أخلاق العبيد » ( الحديث ذو شجون / ٣٠٥ ) .

(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٢٠ - ٢١ .

يصدر هذا الكلام إلا عن قلب امتلأ يقينا بوجود الله وشعوراً بالقرب منه واطمئنانا إلى كرمه ولطفه وبره ورحمته بعباده الضعفاء وتعظّمه عن أن يؤذى واحدا من هؤلاء العباد أحبّه ورفع حجاب الكلفة وتخطى حدود الرسوم والمراسم فسكب ما فى نفسه حراً صريحا . وهل يمكن لكافر يجحد وجود الله أو يكفر بقداسته وبرّه وألطافه أن يقول مثل هذا الكلام؟ إن الكافر الجاحد لا يؤمن بالله ، فكيف يناجيه ؟ وكيف يتدلل على ربه كل هذا التدلل وهو ينكره أو على الأقل يكرهه فيدعى إنكاره؟ بَيْدَ أن الحرية والصراحة قد زادتا لحد فقدان التوازن كما قلنا .

وقد أشار زكى مبارك إلى تأديته الصلاة فى مواضع عدة من كتاباته رغم ما نعرفه عنه من غرامه بتتبع الجمال والهتاف فى مواكب ربّاته وإدمانه على الخمر : « رمتنى السلطة العسكرية البريطانية (عند اعتقاله أثناء ثورة ١٩١٩م) فى مكان سحيق بمجاهل الإسكندرية اسمه « سيدى بشر » وفى مأوى حقير كان مما صنعه الإنجليز للأسرى الألمان. فى تلك الأيام كنت أصلى الفجر ثم أسمع عند طلوع الشمس موسيقا عجيبة هى موسيقا الطبل البلدى الذى كان معروفا فى الريف »[١]، «كنت أحسن ذلك قبل أن أعرف « بونجور مدموازيل » و«بونسوار مدام»، أيام كنتُ أؤدى الفرائض والنوافل فى طاعة وإخلاص»[٢]، « لو شئتُ لقلتُ إن القوانين صيرت الحانات أكثر أمانا من

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ٢٢٠ .
(٢) الأسمار والأحاديث / ١٢٧ .



المساجد والكنائس . وما أذكر أنى دخلت حانة فَسُرِقْتُ ، ولكنى أذكر أن عباءتى سُرِقَتْ فى مسجد السيدة زينب منذ سنين فصرتُ لا أدخل مسجدا إلا صليت منفردا لأنجو من اللصوص المصلين»[١]، « متى يصلى ملوك مصر صلاة الجمعة فى جامع الفتح، وهو أول مسجد أقامه المسلمون فى مدينة دمياط ؟ إنه مسجد مجهول ، وقد صليتُ فيه فوق أكداس من التراب . المسجد محاط بالمقابر من جميع الجوانب . إنها مقابر المجاهدين الذين قاتلوا الصليبيين ، وكانت دمياط ثغر مصر أيام الحروب الصليبية. المصطافون فى رأس البر لم يَرَوْا تلك البقعة الحزينة ، فلهم فى رأس البر مناعم يعجز عن وصفها الخيال. مضيتُ أصطاف برأس البر فانزعجتُ ورجعتُ بعد أن كحلتُ جفونى بتراب تلك الأطلال . إنها منزلة لا يعرفها المترفون من الوزراء والكبراء ، منزلة منسية لا تقام فيها لله صلاة ولا يُسْمَع فيها أذان . قرأتُ على إحدى المقابر : « لا إله إلا الله . محمد رسول الله » ، وعلى مقبرة ثانية قرأت : { كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك } ، وعلى مقبرة ثالثة قرأت : { لمن المُلْك اليوم ؟ لله الواحد القهار } . عند ذلك طار صوابى »[٢]، «تفضل سكرتير محطة الإذاعة العراقية فدعانى لإلقاء محاضرة عن الحِكَم العَطائية ، وأنا فيما يظهر رجل خداع ، فقد ظن السيد فؤاد جميل أنى أَصْلَحُ الناس للكلام عن

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ٢٢٠ .
(٢) ألحان الخلود / ٢٣ .

حكم ابن عطاء الله . ولعل حياتى فى بغداد هى التى هدته إلى ذلك ، فقد رآنى أحفظ آداب الصيام وأؤدى الفرائض والنوافل فظننى رجلا تقيا ، ونسى هذا الأديب أن الغريب لا فضل له فى التخلق بمكارم الأخلاق »[١] ، « وبعد انقضاء السهرة ( يقصد سهرة بغدادية أيام أن كان يشتغل بمدرسة المعلمين العليا بالعاصمة العراقية ) رجعتُ إلى بيتى فتوضأت وصليت العشاء وحمدتُ الله على نعمة التوفيق »[٢] .

ولكن يبدو أنه لم يكن مواظبا على أدائها ، اللهم إلا فى بغداد إذا كان لنا أن نأخذ كلامه المارّ ذكره قبل قليل على حرفيته . وقد ذكر هو نفسه أنه كان مواظبًا على أداء الفرائض والنوافل قبل الثلاثين ، أما بعد ذلك فشيء آخر : « أنا لم أقترف كبيرة ولا صغيرة قبل الثلاثين ، وما أذكر أنى فرَّطْتُ فى الفرائض والنوافل قبل الثلاثين »[٣] .

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ ، إذ تكررت حملاته على الملاحدة . ومن ذلك أنه ، فى أثناء كلام له عن النبى عليه الصلاة والسلام والقرآن وتكذيب المكذبين لهما ، يتساءل قائلاً : «أتروننا ندافع عن ذلك الكتاب المجيد ؟ » ليجيب بالجواب التالى : « ومن عسى أن يكون أعداء ذلك الكتاب ؟ وهل كان الملحدون إلا ناسا سخفاء طاشت

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٧٦ .
(٢) المرجع السابق / ٢٤٤ .
(٣) السابق / ٢٦٤ .



حلومهم وظنوا الزيغ من البراقع التى تستر الغباوة والجهل ؟ » ، ثم يضيف بعد قليل : « ومع ذلك سيذهب الملحدون مع الذاهبين ، وإن بقيت لهم ذكرى فستكون صورة من صور إبليس . فإن تعللوا بأن الشهرة مغنم عظيم فليتذكروا أن إبليس سيظل أشهر منهم ، وإن قضوا طوال الأعمار فى خدمة الإفك والضلال »[١] .

ويقول معلقا على بيتين من بردة البوصيرى : « يكفى أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه الحقيقة : فالقرآن كتابٌ خطرٌ رهيب يحمل عدوه على الإيمان به والخشوع لديه . ولو صحت ، لا صحت، أراجيف الملحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود »[٢] . وقد أكّد مرارا أن القرآن كتاب معجز لا يمكن الإتيان بمثله ، ومن ذلك قوله : « القرآن هو المعجزة الباقية ، و ... هو المرجع حين يجدّ الخلاف ، وهو أيضًا المعجزة الصريحة التى يعتزّ بها العقل ويصحّ للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين »[٣] ، وقوله : «امتازت لغة العرب بأكرم أثر عرفه الوجود ، وهو القرآن . وهو حجة اللغة العربية يوم يقوم التفاخر بين اللغات والأحساب »[٤] ، وقوله إن «البلاغة القرآنية ... بلغت الغاية فى الدقة

---

(١) المدائح النبوية / ١١ - ١٢ .
(٢) الموازنة بين الشعراء / ٢٢٩ .
(٣) نفس المرجع والصفحة ، والمدائح النبوية فى الأدب العربى / ١٥٧ .
(٤) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٨٤ .

والعذوبة والجمال »[1]. وهو يرجع إعجازه إلى ما فيه من سمو المعنى وقوة الروح[2].

ومع ذلك كله نراه يشير فى بعض ما كتب إلى أن له نظرية فى وحدة الوجود[3]. وهو يشرح هذه النظرية فى كتاب « التصوف الإسلامى » فيقرر أن القائلين بهذه الفكرة « يختلفون فى تصويرها إلى فريقين : فريق يرى الله روحًا ويرى العالم جسما لذلك الروح ، فالله هو كل شيء. وفريق يرى جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء هو الله »[4]. ثم يضيف بعد قليل أننا « حين نقول بوحدة الوجود نقضى بأننا جزء من الوحدة الإلهية ، ولا شك أن فينا شمائل روحية وخلقية تدعونا إلى القول بصحة ذلك الادعاء ، ولكننا نتلفت فنرانا نعرى ونظمأ ونجوع ، ونرى أكبر المتفلسفين لا يغنيه التفلسف عن طلب الرزق ، وتمرّ بنا أحداث نرى الناس فيها صغارا جدا لا يصلحون أبدا للاتّسام بالسمة الإلهية . يضاف إلى ذلك أن القول بوحدة الوجود يجعل الثواب والعقاب من المشكلات ، فمن الذى يُثيبنا حين نحسن ؟ ومن الذى يعاقبنا حين نسيء ؟ ومن نحن حتى نحسن؟ ألسنا جزءا من الله ؟

(١) المرجع السابق / ١٨١ .

(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢ / ٨٧ ـ ٨٨ ، ٩٧ .

(٣) المرجع السابق / ١٣١ . وانظر إشارة أخرى إلى هذه النظرية ص١٧٤ ، وإن لم ينسب النظرية فيها إلى نفسه .

(٤) التصوف الإسلامى / ١ / ١٧٩ .



ومن نحن حتى نسيء ؟ ألسنا بَضْعة من واجب الوجود ؟ أيحسن الله نفسه ثم يثيب ، ويسيء ثم يعاقب ؟ تلك مشكلة المشكلات » . ثم بعد أسطر قليلة يقول : « أتريدون الحق ؟ إن القول بوحدة الوجود له وجه » ليعود بعد عدة أسطر أخرى فيستدرك قائلا : « ولكن كيف يكون الحال لو وُضِعت القوانين على هذا الأساس ؟ كيف يكون الحال حين يُحْكَم بأن المجرم يجرم وهو غير مسؤول ؟ أتنفعنى هذه الفلسفة التى أدونها فى غرفة مغلقة النوافذ ؟ ألا يكون من حق كل مجرم أن ينتهب منى ما يشاء حتى هذا الرغيف الذى أعددته للغداء ؟ » . ثم ينتهى إلى التأكيد بأن « القول بوحدة الوجود ليس إلا شطحة صوفية ، وهو خطر كل الخطر فى عالم الأخلاق . فإن رابكم هذا القول فتأملوا أحوال الصوفية ، فهم فى الأغلب من الذين سقطت عنهم التكاليف وعاشوا عيش التفكك والانحلال منذ أفلتوا من قيود الشرع الحنيف »[1].

إذن فالرجل ليس مطمئنا تمام الاطمئنان إلى هذه النظرية ، وإن رأى أن لها وجها . وعلى أية حال ، فهذا لا ينافى إيمانه بالله ولا ارتباطه به، إذ المؤمن بوحدة الوجود لا ينكر وجوده سبحانه ولا يكفر بنعمه . كل ما هنالك أنه يؤمن به سبحانه إيمانًا يختلف عن إيماننا الذى نرى أنه هو الصورة الصحيحة للإيمان بالله عزّ وجل . وقد رأينا شواهد كثيرة على إيمانه يصعب التشكيك فيها ، وإن اتخذت فى بعض الأحايين صورًا

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ١٧٩ ـ ١٨٣ .

« مباركيّة » خاصة كما سبق بيانه .

هذا ، وأحب أن أضيف إلى الاعتراض الأخلاقى الذى ساقه كاتبنا على نظرية وحدة الوجود عدة اعتراضات أخرى : فمثلا لو أننا قلنا بوحدة الوجود لانتفت عن الله كل صفاته ولم يبق له تقريبا إلا صفة الوجود . وهذا طبيعى ، فما دام كل شيء غير الله لا وجود له فكيف نقول عنه عز وجل إنه « خالق » مثلاً أو « رازق » أو « كريم » أو « رحيم » أو « غفور » أو « جبار » ؟ إن هذه الصفات وأشباهها إنما تستلزم وجود كائنات غير اللّه تتحقق من خلالها ، فصفة « الخلق » مثلاً تتطلب كائنات « تُخْلَق » ، وصفة « الرحمة » تحتاج إلى مخلوقات مسؤولة تخطئ ويحق عليها العقاب ولكنها « تُرْحَم » ... وهكذا . فأى إله ذلك الذى ليس له من الصفات إلا أنه موجود ؟ وكيف يكون إلها وليس له عباد ؟ كذلك لو كان الكون كله إلها فكيف يمكن أن يتجزأ ذلك الإله إلى هذه الكائنات المختلفة من أرواح وبشر وحيوانات وطيور وأسماك وفراش وديدان وزواحفَ وجمادات وهواءٍ ومعادنٍ ... إلخ مما لا يقع عليه الحصر ، مع أنه بوصفه إلهًا لا بد أن يكون واحداً لا متعددا ؟ ثم أى إله هذا الذى يجوع ويعرى ويعطش ويمرض ويتبول ويتبرز ويخاف ويقلق ويتعادى ثم يموت ، ممثَّلاً فى الكائنات المختلفة التى تعج بها الحياة ؟ ثم كيف تكون كل هذه الكائنات آلهة أو أجزاءً من الإله وهى لا تعرف عن ألوهيتها شيئا ؟

لكننا من جهة أخرى نجد زكى مبارك فى بعض ما كتب يتحدث عما



سماه بـ « الجناية العظيمة » التى جناها تحريم الإسلام للتصوير على الشعوب الإسلامية ، إذ عطل مواهبها الفنية وحشرها فى زمرة المتخلفين عن فهم أسرار الجمال. كما أنه يدعى أن ما جاء فى الإسلام عن نعيم الجنة وعذاب السعير إنما هو « طائفة من الأمانى والمخاوف تمثل ما كانوا يرجون ويرهبون ، فعرفنا مثلاً أنهم بحكم مركزهم الجغرافى الأول قبل أن يخرجوا من جزيرة العرب كانوا من آلام الظمإ والجوع فى كرب عظيم . ألا ترى كيف يذكرون أن أول ما يَنْعَم به أهل الجنة هو الكوثر، والكوثر نهر عذب ينهل منه الوارد نهلة فلا يظمأ بعدها أبدا ... ولك أن تقول مثل ذلك فيما تحدثوا به عن عذاب القبر ، إذ تراهم يتصورون المذنب وقد أحدقت به الحيات والثعابين . وإنه لدليل على ما كانوا يقاسون فى البادية من عنت الأفاعى والصِّلال »(١).

ومثل هذا الكلام مما لا يستطاع تأويله ، وهو يدل على أنه يعارض الإسلام فى مسألة النحت والتصوير ، كما يوحى بأنه يتهم نصوص الوحى التى تصور الثواب والعقاب الأخروى بأنها من صنع الرسول استجابةً لحاجات المجتمع العربى الذى ظهر فيه . وقد كان باستطاعته مثلاً أن يعلّل تشدد الأحاديث النبوية فى مسألة الفن التشكيلى ، مثلما صنع محمد عبده وتلامذته مثلاً ، بأن ذلك كان مقصوراً على بدايات الإسلام الأولى خشية انتكاس العرب إلى الوثنية التى كانوا خارجين منها لتوِّهم . لكنه للأسف لم يفعل ، واتهم الإسلام بأنه جنى جناية عظيمة

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٣٠ ـ ٣١ .

على الشعوب الإسلامية وعطّل حاسة تذوق الجمال وموهبة الإبداع الفنى لديها . وقد ذكرتُ هنا الأحاديث النبوية فقط لأنه ليس فى القرآن الكريم شيء من هذا التحريم البتة . كما أنه فى تفسيره لنصوص الوحى التى تتحدث عن نعيم الآخرة وعذابها بأنه انعكاس لظروف البيئة العربية وحاجاتها إنما يجرى وراء دعاوى المستشرقين الذين كثيرا ما خالفهم وكرّ عليهم وعلى آرائهم ونظرياتهم التى هاجموا فيها الإسلام. وهى مسألة غير مفهومة ، فضلا عن أنها تتناقض مع ما رأيناه من اعتزازه بالإسلام وغيرته عليه وحساسيته لكل ما يوجَّه ضده ، فما السّر فى ذلك يا ترى؟ هل يمكننا أن نقول إن هذا الكلام إنما هو نتاج مرحلة الشباب المندفع ، إذ كتبه فى سنة ١٩٢٨م ، سنة ظهور الطبعة الثالثة من « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ، وهو الكتاب الذى ورد فيه هذا الكلام ؟ يبدو لى أن هذا تفسير لا بأس به .

وبالنسبة للدعوى الأولى الخاصة بالفنون التشكيلية فإن وجود بعض الأحاديث النبوية التى تتشدد فى مسألة التصوير والنحت لم يمنع البتة من ازدهار الفنّ الإسلامى من عمارة وزخارف بل وتصوير ونحت أيضًا. كما كان للتصوير والزخرفة الإسلاميين أثرهما على نظيريهما فى أوربا. وقد كتب فى ذلك بعض الدارسين الأوربيين أنفسهم ، ومن يرجع مثلا إلى كتاب « The Legacy of Islam » ، الذى درس فيه المستشرقون نواحى الحضارة الإسلامية ، يجد أشياء كثيرة من هذا الذى نقول[1].

(١) فى الطبعة الإنجليزية الصادرة فى عام ١٩٣١م عن مطبعة جامعة أوكسفورد وبإشراف أرنولد ( Arnold ) وجيوم ( Guillaume ) نجد ثلاثة فصول مخصصة للفن =



وفى مكتبتى الخاصة كتاب بعنوان « Treasures of Islam » لمؤلفه فيليب بامبورو ( Philip Bamborough ) ، وهو يحتوى على عشرات الصّور لنماذج من الفنون الإسلامية المختلفة من مجالات العمارة والزخرفة والتصوير والزهريات والتماثيل والأنسجة والخطوط العربية الجميلة مما ينتمى إلى مختلف العصور والبلدان . ومثله فى ذلك كتاب « Islamic Art » لديفيد تولبوت رايس ( David Talbot Rice ) . كما تحدث فيليب حتّى فى كتابه « History of the Arabs » بشيء من التفصيل عن أنواع الفنون الجميلة فى كل دولةٍ من دول الإسلام . وما من كتاب من كتب التاريخ الإسلامى الموسّعة إلا وفيه فصول عن هذه الفنون ، وهى مبذولة لمن يريد الرجوع إليها ومعرفة ما فيها عن هذا الجانب المهم من التراث الإسلامى . وهذا كله يدل على أن الواقع قد اتخذ مساراً مختلفًا قليلاً أو كثيرا عن النصوص الحديثية التى فهمت طائفةٌ من العلماء المسلمين أنها تحرم التصاوير والمنحوتات[1]. وإننى لا أزال أذكر المحاضرات التى كنت أحضرها فى جامعة أكسفورد أيام دراستى

= الإسلامى (ص ١٠٨ - ١٧٩) . أما فى الترجمتين العربيتين لذلك الكتاب ( ترجمة « لجنة الجامعيين لنشر العلم » عام ١٩٣٦م بالقاهرة ، وترجمة سلسلة « عالم المعرفة » فى أوائل الثمانينات بالكويت بعنوان « تراث الإسلام » ) ، فهناك جزء كامل خاصّ بالجانب الفنى فى التراث الإسلامى هو الجزء الثانى .

(١) ومن المتخصصين العرب الذين يمكن الرجوع إلى مؤلفاتهم فى هذا المجال زكى محمد حسن و د. حسن الباشا ود. سعاد ماهر ومحمد صدقى الجبخانجى ، وهؤلاء من المصريين فقط .

للحصول على درجة الدكتوراه منها ، وكانت عن الفنون الإسلامية ، وكان الأستاذ المحاضر يستخدم فى شرحه الفانوس السحرى ويعرض علينا صوراً لبعض النماذج المختلفة من هذه الفنون معلقا عليها بانبهار شديد . وكانت هذه المحاضرات ، برغم ابتعادها عن تخصصى فى النقد الأدبى ، من الأمور التى زودتنى بمدد عظيم من البهجة والسعادة . ومثلها فى ذلك المعروضات الفنية التى شاهدتها فى بعض المتاحف البريطانية آنذاك . وفى مكتبتى الخاصة أيضًا كتاب « القاهرة ـ تاريخها وفنونها وآثارها » ، وهو كتاب ضخم يبلغ من الصفحات نحو ٦٥٠ ، وقد وضعه عدد من المتخصصين فى تاريخ الفن الإسلامى ، وفيه أشياء كثيرة عن التراث الفنى الإسلامى فى مجالاته المختلفة فى مدينة القاهرة وحدها . ولعل من المناسب أن أشير هنا إلى الفصل الممتع الذى خصصه ديزموند ستيوارت فى كتابه عن «القاهرة» للحديث عن الطابع الإسلامى لعاصمتنا المحروسة ، ففيه كلام يشهد بعظمة فن العمارة الإسلامى فى هذه المدينة رغم قصر ذلك الفصل . كما أن سلسلة « عالم المعرفة » الكويتية قد أصدرت منذ عدة أعوام كتابًا عن « المساجد » بقلم د. حسين مؤنس الكاتب والمؤرخ المعروف . ومثله فى التخصص فى جانب واحد من جوانب الفن الإسلامى الكثيرة والغنية ، وإن كان مقصوراً على فترة تاريخية بعينها ، كتاب آرثر لين ( Arthur Lane ) المسمّى : «Early Islamic Pottery» عن الأطباق والصحون والزهريات والحيطان القيشانية وغيرها ، وهو مملوء بالصور الساحرة. وهذه مجرد



عينة صغيرة لا غير ، فكيف جرؤ زكى مبارك على أن يسوق ادعاءه بمثل هذه الخفّة والسرعة التى مسَّه بها ؟ يبدو لى أن صغر سنّه وقلة معرفته أيّامئذ هما المسؤولان عن هذا التورط الذى وقع فيه كما سبق أن ذكرت آنفا . ثم فلنفترض أن المسلمين لم يخلّفوا وراءهم أى تراث فنى تشكيلي، فهل يمكن الزعم بأنهم قد حُرموا الحسّ الجمالي؟ إن الشعور الجمالى ليس مقصوراً على الفنون التشكيلية وحدها ، فالعمارة والآداب والتراتيل القرآنية والموسيقى والغناء تمثل مجالاً لا يقل أهمية فى تربية الذوق الجمالى عن الفن التشكيلى بأية حال . كما أن النظافة والنظام والتيقظ لمجالى الجمال فى الطبيعة يمكن أن توجَد فى المجتمع حتى لو كان منصرفا عن الاهتمام بالإبداعات التشكيلية . ونحن الآن فى مصر نصوّر وننحت ، ومع ذلك فمستوى النظام والنظافة عندنا للأسف متدنٍّ جدا. كما أن أوربا طوال تاريخها تقريبا تنتج الفنون التشكيلية ، ومع ذلك فقد كانت القذارة هى السمة السائدة فيها خلال القرون الوسطى : قذارة الأبدان والبيوت والشوارع على السواء .

أمّا الدعوى الخاصة بتأثر نصوص الوحى الإسلامى التى تصور الثواب والعقاب الأخرويين بظروف البيئة والمجتمع العربيين فيكفى فى تفنيدها أن العرب لم يكونوا هم الأمة الوحيدة التى استجابت للإسلام وأثّر فيها ما ورد فى القرآن والحديث من أوصاف الجنة والنار ونعيم القبر وعذابه بل شَركَتْهم فى ذلك أمم كثيرة فى آسيا وإفريقيا وأوربا فى الماضى وفى الحاضر ، وكذلك فى المستقبل أيضًا بمشيئة الله . ثم إن هذ

الأوصاف إنما تخاطب الطبيعة البشرية بوجه عام لا حاجات البيئة العربية وحسب ، فحبُّ الطعام الشهى والمشروب اللذيذ والمرأة الجميلة ليس مطلبا عربيا فقط ، وإنما هو مطلب إنسانى على اختلاف الأمم والشعوب . كذلك فإن النعيم والعذاب الأخرويين فى الإسلام ليسا مقصورين على الأشياء المادية ، بل فيهما كثير من المعنويات كرؤية الله والاستمتاع برضاه عزّ شأنه والسلام الشامل الذى تسبح فيه أرواح المؤمنين فى الجنة ، وهو ما سيُحْرَم منه أصحاب الجحيم ، علاوة على ما سينهال عليهم من تبكيت وتقريع وإهانات . بل إن الحور العين فى الجنة لَسْنَ مجرد جسد جميل ، إذ هناك المحبّة والتفاهم العميقان اللذان يربطانهن بأزواجهن . كما تكرر فى الآيات القرآنية وصفهن بالخَفَر الآسر الجميل .

ويبقى أخيرا أن زكى مبارك عندما يتحدث عن القرآن قد يستخدم أحيانا لغة تبدو وكأنه يرى أنه كلام الرسول عليه السلام وليس وحيا سماويًا ، فهو فى حديثه عن موقف القرآن من الشعر والشعراء يقول ما نصُّه : « كل من قرأ القرآن يفهم أن رأى الرسول فى الشعراء رأى جميل. وانظروا قوله عز شأنه : { والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ } »[١]. وكما نرى فهو يذكر أن هذا هو رأى الرسول عليه الصلاة والسلام مع أنه يقول عقب ذلك : « انظروا قوله عز شأنه » بما يُفْهَم منه أنه يؤمن بأنه وحى

(١) الأسمار والأحاديث / ١٣٢ .



سماوى ، وهو ما قاله قبل ذلك فى نفس المقال حين تساءل مخاطبا محمد الأسمر الشاعر المعروف : « أما قرأت قوله تعالى : { وما علّمناه الشعر وما ينبغى له } ؟ »[١]. وهذا الموقف المحير نجده فى بعض المواضع الأخرى من كتابات الدكتور زكى مبارك رغم أنه قد كرر القول بإعجاز القرآن[٢].

ومن شغف زكى مبارك بالصراحة والحرية نراه يدافع عن مذهبه فى تعرية نفسه والكشف عن كل ما يدور فيها من مشاعر ونزعات ، أو (على حد قوله) وضع نفسه على مشرحة الأدب « ليسهل عليه وعلى غيره التحليل » حتى لو كانت النتيجة أن يسيء الناس الظن به وبما يكتب . وهو يشبّه نفسه فى ذلك « بالطبيب المخلص لعمله ، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السلّ والتيفوس »[٣]. وهو لا يبالى أن يُرْمَى بالفجور من أجل ذلك ، بل يزيد فيوقّع على مقدمة كتابه

(١) المرجع السابق / ١٣١ . وانظر أيضًا « الموازنة بين الشعراء » / ٢٨ - ٢٩ ، ففيه مثل ذلك .

(٢) كما فى « النثر الفنى » مثلا / ١ / ٤٤ وما بعدها . وقد هاجمه بسبب هذا الكتاب الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، الذى كتب عدة مقالات فى « الرسالة » سنة ١٩٤٤م اتهمه فيها فى عقيدته . وكان من جراء ذلك أن ترك زكى مبارك هذه المجلة غضبا من الزيات ، الذى نشر مقالات الغمراوى وحجب ردّه عليها ( انظر محمد جاد البنا / المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه / دار الكتاب السعودى / الرياض / ١٤٠٦هـ - ١٩٨٧٦م / ١٤١ - ١٦١ ) . وقد نفى د. زكى بمنتهى القوة أن يكون القرآن من تأليف النبى عليه الصلاة والسلام ( انظر كتابه «الموازنة بين الشعراء » / ٢٢٩ ) .

(٣) مدامع العشاق / ٩ .

« مدامع العشاق » ( الذى قال فى مقدمته هذا الكلام ) بـ « الملحد الفاجر فيما يزعمون - زكى مبارك »[١] ، فكأنه يخرج لسانه لمن يخالفونه فى الاتجاه الأدبى ويتهمونه فى أخلاقه قائلا لهم بأعلى صوته: « طُظْ! ».

كان ذلك فى سنة ١٩٢٥م ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام ( عند طبع كتابه عن « حب ابن أبى ربيعة وشعره » من جديد ) نجده يفصِّل القول فى هذه القضية قائلاً إنه يُؤْثِر الأدب المكشوف ، وإن الأدب والفن يجب أن يسْمُوَا عن الأوضاع والتقاليد ولا يباليا بتزمت المتحرِّجين من رجال الدين ودعاة الأخلاق ، وإلا أصابهما الفتور والضَّوَي. وهو يعود القهقرى إلى الأزمنة التى كان فيها الأدب العربى فى أوج قوته وعز سلطانه مستشهداً بالنهج الذى انتهجه أبو الفرج مثلا فى « أغانيه » ، إذ « عرض ... أخبار الخلفاء والشعراء والكتاب بعبارة حرة صريحة مكشوفة لا يثقلها قيد ولا يحجبها قناع » ، ومثله فى ذلك الجاحظ والثعالبى وابن منظور والنويرى . ثم يستشهد بما قاله ابن قتيبة فى هذا السبيل من أنه إذا كان فى الناس من يتشدد ويتحرج ففيهم أيضًا من يترخَّص ويتسامح ، والكتب لا تؤلَّف للأوَّلين وحدهم بل لهم وللمترخصين المتسامحين كذلك ، وأن العيب ليس فى ذكر أسماء العورات والفواحش بل فى شتم الأعراض وقول الزور وأكل لحوم الناس بالغيب ، وإلاَّ ما جرت على لسان الرسول عليه السلام فى بعض أقواله أسماء الأعضاء التناسلية ، وأن بعض المواقف يقتضى التصريحَ اقتضاءً بحيث يفسدها التعريض والكناية ، وأن شدة التحرج هى لون من ألوان الرياء والتصنع .

---

(١) المرجع السابق / ١٦ .



وبعد كلام طويل فى هذا الاتجاه يختم زكى مبارك مقدمته صائحًا : « لو أن الدين والخلق وقفا عند حدود العقل لخفَّ الأمر وهان ، ولكنهما صارا سنادا لكل ضعيف الحجة سقيم البرهان . فلْنُعْلِنْ حرية الآداب والفنون ، ولْيَرْضَ من يشاء بالجهالة يحرسها الدين وتحوطها الأخلاق »[١] .

والطريف أن الكتابين اللذين قال كاتبنا فى مقدمتهما هذا الكلام لا يكادان يحتويان على شيء من « الأدب المكشوف » ، وإنما هى أشعار فى الغزَل والنسيب لابن أبى ربيعة وأضرابه وكذلك للشعراء العذريين ومن إليهم بسبيل . وهذا يصدق ، فى حدود ما لا حظتُ ، على كل كتابات زكى مبارك ، فالرجل من دعاة الأدب المكشوف وأنصاره نظريا ، أما فى الواقع فلا شيء يؤخذ عليه من هذه الناحية تقريبا . وحتى من الناحية النظرية نجده ، رحمه الله ، يعود فيرى أنه لا يليق بالأديب أن ينحو فى كتاباته نحو الأدب المكشوف أو يُعَرِّيَ نفسه أمام القارئين حتى لا يفقد كرامته . يقول : « ما غنيمة الرجل الذى يجاهد لإغناء الحياة الأدبية بالصورة الحسية والاجتماعية على نحو ما فعل ميسيه ولامرتين إذا خرج من جهاده بمحصول سخيف هو فَقْدُ كرامته بين الناس ؟ وهل يستطيع أطرف الأدباء أن يكون أخلد من إبليس ؟ إن بعض الأدباء، وأنا منهم ، يتوهمون أن وصف الشهوات والمآثم يرفع الأدب ويُحْيِيه ، وذلك ضلال مبين ، فما ظفرتُ ولا ظفر أمثالى بغير عصارة مريرة الطعم والمذاق . إن الصوفية أعقل من الأدباء وأشرف . سيلقى الصوفية ربهم

---

(١) انظر « حب ابن أبى ربيعة وشعره » / ٢٢ - ٣٤ .

راضين مبتسمين ، أما نحن فسنذهب إلى النار فى ركاب امرئ القيس ، الذى أنذره الرسول . لقد فقدنا كل شيء حتى الطمع فى عفو الله . وهل يعفو الله عمن خلّدوا آثار المآثم والشهوات باسم الأدب الرفيع ؟ إن من أشنع الأضاليل أن تظن أن من الأدب أن تصف كل ما تراه العيون . إن من أشنع الأضاليل أن تحسب أن من واجبك أن تصور كل ما فى الوجود . إن من أسخف الأباطيل أن تخال أنك جندى من جنود الحب والهيام والفتون . تلك دنيا من الوهم السخيف طُفْنا بملاهيها ونحن سفهاء ثم رجعنا نادمين »[١]. إن الرجل هنا ، كما فى طائفة أخرى من آرائه ومواقفه ، لا يستقر على شيء دائم ، لأنه ما إن يجرى مع دفعة طبعه وغرائزه حتى يستيقظ ضميره فيلذعه فيقول عكس ما كان قد قال قبلا .

ومن طريف الأمر أن كتاب « مدامع العشاق » قد تعرض عندما ظهر لهجوم من الدكتور طه حسين ، إذ ذكر أن زكى مبارك قد «تملّق ... عواطفه وعواطف قرائه وأسرف فى هذا التملق فخرجت فصولة عن أن تكون مباحث علم وأدب ، وأصبحت مباحث استثارة للعواطف وتوجيه للأهواء » ، وأخذ عليه أنه « يريد أن يكون حراً فى الدين وحراً فى الأدب » وأنه لا يريد أن يستمع فى ذلك إلى نصح أو لوم بل يمعن فيه متصوراً أن ذلك لون من الاضطهاد له . ومع هذا فقد ختم الدكتور طه كلامه قائلاً إن ذلك التحفظ « ليس يمنعنى ... من أن أقدّر كتابه وأثنى عليه »[٢]. قلت إن ذلك من طريف الأمر لأن الكتاب إنما هو فى ألم

(١) التصوف الإسلامى / ٢ / ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) طه حسين / حديث الأربعاء / ط ١٠ / دار المعارف / ٣/ ٦٥ - ٦٦ .



المحبين وأحزانهم وبكائهم ودموعهم وشواهدِ ذلك من الشعر العربى كما هو واضح من العنوان ، وليس فيه بوجه عام ما يمكن أن يغرى بالإثم أو الفتنة . وقد ردّ زكى مبارك على النقد الذى وُجِّه إلى كتابه فقال ضمن ما قاله : « يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا فى وجوههم وعَمُوا عن صنع الله الذى أتقن كل شيء ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن أجاريهم فى عمايتهم وأن أسايرهم فى جهالتهم فلا أكتب فى غير ما يروقهم من ذم الدنيا والتبرم بالوجود ! ... يقولون إن «مدامع العشاق» التى أنشرها فى جريدة « الصباح » مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال وما له من الأثر فى تهذيب النفوس وتثقيف العقول ، ويهددون ويُوعِدون بالويل والثبور إذا أنا مضيت فى هذا البحث الشائق الطريف ! فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون ؟ »[١]. وليس لى من تعليق هنا إلا على قوله فى وصف بعض منتقديه إنهم « جماعة ممن أظلمت الدنيا فى وجوههم وعَمُوا عن صنع الله » الذى أظن أنه يقصد به طه حسين بالذات . فإن كان هذا الظن صحيحًا فهو مما لم يكن يصح أن يقوله ، إذ ما ذنب طه حسين فى أن الله قد ابتلاه بكف البصر ؟ الحقيقة أن هذا كلامٌ مؤذٍ ، وإن ساقه الدكتور مبارك بحيث يحتمل معنيين : المعنى الحقيقى الذى وضّحْتُه هنا ، والمعنى المجازى المقصود به عمى البصيرة وجمود الذوق والعاطفة . وقد رأينا كيف نفى بعد ذلك عن د. طه أنه كان كفيفا ، يقصد أنه كان ذا

(١) مدامع العشاق / ١٢ - ١٣ .

بصيرة ممتازة وأنه كان يتصرف فى سلوكه اليومى تصرف المبصرين وأنه هو نفسه قد تعلم منه كيف يحلق ذقنه . ومن طريف الأمر أيضًا أن طه حسين ، الذى كتب عن « مدامع العشاق » ما كتب ، هو ذاته الذى انتُقد انتقادا عنيفا لما كان يترجمه من المسرحيات الفرنسية مما عدَّه منتقدوه مغريا بالإثم والفجور داعيا إلى الانحراف .

لكن الذى يميز كتابات زكى مبارك حقًا أنه كثير الكلام عن الجمال والغيد الحسان دائم التغزل فيهن . وله أكثر من كتاب يحكى فيه مغامراتٍ له عاطفية لا ندرى مدى ما فيها من صدقٍ أو خيال ، وفيها رسائل غزلية كتبها إلى حبائب حقيقيات أو متوهَّمات . ويأتى على رأس هذه الكتب كتابُ « ليلى المريضة فى العراق » وكتاب « مجنون سعاد » الذى جُمِعَت فيه بعد وفاته الرسائل الغرامية التى كان يكتبها باسم « الدكتور بديع الزمان » فى صحيفة « الصباح » لمن سمَّاها «سعاد» .

وهو ، فى هذين الكتابين ، يصوِّر نفسه عاشقًا مُدْنَفا غير متحرّج من التهكم بنفسه أو حتى شَتْمها وتوجيه قارص القول إلى حبيبته واتهامها بالسخف والغباء وقلة العقل . ونراه فى أثناء ذلك يحكى من المواقف التى وقعت له مع حبيبته ما لا يُتَوَقَّع أن يرويه رجل متزوج وله أولاد ، وفوق ذلك أديب وأستاذ مشهور : « وأنت أيها السيدة التى اسمها جميلة والتى زعمتْ أننى فتى جميل ، اسمعى : ليس يهمنى بالدرجة الأولى ، على حد تعبيركم فى بغداد ، أن تغسلى ثيابى وأن



تحضرى لى مائدة فخمة فى كل أسبوعين يا بخيلة ، وإنما يهمنى أن تقودى وصيفة ليْلَى إلى منزلى ، إلى غرفة الاستقبال يا لئيمة لا غرفة السرير . فإن عند تلك الفتاة أسرارا تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة فى العراق »[1] . «جلست أصطبح فى قهوة الدوم فى باريس ، فرأيت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلا فانيًا ، فأخذت أداعبها بنظراتي. وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه إشارات وخطابات وبرقيات إلى من يشاء ، وكانت الفتاة تفهم عنى فتعبس تارة وتبتسم تارة وفقا لسياق الحديث . ورآها ذلك الشيخ موزّعة بين الابتسام والعبوس فسألها فلم تنكر ، فأشار إليَّ أن أقترب فاقتربت ، فقال بلهجة صارمة : ماذا تريد ؟ ... فجمعت قواى وقلت : سيدى ، أنا شاب من الشعراء . أنا من سلالة العباس بن الأحنف ... فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إنْ سَمَحَ سيدى ! فقال: Mais vous êtes mal placé[2] ، ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتى ركبة الفتاة . رباه ، متى تعود أيامى ؟ »[3] .

« - تحبنى ؟[4]

- أبغضك أشد البغض . أتذكرين ما وقع منك منذ أيام ؟

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٢٥ .

(٢) أى أن جلوسك بعيدا عن الفتاة لا يسمح لك بالاستمتاع برؤيتها وسماع صوتها كما تحب . فاقترب .

(٣) ليلى المريضة فى العراق / ٨٠ - ٨١ .

(٤) الحوار فى هذه القطعة بين ليلى وبينه .

ـ وما الذى كان وقع ؟

ـ دخلتُ عليك على حين غفلة وأنتِ فى شعارٍ رقيقٍ يفصح عن تقاسيم جسمك الجميل فنَفَرْتِ كالظبية المذعورة ولبست العباءة يا لئيمة ... فما كان ضَرَّكِ يا لئيمة لو بقيتِ أمام عينى لحظة أو لحظتين فى ذلك الشعار الرقيق ؟

ـ أما آن أن تعقل يا فاجر ؟

ـ أنت الفاجرة »[1].

« ـ وما الذى أنكرتَ عليَّ حتى تتهمنى بالقساوة ؟

ـ يسوؤنى ألا أظفر منكِ بما يظفر به الكلاب من ساداتهم ، فالكلب يعبّر عن عواطفه باللحس والعض .

ـ تريد أن تلحسنى وتعضّنى ؟

ـ أريد أن ألتهمكِ مرة واحدة ليصير كيانك كله نقطة من دمى .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم أصير أشعر الشعراء .

ـ كن إن شئتَ أشعر الشعراء »[2].

« ـ الامتثال هو فى جوهره أدب رائع ، ولكنك أحمق وجهول .

ـ أنت الجاهلة ، وأنت الحمقاء »[3].

---

(١) المرجع السابق / ٢٢٦ .

(٢) السابق / ٢٢٧ .

(٣) السابق / ٢٢٨ .



« كان فى نيتى أن أقترن بالفتاة الملثوغة الراء ، ولكنى خَشِيتُ أن تموت زوجتى مقتولة بالغيرة ، فهل يكتب الله لأحد أبنائى أن يتشرف بمصاهرة العراق ؟ »[1]، « إلى صدرى يا سمكة شط العرب . إلى صدرى يا حلوة ، يا جميلة ، يا فتّانة ، يا ظلوم . إلى صدرى بمصر الجديدة فى ليالى السِّرار . إلى صدرى ، إلى صدرى ، إلى صدري »[2].

« المرأة مخلوق جميل ، ولكنه سخيف لأنها تجهل ما فُطِرَتْ عليه من الضعف ، وهى تسيطر ولا تستطيل إلا على كرام الرجال ... غضبة الله على جميع بنات حواء »[3]، « المرأة تملك أصول الشهوات ، وهى باب الدمار والخذلان ، وما أطاع رجل امرأته إلا ذلّ وهان ... المرأة هى الجحيم الذى نتمرّن به على الإقامة فى سقر . هى البلاء الذى يصبه الله على رؤوس العباد . هى الشقاء المعجَّل والكرب الذى يسبق الموت ... زادها الله ذلة إلى ذلة ، وضعفا إلى ضعف »[4]، «بلائى فى دنياى أعظم بلاء ، لأنى متزوج وعاشق . أنا أرى المرأة فى البيت وفى خارج البيت . أراها حيثما توجهتُ لأن الله كتب أن أكون من الأشقياء . إذا دق التليفون فى المنزل سمعته زوجتى لأن له وصلة تُسْمِع مَنْ فى الطبقة الأولى ومَنْ فى الطبقة الثانية ، وزوجتى تظن أن جميع المحادثات

---

(١) السابق / ٣٦٦ .

(٢) السابق / ٣٧٠ .

(٣) السابق / ٣٩٠ .

(٤) السابق / ٣٩٠ ـ ٣٩٢ .

التليفونية آتية من سعير الوجد فى الزمالك وحلوان ، وقد افتضحت بهواى فى الزمالك وهواى فى حلوان . وإذا ذهبتُ إلى باريس فهى تظن أنى ماضٍ إلى مخادنة مرجريت . وإذا مضيتُ إلى بغداد فهى تظن أنى ماضٍ إلى مغازلة ظمياء . وإذا تقلّبت من مدينة إلى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتنى على ميعاد مع حِسَان الإسكندرية أو مِلاح أسيوط ... وصاحبة الضحكة الرنانة لا ترحمنى ، فهى تضحك فى التليفون ضحكات أثيمة توقظ الأموات. وقد نبهتُها إلى خطر هذا الصنيع فلم تعقل ولم تنزجر ... لعنة الله على جميع بنات حواء ، وإن كنّ فى صباحة ليلى وحلاوة ظمياء وملاحة سعاد »[1].

« توكّلى على الهوى وانطقى كلمة الحب ، فقد كان مجلسنا بنادى القلم المصرى مجلسا مكشوفا ، وأدباء القاهرة لئام لا تَخْفَى عليهم حركات الأرجل ولا غمزات العيون »[2]، « كنت فى جميع الأندية أعلن إعجابى بما تنشرين من القصائد والأقاصيص ، واليوم لا أراك كاتبة ولا شاعرة ، وإنما أراك فتاة غبية لا تصلح لشيء »[3]، « أحب أن أعرف من أنت ، فبفضلك استطال همى وبلائى . أنت سخيفة ولا ريب . أنت تحبين الاستطالة على أترابك فتقولى إنك معشوقة بديع الزمان ، فهل تظنين أنى لوحة إعلانات يا أسخف من أنجبت أسيوط؟ »[4]، « محبوبتى

(١) السابق / ٣٩٢ - ٣٩٣ .
(٢) مجنون سعاد / ٢٦
(٣) المرجع السابق / ٢٩ .
(٤) السابق / ٥٧ .



الغالية ، هل تذكرين أنى تحدثت إليك فى الرسالة الماضية عن قوامك الفينان ؟ لقد نسيت أن أقول إن لك مع ذلك شطحات روحانية تشبه شطحات إفروديت . ومن هى إفروديت ؟ أنت أجهل من أن أتحدث إليك عن هذه الدقائق الذوقية »[1]، « سعاد ، ما أعتقد أن الله خلق روحًا ألأم من روحك ، أو قلبا أظلم من قلبك ، وما يخطر فى البال أن الدنيا شهدتْ إنسانة غافلة قبل أن يعرف أديمُ الأرض أقدامك الخفيفة التى تشبه أقدام الظبى الرعديد . أنت يا سعاد غبية بليدة ، وأنا أبْغِض الأغبياء البلداء . فما الذى يجذبنى إليك وقد رأيتك مثلا فى بلادة الطبع وخمود الروح ؟ ... ولو كان هواى موجها إلى صخرة لذابت من نار الوجد أو ماء الدموع . فمن أنت بين الحجارة السُّود يا ألأم مخلوق بين ذرية آدم وحواء ؟ »[2].

وأديبنا ، كما قلتُ ، دائم التغنى بالهوى والجمال بل دائم التسبيح باسمه . إنه ، عنده ، إله يُعْبَد ويقدَّس ويُؤْمَن به ويُقْسَم باسمه ويُصلَّى له ويُتَّقَى سخطه ، وله شريعة تُلْتَزَم . وزكى مبارك يستخدم هذه الألفاظ بالفعل ويكررها عند حديثه عن الجمال : « أخْلِقْ بهذه الأبيات ( أبيات من قصيدة « مُضْناك جفاه مرقده » لشوقى ) أن تكون صلاة للحسن إن قضى الله أن نصلّيَ له كما يصلّى فريق للشمس عند الشروق . والهوى،

(١) السابق / ٦٣ .
(٢) السابق / ٩١ .

كما قيل ، إله معبود »[1] ، « والحسن منحة إلهية يزفها الله إلى من يشاء . وهو خليق بأن يصنع ما يصنع ، فيُعزّ ويذلّ ، ويرفع ويضع ، ويُكْرِم ويهين »[2] ، « عرفت ما لم يعرفوا من أفنان الجمال فى هذه الدنيا البديعة ... فعدتُ خليقا بحمد الحسن والتقديس له كلما أمعنوا هم فى الجحود »[3] ، « وقد يتقرب بعض الناس إلى مثل الشريف الرضى بتقبيل يمناه فيودّ هذا لو قبّل شفتيه لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالعظمة وقضى عليه بتقديس الجمال »[4] ، « يقول العرب : « الهوى إله معبود » ، وإنهم لصادقون . غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الإله ليس برحمن ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار ... والذين يختلفون فى النظرة البريئة : أحرام هى أم حلال لا يعقلون كيف يكون الهوى إلها ، وكيف يكون له ملائكة مقربون من الشعور والعيون والخدود والثغور والقدود والصدور . وهم إن عقلوا هذه الألوهية فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتّاب الحب أنبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم ماجن خليع . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ »[5] ، « كان الجمال ، كما فهمتُه فى ذلك الحين (أى عند تأليفه « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ) ، محرابًا تخشع فى مصلاّه القلوب »[6] ، « ولو شاء الحسن لبطش بمن لا يؤمن بأن له وحده

---

(١) الموازنة بين الشعراء / ١١٩ .

(٢) المرجع السابق / ٥٣٩ .

(٣) مدامع العشاق / ١٢ .

(٤) المرجع السابق / ٩٦ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ١٥ .



العزة والجلال ، وصَعِقَ من لا يسبّحون له فى الغدو والآصال »[1] ، «الجمال من النفحات السماوية التى لا ينبغى أن يشرك الشاعر بها أحداً من الناس »[2] ، « الجمال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح . ولَئِنِ اغتُفِر للشعراء الأولين أن يتناسَوْا عظمة الجمال ويتبذلوه فى غير إشفاق فإنه لا يُغْتَفَر لشوقى ، وقد درس ميسيه ولامرتين وقرلين ، ألا يتّقى الله فى لغته ويرحمها من ذلك الجدب الموحش الذى ابتُلِيَتْ به يوم كان الشعراء يتورعون فى جبن وغفلة وجمود عن التسبيح بحمد الجمال»[3] ، « فى سبيل الجمال والحب مصرعك أيها البلبل الذى قتلته أشواك الأزاهير »[4] ، « أولئك (أى جميل وكثيّر وابن الأحنف) رجال آمنوا بالحب فعظّموه ومجّدوه واستهانوا من أجله بما يقاسى عبّاد الجمال من مصاعب وأهوال »[5] ، « وربما جاز لى أن أصرّح بأنه (أى على العشماوى بك ، أحد رجالات وزارة المعارف آنذاك ) كان من عبيد الجمال فى صباه »[6] ، « قرأتُ « شريعة الحب » فقرة فقرة ،

---

(١) المرجع السابق / ١٨ .

(٢) أحمد شوقى / ٨٠ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) المرجع السابق / ٢٩٧ . والبلبل المقصود هنا هو البلبل فى أغنية « بلبل حيران » ، التى يغنيها عبد الوهاب لأمير الشعراء .

(٥) العشاق الثلاثة / ٥ .

(٦) ليلى المريضة فى العراق / ٨٥ .

وهى مسطورة على قبر الحلاج »[١]، « لقد جعلتُ الحديث فى الحب شريعة من الشرائع »[٢]، « كنتُ أحب أن أقيم فى دنيا الشرق هيكلا يُعْبَد فيه الجمال »[٣]، « أُقْسِم بالله وبالحب ما خططتُ هذه العبارة إلا وأنا أقاوم طغيان المدامع »[٤]، « آمنتُ بالله والحبّ »[٥]، « كان ذلك ، ولا رادّ لقضاء الهوي، والهوى إله معبود »[٦]، « من أنت يا سعاد ؟ من أنت ؟ تعالَيْ إليّ . أنا أحبكِ وأشتهيكِ . أتغضبين من كلمة الاشتهاء؟ هى كلمة لا معنى لها فى ذهنى غير العبادة »[٧]، « أحبك يا سعاد ، وفيك أتقى الله وأتقى الحب »[٨]، « سأشقى بعد موتى بالغليل كما شقِيتُ فى حياتى بالغليل ، أنا العاشق الصادق الذى رأى الحب من أكرم شرائع الوجود »[٩]، « فيها ( أى فى الإسكندرية) وقعت أعظم فاجعة غرامية (يقصد قصة أنطونيو وكليوباترة ) ، وهى فاجعة صيّرت الحب شريعة من الشرائع »[١٠]، «فى شهر يونيه تقوم غمامة تحجب القمر فى

---

(١) المرجع السابق / ١٥٩ .

(٢) السابق / ٢٠٠ .

(٣) السابق / ٣٤٩ .

(٤) السابق / ٣٥٣ .

(٥) السابق / ٣٩٠ .

(٦) ألحان الخلود / ٣٠٢ .

(٧) مجنون سعاد / ٤٢ .

(٨) المرجع السابق / ٥٧ .

(٩) السابق / ٨٦ .

(١٠) الحديث ذو شجون / ١٢ .



لحظة لا تنتظر ظلال السحاب ، فنفهم أن للحب والشعر آلهةً كما تقول أساطير القدماء»[١]. هذا ، ولزكى مبارك قصائد تحمل عناوينها نفس المعانى ، وهى قصيدة « أديب يعبد الحسن » [٢]، وقصيدة « عبادة الجمال »[٣]، وقصيدة « الحُسْن أمْرٌ لديه الكاف والنون »[٤].

ولعلّ صراحة زكى مبارك لا تتجلى فى أبرز صورها كما تجلّت فى حديثه عن الخمر فى حياته : لقد ذكر كيف شربها لأول مرة ، والظروف التى شربها فيها آنئذ ، وعلى أى نحو كان يشربها بعد ذلك . كما أكّد أن شربها ليس دليلاً على العبقرية ، وذمَّها ذمًّا شديدا . ويحسّ القارئ أثناء ذلك كلّه أن ضمير زكى مبارك يلذعه من هذه الناحية لذعًا أليمًا ، بل هو نفسه يصرّح بذلك فى موضع من كتاباته على الأقل ... وهكذا . إن زكى مبارك لم يكن بطبيعة الحال الكاتب الوحيد الذى يشرب الخمر ، ولكنه بكل تأكيد الكاتب الوحيد الذى يصرّح بذلك ويلح فى الحديث عنه ويورد كثيرا من تفاصيله ، بل إنه ليذكر أسماء بعض معارفه من الأدباء والسياسيين ممن كانوا يشربونها غير واجدٍ فى ذلك أى شىء من الحرج

---

(١) المرجع السابق / ٤١٠ .

(٢) السابق / ١٧٣ .

(٣) السابق / ٢٥٢ .

(٤) زكى مبارك / ديوان « أحلام الحب » / دار الزهراء للنشر / ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م / ١٠٣ .

ولا واضعًا فى ذهنه أن هذا يسوء أولئك الزملاء والأصحاب مساءةً كبيرة. ويبدو أنه لـمَّا كان لا يجد فى شربه الخمر شيئا ينبغى ستره فكذلك لم يكن يرى فى كلامه عن شرب أولئك لها شيئًا يجب طيُّه ، أو ربما كان يقول لنفسه: « إننى لا أبالى أن أعرِّى هذا الجانب من حياتى ، أفأُخْفِى نظيره فى حياة الآخرين ؟ إنهم بيقين ليسوا أعزَّ علىَّ من نفسى »، أو لعل الأمر لم يكن أكثر من عبث منه بهم .

ومع ذلك فهو حريص على أن يذكر طهارة البيت الذى ينتمى إليه، ونظافة المعهد الذى تعلم فيه ، وتقوى الوالد الذى أنجبه : « أنا نشأت نشأة صالحة فى بيت يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، وكان أبى رحمه الله من أصحاب الأذواق ، ولكنه لم يشرب الخمر أبدا ... وفى المدة التى أقمتُها بالأزهر الشريف لم أسمع أن من العلماء من يشرب الإثم ... ومنزلنا فى سنتريس لم تدخل فيه الخمر لأن أبى رحمه الله لم يكن يتصور أن ذلك من الممكنات » . وهو لذلك يعلن أنه سيصون ذلك البيت عن أن تُشْرَب فيه الخمر : « وسيصان منزلنا فى سنتريس عن الخمر تكريمًا لذلك الروح النبيل . ولن أنسى أنى دعوت جماعة من كبار الموظفين لتناول العشاء هناك ، وكان بعضهم من المدمنين ، فلم أقدم لهم غير الماء القراح مراعاةً لخاطر أبى طيب الله ثراه ونفعنى بدعواته الصالحات ... وقد فكرت مرة فى إقامة منزل على شاطئ النيل فى سنتريس لأدعو إليه أصدقائى حين أشاء ، ثم خطر بالبال أن ذلك قد يساعد على قضاء بعض الليالى



الساهرات ، فأهملت المشروع تكريمًا للروح النبيل ، روح الأب العزيز الذى لم يلوث فاه بلعاب الخندريس ، وهو أخطر من لعاب الأفاعى والصِّلال » . بل إنه ليقول فى ثنايا ذلك إن « هذه النشأة الطيبة كان لها تأثير فيما حدَثتُ إليه ، فأنا أشعر بأنى سفيه مجرم حين أشرب الخمر ، ومن أجل ذلك تكثر وساوسى الخلقية فيما يتصل بهذا المعنى » . ولكنه يعقب على كل ذلك بقوله : «ولكن الأدب الذى تلقيته عن أبى لم يعصمنى كل العصمة من الزيغ . وكيف أنجو وأنا أعيش فى القاهرة ، وفى القرن العشرين ؟ »[1]. وهى فى الحقيقة حجة غريبة ، فالأغلبية الساحقة من أبناء القاهرة فى القرن العشرين لا يعرفون الخمر رغم أن كثيراً منهم لم تُتَحْ له مثل تلك النشأة الطيبة التى نشأها زكى مبارك .

على أية حال تعلم كاتبنا ، غفر الله له ، شرب الخمر بل أدمنها . وهو يتحدث عن تجربته مع الخمر أول مرة فيقول : « شربتُ الخمر أول مرة بعد أن اجتزتُ امتحان الليسانس فى العلوم الفلسفية والأدبية سنة ١٩٢١. شربتها مع صديق سخيف لا يستحق أن أَغْضِب من أجله صاحب العزة والجبروت . شربتها مع مخلوق رقيع يتوهم أن شرب الخمر من علامات المدنية . وأعترف بأنى كنتُ أعرق منه فى الرقاعة والسخف ، فقد توهمت أنى محتاج إلى خلع الصبغة الأزهرية لأساير التمدن الحديث. والأزهرى بين حالين اثنين : الفجور أو العفاف . ولا يوجد على ظهر

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٣٦٢ - ٣٦٣ .

الأرض أسخف من الأزهرى حين يتظرف ويختال »[١].

وحدث مرة ، وهو بباريس ، أن زميلة له بَضَّة الجسد استسلفته كراسة المحاضرات ، فأعطاها عنوان مسكنه لتمر عليه فتأخذ الكراسة المنشودة . « وما كاد يحين الموعد حتى كانت المائدة مجهزة بأطيب ما تملك فرنسا من ألوان الشراب » ، وإن كانت الفتاة قد خذلته فلم تحضر ، « عليها وعلى أمها اللعنات »[٢]، وهذه عبارته هو لا عبارتى أنا ، إذ لم تُسِئْ إليَّ هذه الفتاة المسكينة بشيء !

ومن المناسبات المهمة التى شرب فيها كاتبنا الخمر حصولُه على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون ، فقد قدَّمت له زوجة أحد أساتذته من المستشرقين كأسًا فاعتذر بادئ الأمر ، لكنها ما زالت به حتى شربها : «ففى سنة ١٩٣١ أقام لى فريق من أساتذة السوربون حفلة تكريم فى بهو السوربون بمناسبة نجاحى فى امتحان الدكتوراه فى الآداب . وكان من حظى أن أتناول كأسًا من الخمر قدَّمتها إليَّ حرم المسيو ديمومبين . وحاولت أن أرفض تلك الكأس ، ولكن تلك السيدة قالت : أنت المنتصر ، ومن حقّ المنتصر أن يشرب أول كأس . أسعد الله أوقاتك يا مدام ديمومبين ! »[٣].

---

(١) المرجع السابق / ٢٦٣ .

(٢) السابق / ٥٤ .

(٣) السابق / ٢٥٦ . وبالمناسبة فبعد انتهائى من المناقشة فى امتحان الدكتوراه من جامعة أكسفورد نزلت من الطابق الثانى ، فى مركز دراسات الشرق الأوسط بالجامعة، حيث جرت المناقشة ، فوجدت الدكتور مصطفى بدوى ينتظر النتيجة ، =



ومما حكاه عن نفسه فى العراق أنه أصيب فى مفاصله بألم من جراء البرد فقصد مقصفا مع فتاة عراقية وهناك هتف بالساقى :

« - يا غلام ، هات كأسًا من الكونياك .

- ليس عندنا كونياك .

- وماذا عندَك ؟

- عندى ويسكى .

- هات ويسكى »

ثم يقول عقيب ذلك : « وما كدت آخذ من الويسكى رشفتين حتى شعرت بأن مفاصلى لا تزال سليمة وأن الذى وقع لم يكن إلا صدمة برد فحمدت الله على نعمة السلامة ، وعرفتُ أن لى بقية من العافية أرشف بها صهباء الرضاب »[١].

كذلك ذكر أنه قد جرَّب ذات مرة المستقطر من التمر ، وهو العَرَق، فوجده سيئ العواقب[٢]. وفى ديوان « ألحان الخلود » يحدثنا عن شربه الخمر فى مقهى من المقاهى تقصده المومسات ، وكان بينه وبين أحد

---

= وكان هو المشرف عليّ. وعندما أخبره الأستاذان المتحنان أنهما راضيان عن عملى وسيوصيان بمنحى درجة الدكتورية قدَّم الرجل إليَّ مشكوراً كأسًا أو كأسين من عصير البرتقال ، وشرب هو كأسًا من الخمر .

(١) السابق / ٣١١ .

(٢) السابق / ٢٥٧ .

الشبان المعجبين بأدبه وشعره ميعاد هناك وقد دار الحوار التالى بينه وبين ذلك الشاب : « قال رشدى : وتشرب الخمر مع هؤلاء المومسات ؟ فقلت: بهذا أكفّر عن ذنوبى يوم شربتُ الخمر مع بعض الوزراء . والحسنات يذهبن السيئات » . وقد حاول رشدى أن يقنع الدكتور بالنهوض من ذلك المكان فصرخ قائلاً : « قم بنا » ، فأجابه الدكتور زكى بقوله : « إن لى حديثًا مع تلك المرأة ، فاصبر لحظات » . ثم يختم كلامه بالعبارة الآتية : « وأشرت إلى المرأة ( يقصد إحدى المومسات ) فحضرت لتشرب ولتقصّ أحاديث صحيحة عن رجل يزعم أنه من قادة الإصلاح الاجتماعى »[١].

ومع ذلك فهناك مواقف ذكر أنه قد رفض فيها شرب الخمر رغم أن من كان معه قد شربوها . يقول عن قهوة باڤاريا ، وكانت فى شارع فؤاد فى الثلاثينات ، وكان يقابل فيها الدكتور منصور فهمى حين يطيب لهذا الأستاذ أن يأخذ رأيه فى بعض الأمور : « كنت أستحيي من شرب الخمر فى حضرة الدكتور منصور . كان هو يشربُ الخمر وأنا الماء . وقد عزم مرة ومرتين أن أشرب معه فرفضت بحجة أنه لا يجوز للتلميذ أن ينادم

(١) ألحان الخلود / ط١ / دار الكتاب العربى / القاهرة / ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م / ٨٠ . وقد حذفت ابنته كريمة من الطبعة الثانية للديوان عبارة رشدى لوالدها : « وتشرب الخمر مع هؤلاء المومسات ؟ » وردّ والدها عليه (انظر ص٦٤ من هذه الطبعة الأخيرة) .



الأستاذ . ولست تلميذ الدكتور منصور ، وإنما أنا ولده الروحى »[١].

ومن هذه المواقف أيضًا إحدى الحفلات الغنائية التى رأى فيها تلاميذه بالجامعة وأمام كل منهم زجاجة من الويسكى ، والتى حضرها أمير الشعراء « نشوانَ » كما قال ، وسكر فيها الموسيقى صالح عبد الحيّ سُكْرًا بيّنا : « أذكر أنى رأيتُ فى الحفلة جماعة من تلاميذى بالجامعة المصرية وأمام كل تلميذ زجاجة من الويسكى فتقززتُ مما رأيت وامتنعت عن الشراب . وكان يجب أن يغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب فحضر شوقى ليسمع . حضر وهو نشوان . وكان فى الحفلة المغنى صالح عبد الحيّ وقد شرب حتى سكر فكان يصيح : غنّى يا محمد غنّى . غنّى يا ولد يا حلو يا جميل ! »[٢].

(١) أحمد شوقى / ٣١٣ . وقد ذكر د. مبارك ، فى موضع آخر من كتاباته ، الدكتور فهمى بين من لا يشربون الخمر ! ( انظر « ليلى المريضة فى العراق » / ٢٦٤ ) . فأى الكلامين نصدّق ؟ أم ترى تاب الدكتور منصور فهمى عن شربها بعد ذلك ؟ أم ماذا ؟ كذلك فقد غمز حافظًا الشاعر غمزة من هذه الناحية أثناء تعليقه على بيت شعرى له (انظر « الموازنة بين الشعراء » / ٢٣ ) . كما ذكر أن حمد الباسل باشا وعلى الشمسى باشا كانا يشربان (انظر « أحمد شوقى »/٣١٣ ) . بل إنه فسَّر تحليل النبيذ فى المذهب الحنفى بأنه إنما يعبّر عن الحالة النفسية لأبى حنيفة ، « فقد كان عرف الشراب فى صباه ، وكانت له مجالس حفظها عليه حماد عجرد » . ثم ساق أبياتا لحماد يذكّره فيها بمجالسهما الشرابية ( انظر « الأسمار والأحاديث » / ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ) ، وإن كان قد عاد عن هذه اللمزة مؤكّدا أن أبا حنيفة كان بعيداً عن الخمر والفجور وأن الشعراء الذين عرفوه فى صباه قد تجنوا عليه ( ليلى المريضة فى العراق / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ) .

(٢) أحمد شوقى / ٣١٤ .

وفى مرة من المرات كان يراقب الامتحانات فى معهد الليسيه هو وزميل نصرانى ، فأرسلت الإدارة إليهما زجاجتين من الجعّة ليطفئا بهما نار الظمأ ، لكن زكى مبارك رأى من عدم اللياقة أن يشرب مع زميله أمام التلاميذ الممتحنين وفيهم مسلمون[1]. ليس ذلك فقط ، بل إنه ليعزو كل ما فى حياته العلمية من نتاج جادّ ونجاح وتوفيق إلى توقفه حينذاك عن الشرب . وقد تمنى على الله لو كان قد صانه من جميع الشوائب حتى تكون مؤلفاته أعظم مما هي: « ولو أن الله عز شأنه كان تداركنى برعايته السامية فحفظ حياتى من جميع الشوائب لكان من الممكن أن تصل مؤلفاتى إلى أعظم مما وصلتْ إليه . ودليل ذلك أنى لم أذق قطرة من الخمر فى الأوقات التى ألفت فيها كتاب « النثر الفنى » وكتاب « التصوف الإسلامى » بغض النظر عن العبث الذى كنت أقترفه فى لحظات الفراغ ... وقد ألفت كتاب « الأخلاق عند الغزالى » فى زمن لا أعرف فيه من المنبهات غير الشاى ، ومع ذلك ظل هذا الكتاب أعظم ما ألفت فى مطلع شبابي»[2]. ثم يمضى فيذكر طائفة من أساتذته وزملائه ممن بلغوا مكانة رفيعة فى عالم الفكر مع تجنب الخمر والتزام التصوّن والعفاف ، منهم مصطفى عبد الرازق ومحمد جاد المولى وعبد المجيد اللبان ومنصور فهمى وأحمد أمين . كما يتساءل على سبيل النفى قائلاً : « هل كان الغزالى يشرب الخمر وهو يؤلف كتاب « إحياء علوم

(١) انظر « ليلى المريضة فى العراق » / ٢٥٦ .
(٢) المرجع السابق / ٢٦٤ .



الدين »؟ هيهات! هيهات ! » . وكذلك يذكر النبى عليه الصلاة والسلام وعمر وعليا رضى الله عنهما فى هذا السياق بوصفهم من أفذاذ البشرية ونوادر الرجال ، ومع ذلك لم يكونوا يشربون الخمر[1].

وهو يرى أن ما تميّزت به مصر من « الصحو » والحرمان من جيد الخمر راجع إلى أنها « كانت القطر الإسلامى الوحيد الذى أنتج أعظم المؤلفات فى الأدب واللغة والتاريخ والتشريع ... أما الأقطار العربية التى عرفت الخمر فكانت لها ميادين غير التأليف . كان لها الشعر والخيال على نحو ما نرى فى الأندلس والشام والعراق »[2]، ومن هنا نراه يهتف بأن « الخمر أم الخبائث ، ولا يدعو إليها إلا رجل مجنون»[3]، كما يقول فى ألم : « أنا أسامر الشاربين لأدرس النفس الإنسانية ، ثم تكون النتيجة أن أفتضح مع الشاربين . كنت أشرب لأدرس الناس فصرت أشرب لأدرس نفس . فمتى أخْلُص من شر نفسى ؟ ومتى أخلص من شر الناس ؟ »[4].

وكما حذّر من الخمر حذّر من الحشيش : « أنا لا أعرف ما هو الحشيش ، ولكنى حضرت سهرات عند أصدقاءَ مدمنين على الحشيش. ويظهر أنه كيف من أعنف الكيوف ، ولكنه يمضى بأصحابه إلى أعمق

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) الموازنة بين الشعراء / ٤٠٠ ـ ٤٠١ .
(٣) ليلى المريضة فى العراق / ٢٥٤ .
(٤) المرجع السابق / ٢٥٥ .

دركات الانحطاط : فلان المحامى كان يمكن أن يكون شيئا مذكورا ، ولكن الحشيش حطّه فانحط ، وفلان المحرر بالجريدة الفلانية جنى عليه الحشيش فنقلته الجريدة من التحرير إلى التصحيح . وأنا أوصى بالاحتراس من هذه الآفة المهلكة ، وأوصى بتشديد الرقابة فى الأرياف ، فقد سمعت أن الحشيش لا تخلو منه قرية ، وهذا نذير بأوخم العواقب »[١] .

وإن الإنسان ليتساءل : لماذا يا ترى لم ينتفع هذا العبقرى بتلك النصائح الذهبية ؟ لا أريد أن ألبس ثياب الواعظين ، بل إنى على العكس من ذلك أرثى للرجل وأدعو له بالمغفرة والرحمة . والإنسان كله عيوب وأخطاء ، وما نحن إلا بشر من البشر : فينا ضعفهم ، ويمكن أن نتزلق فى أى وقت لولا لطف الله وستره ، ومع ذلك فواجبنا كباحثين أن نسجل أن الخمر كانت وراء انحدار ذلك العبقرى ونهايته الفاجعة ، إذ سقط وهو سائر فى الشارع فاصطدم مُؤْخِرُ رأسه بحافة الطريق وانكسر عظم جمجمته ومات فى المستشفى عليه رحمة الله[٢] . وهذا يذكرنى بما قرأته فى رواية « نهاية السكّير » للروائى الألمانى هانس فالادا من انهيار أحد رجال الأعمال الكبار بسبب إدمانه الخمر ، إذ جلبت عليه الإفلاس والخراب الأسرى وضاع ضياعًا تامًا .

---

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٣٦ .

(٢) انظر ما قالته ابنته عن ذلك فى « سيرة حياة الدكتورَ زكى مبارك »/ ٢٤١ / هامش ٣.



وأخيراً نسوق هذه الكلمات التى أفضى بها الدكتور زكى مبارك لمحمد حمدى قبل وفاته بأربعة أيام قبل أن يسقط فى الشارع سقطته التى قضت عليه ، وهى كلمات تبعث على الحزن اللذّاع لهذا المصير الفاجع لكاتب عبقرى فى حجم زكى مبارك رحمه الله . قال : « إننى الآن أدفع ثمن العلم الذى حصلت عليه أيها الزميل . لقد استهلكتْ إنشاءاتى الكميةَ الوزنيةَ للعقل الذى ساعدنى على أن أجعل من نفسى مجموعة دكاترة فى مختلف الفنون الأدبية . أجل ، استهلكت دراساتى ومؤلفاتى ما كان لديّ من ذلك قبل الأوان . وأنا الآن بَرِمٌ ضيق الصدر لأنى أريد مواصلة البحث ، ولكن لا أجد لديّ قدرة على ذلك . ماذا يكون الكاتب أو المفكر إذا كفّ عن الإنتاج ؟ هل يكون شيئا أكثر من ذبالة إنسان ؟ « عقب » أديب ؟ وهل أرضى بمثل هذه المكانة ؟ إذن لِيكُنْ لى فى الخمر مخبأ وملاذ أقضى فيه ما بقى من ثمالة العمر دافعًا ثمن العلم الذى حصّلتُه ؟ » . وكان زكى مبارك يشرب وقتها الخمر على قارعة الطريق أمام الغادين والرائحين [١] .

---

(١) محمد حمدى / ثمن العلِم / جريدة « النداء » / ٢٩ يناير ١٩٥٢م .

## الخصائص اللفظية

وبعد أن انتهينا من إبراز الخصائص النفسية لأسلوب زكى مبا
نتحول إلى رصد الخصائص اللفظية لذلك الأسلوب ، وسوف نرى
عدداً غير قليل من هذه السمات هو مظهرٌ أو انعكاس لهذه الخصيصة
تلك من الخصائص النفسية التى فرغنا من الكلام عنها لتوًّا .

ومن هذه السمات اللفظية أنه يكثر من قولة : « أنا » ، وكثير م
الشواهد فى هذا المجال يومئ بقوةٍ إلى أن هذه الخصيصة هى أثر من آث
ازدهائه بنفسه ومواهبه ومؤلفاته ، فما أكثر ما نقرأ عنده : « أ
أقترح »، « أنا أرى » ، « أنا أعتقد » ، « أنا أوصى » ، أنا أردتُ
وما أشبه : « وأنا لا أشك فى نزاهة الغزالى وبُعْده من الكذب عل
رسول الله »[1]، « وأنا أرجح الرأى الأخير لأن ... »[2]، « وأنا
أفهم ما هو هذا الكَسْب الذى يُقِرّه أهل السنّة ويتابعهم الغزالى ف
إقراره »[3]، «وأنا أستبيح هذا النحو من استغلال كتب الأدب
والتاريخ»[4]، « وأنا لا أتهمه بالاختراع ، ولكنه روى أحاديث قصير
تلوح عليها علامات الصنع »[5]، « أنا لا أنكر أن مصر ورثت ما ورثت

---

(١) الأخلاق عند الغزالى / ١١١ .
(٢) المرجع السابق / ١٣٧ .
(٣) السابق / ١٣٨ .
(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٢٩١ .
(٥) المرجع السابق / ١ / ٣١٣ .

من علوم اليونان ، ولكنى أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم »[١]، « أنا لا أنكر قيمة التراث الذى خلّفه اليونان القدماء ، ولكنى أرتاب فى أنه وصل إلى ألفاف العقلية المصرية »[٢]، « وأنا مع ذلك لا أنكر أن الإسلام فى مصر له خصائص غير الخصائص التى يجدها الباحث حين يدرس الإسلام فى الحجاز أو فى الشام أو فى المغرب أو فى العراق »[٣]، « أنا أعتقد أن التصرف من فن إلى فن يزيد فى المرونة الشعرية ويروض الشاعر على مراودة عقائل المعانى »[٤]، « أنا أبدّد ما اتهمتُ به العباس حين قلت إن الهوى الواحد جنى عليه »[٥]، « أنا هنا فى مقام المؤرخ للأفكار الأدبية والأخلاقية »[٦]، « أنا أجدّ ، وعمر (عمر بن أبى ربيعة) كان يمزح »[٧]، « أنا كنت السبب فى هذه القطيعة الباغية ... أنا الذى أثَرْتُ ليلى ومهّدت لها السبيل إلى البغى والعدوان والعقوق »[٨]، « أنا مخلوق أرضى يتسامى إلى معشوقة سماوية ... أنا الرجل الذى تعرفين ... أنا غريب، يا ليلي، غريب »[٩]، « أنا فى هذه الأيام فريسة الكدح والتعب

---

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٦٩ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) السابق / ١٧١ .
(٤) العشاق الثلاثة / ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٥) المرجع السابق / ١٢٢ .
(٦) السابق / ١٢٤ .
(٧) ليلى المريضة فى العراق / ٩٩ .
(٨) المرجع السابق / ٢٦٢ .
(٩) السابق / ٢٦٥ .



والعناء . أنا أشغِّل ثلاث مطابع فى وقت واحد »[١]، « أنا أتلقى فى كل يوم مجموعة من الجرائد العراقية فأقضى فى تصفحها ساعة أو ساعتين »[٢]، « أنا أصررتُ على الاعتذار عن الرجوع إلى بغداد »[٣]، « أنا اليوم رجل نافع جداً »[٤]، « أنا اليوم على صلات وثيقة بأصحاب المدارس الفرنسية والأمريكية والإسرائيلية والأرمنية واليونانية ومن إليهمَ من الأجانب »[٥]، « أنا أعرف العواقب : ستُغلّف مؤلفاتى من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين ، وسوف يعلمون »[٦]، « أنا أملك أمرى فى الليلة الحاضرة ، فليس بينى وبين دار هواى غير خطوات »[٧]، « أنا أريد النص على أن الأدباء الذين ظهروا فى هذا العهد لم يكونوا لاعبين ولا مازحين ، وإنْ توهَّم من لا يفهم أن فى أدبهم ميلاً إلى اللعب والمزاح فى بعض الأحيان »[٨]، « أنا أنتظر من أحد الدارسين جوابا عن السؤال الأخير لأشير إلى اسمه فى مجلة « الرسالة » إشارة تزيده ثقة بما فُطِر عليه من الفهم والعقل »[٩]، « أنا أردتُ ما كان

---

(١) السابق / ٣٥٨ .
(٢) السابق / ٣٦٢ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) السابق / ٣٦٨ .
(٥) نفس المرجع والصفحة .
(٦) السابق / ٣٨٦ .
(٧) ملامح المجتمع العراقى / ١٩٤ .
(٨) زكى مبارك ناقدا / ٢٠ .
(٩) المرجع السابق / ٨٠ .

يسميه فى شبابه بالحقيقة العارية ، وهو أراد ما هدته إليه التجارب من مصانعة الناس والزمان »[١] ، « أنا أعرف أن الساعة الثامنة صباحًا والساعة السابعة مساءً موعدان لقدوم الجرائد والمجلات ، وأحِسّ لوعة الشوق إلى هاتين الساعتين لأنهما موعد اتصال الإسكندرية بالقاهرة »[٢]، « أنا أخاف على هذا الصديق أشد الخوف »[٣]، « وأنا فى بغداد اعتصرتُ فؤادى وأودعته تلك الرسائل »[٤]، « أنا فى هذه اللحظات أحيا حياة شقية سوداء لأن روحى يعيش بلا رفيق ولا أنيس »[٥]، « وأنا سائر فى طريق الوصول إلى تلك الغاية المشبوبة بأرواح الرجال »[٦]، « أنا أخشى أن تكونى مريضة يا سعاد »[٧]، « أنا مجنون بالعظمة قبل أن أكون مجنونا بالعشق »[٨]، « أنا مقبل على مكارهَ ومعاطبَ بسبب هواك يا سعاد ... أنا واثق بأن بلائى بهواك سيطول ، ولكنى مع ذلك واثق بأن ذلك البلاء هو سبيلى إلى الخلود ، وسيحفظ الدهر اسم الفتى الشهيد »[٩]، « أنا وحدى اكتويت بنيران

---

(١) السابق / ٥١ .

(٢) الحديث ذو شجون / ١٩ .

(٣) المرجع السابق / ١٦٥ .

(٤) مجنون ليلى / ٨ .

(٥) المرجع السابق / ٨٠ .

(٦) السابق / ٨٢ .

(٧) السابق / ٩٤ .

(٨) السابق / ١٠٦ .

(٩) السابق / ١١٠ .



الأحزان حين علمت أنك من المرض فى لأواء . أنا وحدى بكيت حين سمعت أن زهرة أسيوط قد يعتريها الذبول . أنا وحدى الذى توجعت حين عرفت أنك من الألم فى عناء »[١]، « أنا أملك السلوان عنكِ حين أريد »[٢]، « أنا أختم هذا الخطاب فى نهاية الساعة الأولى من بداية العام الثانى والأربعين »[٣]، « أنا أملك الاستغناء عنكم ، ولا تملكون الاستغناء عنى »[٤]، « أنا ثائر عليكم ، ثائر ، ثائر ... أنا تحررت من هواكم فى هذه الليلة ، تحررت ، تحررت »[٥]، « أنا أدعو إلى تعديل هذه الفقرة من لوائح الجامعة المصرية ، وأوصِى بجعل اللغة العربية لغة الرسائل العلمية والأدبية والتشريعية التى تقدَّم لنيل الدرجات الجامعية »[٦]، « وأنا أقترح أن يتصل المؤلفون بالقراء على نحو ما يتصل الأساتذة بالطلاب »[٧]، « وأنا أدعو إلى التفكير فى اختراع حروف جديدة مشكولة »[٨]، « أنا أقترح أن تؤلف فى وزارة المعارف لجنة خاصة بتشجيع التأليف »[٩]، « وأنا لا أدعوكم إلى تبديد قروش

---

(١) السابق / ١٤٠ .

(٢) السابق / ١٥٠ .

(٣) السابق / ١٥١ .

(٤) السابق / ١٦٩ .

(٥) السابق / ١٦٠ .

(٦) اللغة والدين والتقاليد / ٤٦ .

(٧) المرجع السابق / ٤٩ .

(٨) السابق / ٥٢ .

(٩) السابق / ٥٩ .

الموظفين ، وإنما أدعوكم إلى تجميل بيوتهم بنفائس المؤلفات »[١]، «وأنا أقترح إلغاء دروس تاريخ الأدب فى تلك المدارس »[٢]، « أنا أشتهى أن أومن ، ولكن الشوق يخمد فى قلبى كلما تذكرت أعمال المرائين »[٣]، «وأنا أوصى بالرجعة إلى ذلك التقليد الجميل »[٤]. « وأنا حزنت كثيرا فى حياتى فلم تكن لى أعياد »[٥]، «أنا أعرض هذا السؤال على القراء: الأحكام الأدبية من حقى أو من حق وكيل النيابة ؟»[٦]، « أنا أعترف بأنى مفتش من الجامعة المصرية ، وهو مَنْصِبٌ أخذته من الدرعميين بحق »[٧]، « أنا عرضت الفكرة على الأستاذين محمد فتحى وعلى خليل فرأيا الفكرة مبتكرة »[٨]، « أنا أُحْضِر لتلك العصافير فتافيت من بقايا طعامى »[٩]، « أنا غنيت القصيدة فى عهد الوزارة النقراشية الأولى»[١٠]، « أنا أذكرهم بكل خير، فقد سمعوا كلامى وانصرفوا من أمامى »[١١]، « وأنا ما هجوت أحدا بالمعنى الحرفى

(١) السابق / ٦٠ .
(٢) السابق / ٦١ .
(٣) السابق / ٨٤ .
(٤) السابق / ١١١ .
(٥) السابق ١٤٨ .
(٦) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٥٠ .
(٧) المرجع السابق / ١٦٥ .
(٨) السابق / ٢٣٠ .
(٩) ألحان الخلود / ٣٦ .
(١٠) المرجع السابق / ٧٥ .
(١١) السابق / ١٣٨ .



لكلمة هجاء ، ولكن النقد الأدبى يراه الناس من الهجاء بسبب فساد الفروق فى هذا الزمان»[١]، « أنا فى هذه الأيام مصاب بالأرق لأن أعصابى ضعفت من كثرة التفكير فى حالى»[٢]، « وأنا لاحظت مرات كثيرة أن محطة باب الحديد تضاء بالنور الأزرق»[٣]، « أنا أعتقد أن خدمة اللغة العربية أجمل ما يتقرب به المؤمن إلى الله »[٤]، « أنا فكرت فى القطيعة ألف مرة ، ولكنى لم أستطع تنفيذ ما فكرت فيه ، فقد قيدتنى عيونك »[٥]، « أنا بعد أيام سأراها فى الإسكندرية ، والحب صناعة من لا صناعة له ، وأنا بدون صناعة لأنى مفتش اللغة العربية بالمدارس الأجنبية »[٦].

وأحيانا ما يتحدث الدكاترة زكى مبارك عن نفسه بضمير الغائب أو باسم « زكى مبارك » أو « صاحب البدائع » أو « مَنْ دارُه سنتريس » وما إلى ذلك مما يوهم بأنه يتكلم عن شخص آخر . وأعتقد أن ذلك أيضًا مظهر من مظاهر زهوه بنفسه ، إذ إنه بهذا الأسلوب يجعل مِنْ شخصه شخصين : الشخص الذى يتحدث بضمير المتكلم ، والشخص المتحدَّثُ عنه بضمير الغائب ، وكأنه لون من ألوان تفخيم الذات : « ومن شعراء

(١) قصائد لها تاريخ / ٧٩ .
(٢) المرجع السابق / ٨٢ .
(٣) السابق / ٨٣ .
(٤) السابق / ٨٥ .
(٥) أحلام الحب / ٤٥ .
(٦) المرجع السابق / ٦٢ .

العصر من قارب الإجادة فى هذا المعنى كصاحب « البدائع » حين يقول: ... » (١)، « ما أقدر الله أن يُدْنِيَ على النوى مَنْ داره سنتريس ممن داره أسيوط »(٢)، « ويقرب من هذا المعنى قول صاحب «البدائع» : ... »(٣)، « وقد أكثر صاحب «البدائع» من الحنين إلى سنتريس ، وهى مهوى قلبه، ومُنْية روحه ... وانظر كيف يقول : ... »(٤)، « ما كُتِبَ هنا عن البوصيرى هو أصل ما فى كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » ، والمؤلف يفلس أحيانا فينقل معانيه من كتاب إلى كتاب . وهى ليست بسرقة لأنها تشبه نقل الدنانير من جيب إلى جيب فى الثوب الواحد . أليس كذلك ؟ بلى **أيها المؤلف** »(٥)، « وقد رأى **أحد المصريين** وهو فى باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى « طوق الحمامة » فراجعه مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه »(٦)، « وما كاد الدكتور طه يفرغ من محاضرته حتى نهض أحد طلبة الجامعة ، واسمه زكى مبارك ، فرد على الدكتور طه رداً خطابيا أثار إعجاب الجماهير ، فوقف الدكتور طه وردّ على الطالب رداً ظفر بشيء من القبول ... وفى المحاضرة التالية رأى الدكتور طه حسين أن يبدأ بكلمة فى التعقيب على مقال الأستاذ محمود عزمى ليبين خطأ

(١) مدامع العشاق / ٤٥ ، ١١٩ .

(٢) المرجع السابق / ١٣٠ . ويقصد بـ « مَنْ دارُه أسيوط » حبيبته التى سماها « سعاد ».

(٣) السابق / ٢٥٥ .

(٤) السابق / ٢٦٣ .

(٥) الموازنة بين الشعراء / ١٧٧ .

(٦) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢ / ٢٠١ .



الطالب الذى ثار عليه ، فنهض زكى مبارك وقال : ... »(١)، «والطائفة الثالثة مكونة من الدكتور زكى مبارك الأديب ، والدكتور زكى مبارك الطبيب ، والدكتور زكى مبارك الحيران بين الأدب والطب والعشق »(٢)، « الشقى ( يقصد صديقه عبد المنعم خلاف ) يشغل نفسه منذ أشهر طوال بالبحث عن مصدر الوحي، الوحى الهائل الخطير الذى جعل الدكتور زكى مبارك يكتب ثلاث مقالات فى كل يوم بالرغم من اشتغاله بالتدريس والتأليف . وسيموت الشقى قبل أن يعرف مصدر الوحى ، وسيموت قبله مصريون آخرون يهمهم أن يعرفوا كيف استطاع الدكتور زكى مبارك أن يكون أصدق من استرقَّت بغداد »(٣)، « وهذا الدكتور زكى مبارك الملحد فيما يزعمون يتلفت بحثا عن صاحبة العينين فلا يرى صاحبة العينين »(٤)، « ومضينا راجلين إلى حانوت الوراق ، وهو منزل صديقنا الدكتور زكى مبارك »(٥)، «اسمعوا ، يا تلاميذى ، اسمعوا ... إن أستاذكم ضاع ثم ضاع لأنه خاطب الناس بما لا يفهمون ... اسمعوا ، يا تلاميذى ، واعقلوا . سيموت أستاذكم مقتولا بسحر العيون ...

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٣٣ .

(٢) الأسمار والأحاديث / ٢٥٤ .

(٣) ليلى المريضة فى العراق / ١١٢ .

(٤) المرجع السابق / ١١٤ .

(٥) السابق / ٢٤١ .

سيترك لكم أستاذكم تركة مثقلة بالديون »[١]، « تفضل الزميل الكريم الأستاذ أبو بكر إبراهيم ... فأعد كلمة لمجلة « الرسالة » في ردّ التحية الجميلة التي وجهتْها جريدة «الهدف» البغدادية إلى مصر بإصدار عدد خاص عن أديب مصري كان له نصيب في خدمة الحياة الأدبية في العراق »[٢]، « تحدث هؤلاء الأماجد عن صديق العراق زكي مبارك حديثا هو البرهان الساطع على أن الوداد لا يضيع عند أحرار الرجال»[٣]، « واسم المؤلف ( مؤلف «الأخلاق عند الغزالي» ) محمد زكي عبد السلام مبارك ، وكان فيما سمعت شابًا يحاول الوصول إلى الحقّ ... ويظهر أن المؤلف كان يعاني ثورة روحية وعقلية عند تأليف الكتاب . وهو نفسه حدثني أنه صاحَبَ الغزالي في مؤلفاته نحو خمسين سنة ... وفي مدى ثلاث سنين استطاع ذلك الشاب أن يكتب رسالة للدكتوراه في الفلسفة عن «الأخلاق عند الغزالي»، وهي رسالة شرّقت وغرّبت بحق أو بغير حقّ»[٤]، « استطاع كتاب « الأخلاق عند الغزالي » أن يقاوم هجمات الناقدين عددا من السنين إلى أن تعرض له ناقد لا يرحم المؤلف ، وإن كان يحمل اسم المؤلف ، ففي اليوم الرابع من إبريل سنة ١٩٣٧ وقف طالب يؤدي امتحان الدكتوراه في جلسة علنية بالجامعة

---

(١) السابق / ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٢) ملامح المجتمع العراقي / ٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق / ٢٤٣ .

(٤) زكي مبارك ناقدا / ١٢٣ .



المصرية ، وكان أكبر همه أن ينقض آراء الطالب الذي وقف هذه الوقفة في الخامس عشر من مايو سنة ١٩٢٤ »[١]، « وعند باب الحديقة سأل عبد الوهاب عن العود ليكون رفيقه في الإياب ، ثم سارت به السيارة وهو يترنم بقول أحد الشعراء : ... »[٢]، « كان زكي مبارك من تلاميذي لأنه أدى امتحانا أمام الشيخ مصطفى القاياتي في الدروس التي أعددتُها بنفسي . فإن أنكر زكي مبارك أنه تلميذي فسأفحمه بشهادة السيد حسن القاياتي »[٣]، « احتملني كما احتملت الأقطار العربية سخريةَ المازني ، وغرام زكي مبارك ، ولغو طه حسين ، وإيمان هيكل ، وشطحات العقاد »[٤]، « انزلقوا إلى تجريح الغزالي ، وكان الباب أمامهم مفتوحًا ، فقد سبقهم زكي مبارك نفسه إلى تجريح هذا الإمام »[٥]، « لبس الملابس الإفرنجية مشايخ مشهورون جدا أذكر منهم طه حسين وعلي عبد الرازق وأحمد أمين ، وأذكر منهم صديقنا الشيخ زكي مبارك ، الذي لا أتصور اليوم كيف كان يلبس الجبة والقفطان »[٦]، «وفي هذا الكتاب ( أي كتاب « البدائع » ) فصول كان كتبها الفتى الأزهري بين سنة ١٩ وسنة ٢٢ . والفتى الأزهري صديق حميم ألف لجنة

---

(١) المرجع السابق . ١٢٥ .

(٢) الحديث ذو شجون / ٦٦ .

(٣) المرجع السابق / ٥٠٢ .

(٤) مجنون سعاد / ٢٩ .

(٥) كتاب الأم / ١٣ .

(٦) اللغة والدين والتقاليد / ١٣٠ .

لإصلاح الأزهر والمعاهد الدينية ... ويسرّنى أن أسجل أن الأزهر تطور فى حدود ما رسم الفتى الأزهرى من ضروب الإصلاح والتجديد لذلك البيت العتيق »[١]، « بعد امتحان الدكتوراه أقمتُ فى باريس أياما لأحضر حفلتين فى تكريم صاحب « النشر الفنى » ... »[٢]، « سألنى جماعة من أصدقائى عن طريقتى فى الإنشاء ، فقلت : أنا متأثر بأسلوب زكى مبارك »[٣]، « خطر بالبال أن أكتب مقدمة لهذا الديوان (ديوان « ألحان الخلود ») أتناول فيها شاعرية زكى مبارك بالنقد والتشريح فسَهُلَ عليّ الأمر لأول وهلة ، إذ كنت أعْرَفَ به من سواي. فلما هممتُ بالكتابة رأيت الأمر أصعب مما كنت أتصور بمراحل طوال، فإن الشاعر نفسه يحدثنا فى مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل »[٤]، « وكان زكى مبارك لأول عهده يكيل الشعر بالمكيال ... فعاد زكى مبارك ، بعد الإكثار المزعج ، يؤثر الإقلال ، وهَجَر القصائد وأقبل على المقطوعات »[٥]، « وقد عرضتُ هذه الأبيات على الشاعر عبد القادر محمود فقال إن البيت الأخير مسروق من قول الدكتور زكى مبارك : ... أنا أسرق من الدكتور زكى مبارك ؟ ومن هو الدكتور زكى مبارك حتى أسرق منه وهو أسطورة

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٤١ .

(٢) المرجع السابق / ٥١ .

(٣) السابق / ١٢٢ .

(٤) ألحان الخلود / ٣٩ .

(٥) المرجع السابق / ٤١ .



من الأساطير ؟ »[١]، « يقال إننى أُثْنِى على نفسى . هذا صحيح ، فالدكتور زكى مبارك الذى أكرم جميع الشعراء لم يُثْنِ عليه أحد من الشعراء »[٢]، « حزنتُ وشعرتُ بالحزن يعتصر قلبى فنظمت هذه القصيدة : ... وبعد لحظات رأيتُ أن معانى هذه القصيدة مسروقة من قصيدة مسجلة فى ديوان « ألحان الخلود » فغضبت . ومن هو الدكتور زكى مبارك حتى أسرق شعره ؟ »[٣]. وأغلب الظن أن القارئ الكريم قد لاحظ بكل وضوح نبرة الزهو المباشر فى كثير من هذه العبارات ووجد فيها ظرفًا شديداً وخفة روح عجيبة ، وبخاصة حين يندمج كاتبنا فى الدور الذى يمثّله وينكر وجود زكى مبارك بل يجعله أسطورة من الأساطير أو يهاجمه ويقلّل من شأنه نافيًا أن يكون قد استفاد أو سرق منه أى شىء .

وثَمّةَ سِمَةٌ أخرى فى أدب زكى مبارك لا إخالنا نخطئ إذا عددناها أيضا ، فى جانب منها على الأقل ، علامة على زهوه بنفسه وعلمه ، ألا وهى إتباع التعبير أو المصطلح العربى أحيانا بمقابله الفرنسى أو إيراد التعبير الفرنسى مباشرة . لقد كان تعلُّم زكى مبارك اللغة الفرنسية فى أوائل هذا القرن ، وهو الشاب الأزهرى الريفى الأصل ، مظهراً من مظاهر العصامية لأن تعلم مثل هذه اللغة فى تلك الظروف ، فضلاً عن إتقانها

(١) قصائد لها تاريخ / ١١٢ .

(٢) أطياف الخيال / ٥٧ .

(٣) أحلام الحب / ٤٣ .

إلى المدى الذى بلغه كاتبنا إذ استطاع أن يخطب بها فى حضور الأجانب أثناء ثورة ١٩١٩م ، أى قبل أن يسافر إلى فرنسا ، هو إنجاز ليس بالقليل أبداً[١]: « وكانت سُكَيْنَة أحسن الناس شَعْرا ، وكانت تصفِّف جُمَّتَها تصفيفا لم يُرَ أحسن منه حتى عُرِف ذلك . وكانت تلك الجُمَّة تسميَّ « السُّكَيْنيَّة » ... وفى هذا دليل على أنها صاحبة بدعة mode فى تصنيف الشعر وتنسيقه »[٢]، « والحاسة الفنية فى نظرى أدقّ من سلامة الذوق لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجده فى التعبير القديم ، وهى ترجمة لكلمة sens ، التى يراد بها فى هذا المقام أن تؤدى معنى كلمة التمييز أو قوة الإدراك »[٣]، « ولولا خوف الإطالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية فى نشر الدعوة propagande »[٤]، « ويأخذ (الغزالى) أيضًا عن أفلاطون نظرية التوافق l'harmonie »[٥]، « ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتبا écrivain ، أى رجلا قديرا على تلوين أفكاره وخواطره تلوينا يستهوى العقول والألباب»[٦]، « وهناك رأى مثقل بأوزار الخطإ والضلال ... يقضى بأن

---

(١) وقد اشتغل د. زكى مبارك فترة من حياته قبل سفره إلى فرنسا مدرسا للغة الفرنسية بمدرسة الأليانس فرانسيز ( انظر « ألحان الخلود » / ٣٣ ، ١٣٦ ، و«سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » / ٧٦ ) ، و « ملامح دينية بقلم زكى مبارك»/ ٥٦ ) .

(٢) حياة ابن أبى ربيعة وشعره / ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٣) الموازنة بين الشعراء / ٤٥ .

(٤) الأخلاق عند الغزالى / ٢٢ .

(٥) المرجع السابق / ١٦٨ .

(٦) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٣٣ .



العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية primitif »[١]، «فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية objectif ، والرومانتيك يفضلون أن تكون الأغراض ذاتية subjectif »[٢]، « إن الألفاظ فى مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب ، ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية ، ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولا ، ويجيء الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون »[٣]، « كيف ألقى ليلى ؟ تلك هى النقطة كما يقول لافونتين »[٤]، « فابتسم وقال : ومعنى ذلك أنك تحب أن ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ فقلت : إن سمح سيدى . فقال : Mais vous êtes mal placé . ففهمت إشارته ودنوت فزاحمت بركبتيّ ركبة الفتاة»[٥]، « انتظرتُ وانتظرتُ ثم انتظرت إلى أن جمع بيننا زحام المرقص بعد ثلاث ليالٍ ، فدنوتُ منها فى خفة وقلت : Tu m'oublieras un jour ». فقالت فى عبارة تجمع بين العَتْب والرِّفق : دخيلك الله ، اتركنى لحالى »[٦]، « ولم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب والمصنفات ، وإنما امتد بصره فدرس الدنيا وخَبَر

---

(١) المرجع السابق / ١ / ٣٨ .

(٢) السابق / ٢ / ٨٦ .

(٣) السابق / ٢ / ٨٩ .

(٤) ليلى المريضة فى العراق / ٥٣ .

(٥) المرجع السابق / ٨١ .

(٦) السابق / ٩٩ .

الناس ... فالشريف الرضى أيها السادة عاش شعره كله كما يعبّر الفرنسيون »[١]، «فى الساعة العاشرة من مساء الجمعة ، وهو اليوم الثانى من شهر مايو ، شهر الأزهار كما يسميه أحد شعراء الفرنسيس ، مضيتُ إلى دار المفوضية العراقية مع مترجم « آلام ڤرتر» لنشهد آلام الأصدقاء الأعزاء »[٢]، « وأهم ما يجب تقييده هو النص على مذهب أولئك العذريين فى الحياة ، وهم فى أغلب أحوالهم لم يكونوا رجال أفعال hommes d'action »[٣]، «مَلَكة اللغة تسمى بالفرنسية « الوجدان» ، فما شأن من يناقش فى اللغة وليس له فيها عاطفة ولا وجدان ؟ »[٤]، « فما راعنى إلا فتاة بارعة الحسن ... وقد زجّجَتْ حاجبيها وصفّفَتْ شعرها على الطريقة الغلامية à la garçonne »[٥]، « كلمة «عصرية » كلمة جميلة ، وهى كذلك كلمة حية فى الريف المصرى . وهى تماثل التعبير الفرنسى après - midi ، فأرجو أن يذيع استعمالها بعد اليوم»[٦]، «وبهو أمانة العاصمة بناية كبيرة منقولة فى أصل الوضع عما يسميه الفرنسيون : hotel de ville ، وترجَمَتُها «دار المدينة» أو «دار

---

(١) عبقرية الشريف الرضى / ٤٧ .
(٢) ملامح المجتمع العراقى / ١٧٤ .
(٣) العشاق الثلاثة / ٢١ .
(٤) الحديث ذو شجون / ٤٤٣ .
(٥) الأسمار والأحاديث / ١٨ .
(٦) المرجع السابق / ٢٣٩ .



المحافظة» بالتعبير المصرى »[١]، « وكلمة « محدِّث » قلما نعرف مدلولها فى مصر . وهى بالطبع غير كلمة « محدِّث » التى ترد فى كتب الرواية والحديث. ونحن نريد بها ما يريده الفرنسيون من كلمة causeur ، فالفرنسيون من بين الأمم مشهورون بحلاوة الحديث »[٢]، «أنت تعلم أننا لا نمجّد المسيح إلا متصلا بالعذراء ، فنحن عن طريقه نمجّد المرأة . ونستخلص من هذا أن المسيحية عبارة عن تقديس البيت le foyer[٣]، «وهذا لا يمنع أن يكون الأديب من أهل الكفاح home d' action»[٤]، «والواقع أن « عاطفة السكن » قوية عند الدكتور طه إلى أبعد الحدود . والسكن هو الكلمة العربية التى تماثل الـ foyer فى اللغة الفرنسية»[٥]، « قصة « الحب الضائع » تسير فى الطريق الذى يسميه الفرنسيون roman à thèse ، فهى قصة تشرح نظرية أو نظريات»[٦]، «وفى كتاب «الأيام» صفحات تقهر عَصِيّ الدمع ، وهى صفحات caractéristiques بالنسبة لذلك الطفل »[٧]، «قال أستاذنا السنيور نالينو ونحن نذكر عاهة طه حسين : A sa place, je serais perdu »[٨]، « وهنا أوجّه

---

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) السابق / ٣٠٠ .
(٣) السابق / ٣٠٨ .
(٤) السابق / ٣٨٤ .
(٥) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٩٠ .
(٦) المرجع السابق / ٩٥ .
(٧) السابق / ١٢٢ .
(٨) السابق / ١٢٥ .

إليك كلمةً مُرّةً ستؤذيك أشد الإيذاء : من الذى زيّن لك أن تعتدى على الجنود المجهولين ؟ أنت تعرف أن الفرنسيين يسمون التعليم : métier sans gloire . وما أشقى من يعانى مهنة بلا مجد ! »[1]، « وسيأتى يوم ينعزل فيه الدكتور طه انعزالا تامًا عن الجمهور ويعتكف فيما يسميه الفرنسيون cours fermés ليحقق مع تلاميذه بعض الدقائق الأدبية والفلسفية »[2]، « ولكن ما رأيك فيمن يصارحك بأن الحيوية لن تشيع فى أبحاثك إلا إذا حاورت « الرجل الذى لا يخلو إلى قلمه إلا وفى رأسه عفريت »؟ تلك كلمتك يا سيدى الدكتور وأنا عنها راض ، وبها مختال . فما هو العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو إلى قلمى ؟ أيكون هو الجنّ الذى سمّاه الفرنسيون génie ؟ »[3]، «قال ديكارت : أنا أفكر فأنا إذاً موجود Je pense, donc je suis»[4]، « أصول الديوان مبعثرة ، وأنا نفسى أجهل أماكنها الحقيقية ، ولن يستطيع أبنائى الوصول إلى مظانّها فى أطواء المكتبة وفى خفايا الأضابير المنشورة هنا وهناك . أفتّش جيوب الأوراق فأجد قصيداً غاب خبره عنى فأهتف بالفرنسية : C'est un enfant retrouvé »[5]، « ضايقنى الضجيج مرة فى المنزل الذى أقيم به فى باريس فمضيتُ إلى ضاحية ڤنسين ،

(١) السابق / ١٧٤ .
(٢) السابق / ١٧٥ - ١٧٦ .
(٣) السابق / ٢٠٠ / ٢٠١ .
(٤) السابق / ٢١٩ .
(٥) ألحان الخلود / ١٩ .



فوجدت منزلا كتب عليه : tranquillité absolue » فتشاءمت لأن الهدوء المطلق من نصيب الأموات »[1]، « أحمد الصاوى محمد ! من هو الصاوى ؟ أكاد أتوهم أننا كنا غريبين فى باريس . وأكاد أتوهم أنه كان تلميذى فى اللغة الفرنسية يوم كان يقيم بحارة الصالحية . Le passé est mort: الماضى مات »[2]، « كان الرجل (المسيو كازانوڤا) فى غاية التعب ، فقد كان يملى عليّ بصوته الجميل لحظة ثم يسكت لحظات ، وأستنجزه فيقول : Le temps est à nous . ومعنى العبارة أن الوقت لنا »[3]، « مضينا ومعنا الدكتور محمد صبرى لنرى المسيو كازانوڤا قبل أن يموت . قالت الراهبة : L'homme propose, Dieu dispose، وقادتنا إلى الحجرة التى ينام فيها المسيو كازانوڤا لنرى صفرة الموت»[4]، « كنت أبكى من الفرح وأنا أراهم (يقصد تلاميذ مدرسة سنتريس ) فى الدروس وفى الملاعب ، وأهتف بالفرنسية : J'ai fait une œuvre»[5]. بل لقد بلغت هذه الحالة عنده أن وضع كلمة « Job » الفرنسية فى بيت من قصيدة له تجنبا لانكسار الوزن باستعمال مقابلها العربى : « أيوب » ، وهذا هو البيت :

هَـمُّ الحياة حملته .·. إنى لأصبر مثل «جوب»[6]

(١) المرجع السابق / ٣٢ .
(٢) السابق / ٩٣ .
(٣) السابق / ١٣٦ .
(٤) السابق / ١٣٧ .
(٥) السابق / ٢٨٨ .
(٦) قصائد لها تاريخ / ١٠٩ - ١١٠ .

ويتصل بالسمة السابقة على نحوٍ أو آخر ما نراه من غرامه بالمقارنة، كلما سنحت الفرصة ، بين الأدب أو الفكر المصرى والعربى ونظيره فى كتابات أدباء الغرب ومفكريهم . ولعلَّ فى النص التالى من كلامه فى «مدامع العشاق » شيئا من التعليل لهذه النزعة عنده . قال فى التعقيب على أبياتٍ نونية للأبيوَرْديّ فيها وصف لبعض المناظر الطبيعية : «ونحب أن نلفت القارئ إلى ما فى أمثال هذه الصور الشعرية من الكَلَف بتصوير الطبيعة وما فيها من حياة الحيوان ، فقد أُغْرِم شعراء المغرب بهذا الأسلوب فزاد شعرهم جمالاً إلى جمال . ولولا الرغبة فى الإيجاز لنقلت قطعة من شعر ألفريد دى ميسّيه تماثل شعر الأبيوَرْديّ فى هذا الجانب من البيان . والناس هم الناس فى كل قطر وفى كل جيل ، والتباين قليل فى الميول فى تذوق ألوان الحياة ، وإنْ عَظُم الفرق جينا فى التعبير عن نزعات النفوس وشهوات العقول »[١]. وأحسب أنه أيضًا يريد أن يرسّخ فى نفوس قرائه أن الأدب والفكر العربى لا يقل جمالاً أو عمقًا أو عظمة عن مثيله الغربى ، وذلك بغية تخليص العرب من إحساسهم بالدونيَّة إزاء الغرب . وعلى أية حال فهذه أمثلة على هذه الخصيصة فى أسلوبه :

« ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد واستبدّ بالخلود فلم يعرف أحدُ أسماء من نحتوا التمثال . رويدك أيها الشاعر . ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم فى زمانهم وجود ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سنّة طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصر على

(١) مدامع العشاق / ١٢٢ .



رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشامخات فى الأقطار الفرنسية والإنجليزية والجرمانية ؟ قد تُذْكَر أسماء بعض المهندسين ، ولكن انتظر حتى يمر على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس . انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه ، فإن وجدت من يعرفه فعندى لك نسخة مذهبة من ديوان مطران » »[١]، « والقدر له فى الأدب الشرقى مكان ، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود ، وفى كتاب «كليلة ودمنة» فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لشؤون الناس . وما نحب أن نفعل كما يفعل كتّاب الغرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية . هيهات ، فالناس فى الشرق والغرب سواء ، وإن فتنهم النصر فى بعض الأحيان »[٢]، «ملاعب الكرة فيها لطف وجاذبية ، وفيها سحر وفتون ، ومع ذلك لم يتكلم عنها الشعراء إلا قليلا ... ولست أعرف ما صنع شعراء الإنجليز فى وصف ملاعب الكرة، وهم من أمهر اللاعبين ، ولكنى أعرف جيدا أن شعراء العصر الحاضر فى مصر لم يُعْنَوْا بوصف ملاعب الكرة على نحو ما عُنُوا بوصف المراقص »[٣]، « ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء فى جميع البلاد العربية ، وهى فى الشعر العربى تذكّر بليالى ميسّيه فى الشعر الفرنسى ، فكما أن الفرنسيين جميعا

(١) الموازنة بين الشعراء / ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

(٢) المرجع السابق / ٣٤٥ .

(٣) السابق / ٣٤٨ .

يعرفون ليالى ميسيه فالعرب يعرفون جميعا نونية ابن زيدون »[١]، «ولولا خوف الإطالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية فى نشر الدعوة propagande ، فقد كانوا أمهر من الإنجليز والفرنسيين والأمريكان فى العصر الحديث»[٢]، « وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث : « شَرِبوا نخب مصر ، وشربوا نخب فرنسا » كان له عند العرب بديل جميل . انظر قول عُلَيّة فى غلامها رشإ :

اشرب على وجه الغزالْ    الأهيف الحلو الدلال

... فأى التعبيرين أجمل ؟ أقَولُ العرب : شربتُ على وجهه ، وعلى بُعْده، وعلى ذكره ؟ أم قولنا : شربت نخبه ؟ أجيبوا أيها المتكلمون»[٣]، « ولقد أذكر أنى قرأت منذ سنين رواية « رافاييل » وهى بدعة فى الآداب الفرنسية ، فأقسمت لأزُورَنّ إن استطعتُ قبر لامارتين . واليوم أقسم لأزُورَنَّ قبر البحترى . أليس هو القائل فى طيف الخيال : ... ؟ »[٤]، « ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكثروا من وصف السحاب ، إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، وإذ كانت آذانهم وأبصارهم أليفة لدويّ الرعد ولمع البرق . على أن شعراء العرب لم يقصّروا فى هذا الباب . ويكفى أن نذكر قول البحترى يصف سحابة : ... »[٥]، «موطن

(١) السابق / ٣٦٣ ، وأحمد شوقى / ٢١٥ .
(٢) الأخلاق عند الغزالى / ٢٢ .
(٣) مدامع العشاق / ٨١ .
(٤) المرجع السابق / ٨٣ .
(٥) السابق / ١٣٧ .



الحب هو القلب فى حديث الشعراء . وقد أثبت أخيرا أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد . ونريد أن نذكر هنا طرفا من حديث العرب عن الكبد وقرار الحب فيه مما يماثل هذا الرأى الجديد »[١]، «وللحديث (حديث أبى القاسم البغدادي فى « حكاية أبى القاسم البغدادى ») بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين . وهى خطة تذكرنا بما صنعه المسيو كولان Colin حين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فانظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون »[٢]، « وذكر ابن حيان أن أبا عامر (ابن شهُيَدْ ) « كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره وأضلّهم عن ذاته » ، ومن العجيب فى تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون لافونتين بهذا الوصف فيذكرون « أنه كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره وأضلّهم عن ذاته » . وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب فى سوء الحال!»[٣]، « وقد اهتم النصارى بكتاب الاقتداء بالمسيح Imitation de Jésus Christ فنقلوه من اللاتينية إلى الفرنسية نحو أربعين مرة وكتبوه بالذهب فى كثير من الأحيان . وأدعية زين العابدين كانت مما اهتم به الشيعة اهتماما شديدا فصححوا رواياتها ونقدوها وكتبوها بالذهب فى كثير من البلاد »[٤]، « وإذا كان الخواص لم يترك شيئا يستحق الذكر من المؤلفات فإن الشعرانى صنع معه ما

(١) السابق / ٢٤٠ .
(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٤٢٠ ـ ٤٢١ .
(٣) المرجع السابق / ٢ / ٣٧١ .
(٤) التصوف الإسلامى / ٢ / ٦٦ .

صنع أفلاطون مع سقراط ... مجهود الشعرانى فى نشر الثقافة الشرعية والصوفية لا يقل خطرا عن مجهود أفلاطون فى نشر ثقافة اليونان »[١]، « وكلمة «سافل» يكثر ورودها فى « الخزانة » بمعنى « ضعيف » ... وهى تقابل كلمة « inférieur » الفرنسية ، وكانت فى ذلك الحين كلمة خفيفة، وهى اليوم من صور السِّباب »[٢]، « هى حديقة أنشئت بعد استقلال العراق . ويقال إن الذى فكر فى إنشائها رجل من الإنجليز ، وكانت تسمَّى باسمه ، ولكنها اليوم تسمى « حديقة الشعب » . وفيها مشابه من حديقة النباتات فى باريس »[٣]، « ومن المؤكد أن مصر وصلت إلى مبلغ عظيم من الافتنان فى تنسيق الحدائق ، فحديقة الأزبكية بالقاهرة لا تقل جمالاً عن حديقة لكسمبور فى باريس »[٤]، «فى عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل وأساليب لا تعرف المنطق ولا العدل . وتلك الوسائل والأساليب ستصنع فى الأدب الحديث أمثال ما صنعت الأساليب القديمة فى الأدب القديم . وقد شكا النقاد فى فرنسا هذه البيئة ، إذ تبين لهم أن الكتاب والنقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف والثناء. وهم يسمون هذا بالكمارادرى camaraderie، وتلك الكمارادرى معروفة فى مصر ، ولعلها أيضًا معروفة فى الشام

(١) المرجع السابق / ٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .
(٢) المدائح النبوية / ١٨٣ ـ ١٨٤ .
(٣) ليلى المريضة فى العراق / ١٩٩ .
(٤) المرجع السابق / ٤٠٦ .



والعراق »[١]، « والمحصول الأدبى فى مصر وسائر البلاد العربية هو فى أغلب أحواله مقالات وبحوث نُشِرَتْ فى الجرائد والمجلات . والحال كذلك فى الأمم الأوربية والأمريكية »[٢]، «أيكون عيب أولئك الشعراء (شعراء المديح من أمثال مسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى ) أنهم كانوا يعيشون فى ظلال الأمراء والخلفاء ؟ وما العيب فى ذلك ؟ ألم يكن شعراء المشرق والمغرب يعيشون فى ظلال الأمراء والملوك ؟ وكيف يعاب على أمثال البحترى والمتنبى ما استباحه أمثال ڤولتير ولافونتين؟ »[٣]، « إن الجرجانى فى كتابه « دلائل الإعجاز » أبرع وأعظم من لانسون فى كتابه « L'art d'écrire » ، ولكن لانسون وجد رجالاً يعرفون قيمته الأدبية ، أما الجرجانى فله أخلاف يَنْسَونَه ويذكرون ابن خلدون »[٤]، « وكُثَيِّر فى هذه القصيدة يشرَح العواطف تشريحا يذكّر بأسلوب الشعراء الوجدانيين فى الأدب الفرنسى »[٥]، «ليتنى أعرف كيف أمكن أن يتسامح أولئك الأدباء الأغبياء فيجعلونا متجاورين على المائدة لأداعبك برجلى على طريقة ميسيه مع معشوقته صاند »[٦]، « بعض الشعراء منهومون لا يشبعون ، وأشهرهم فى

(١) عبقرية الشريف الرضى / ٤٢ ـ ٤٣ . والـ « camaraderie » هى ما نسميه عندنا فى مصر بـ « الشِّلَلِيّة » .
(٢) ملامح المجتمع العراقى / ٦٧ ـ ٦٨ .
(٣) د. زكى مبارك / جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٥١ .
(٤) المرجع السابق / ٢٣٩ . والمقصود بالأخلاف هنا د. أحمد أمين ، الذى كان لا يعترف من الكتّاب العرب إلا بابن خلدون .
(٥) العشّاق الثلاثة / ٨٨ .
(٦) مجنون سعاد / ١٨ .

عصرنا هو الشاعر الكبير على محمود طه ... ، وأشهرهم أيضًا الشيخ الأسمر ، وهو مولع بأكل لحوم الدجاج ، وهو من أكابر الشعراء . وليس هذا بعيب ، فالشاعر الفرنسى العظيم فيكتور هوجو كان منهوما ، وكان يطهى طعامه بيديه ليتذوق بخار اللحوم وهى تتقلب فوق النيران . والكاتب الفرنسى العظيم شاتوبريان كانت له شهوة إلى اللحم الغريض الذى تظهر النار ما فيه من الدماء ، وباسمه سُمِّى طبق من اللحم : شاتوبريان »[١]. ونختم الكلام فى هذه السمة بالإشارة إلى الباب الثالث عشر من كتاب « الأخلاق عند الغزالى » ، وهو الباب الذى خصصه كله للموازنة بين الغزالى وبعض الفلاسفة الغربيين المحدثين .

وكثيرا ما يطعّم أديبنا الكبير ما يكتب بأحاديث الذكريات والكلام فى أموره الخاصة : فمن ذلك مثلاً ما ذكره أثناء كلامه فى المحاذير التى ينبغى أن يتنبه إليها الناقد الأدبى من « أن بعض العلماء قرأ كتاب «حب ابن أبى ربيعة وشعره » ثم قال بلهجة جدية : لا عيب فى هذا الكتاب إلا أنه لم يُخْتَم بفصل فى النهى عن العبث بالنساء »[٢]. وفى أثناء حديثه عن شخصية شوقى أمير الشعراء يستشهد بذكر تصرف وقع من شوقى يدل على صحة ما قاله فيها[٣]. وفى تعقيب له على بيتين للعباس بن الأحنف يطلب فيهما أن يعيره أحدٌ عينه ليبكى بها نجده

---

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٠٤ .
(٢) الموازنة بين الشعراء / ١١ .
(٣) المرجع السابق / ١٣٠ .



يعرِّج على لوردَ كرومر واتهامه المصريين بالكسل لسماعه مغنيا فى عرس مصرى يقول : « حبيبى غاب . هاتوه لى يا ناس »[١]. وعند تحليل إحدى قصائد البحترى يحكى ما وقع من خصام بينه وبين عبد الحليم المصرى بسبب تنبيهه إياه إلى أن بعض معانيه مأخوذة من قصيدة البحترى[٢]. وفى نقده لقصيدة من قصائد إسماعيل صبرى يستطرد فيتحدث عن السهرات التى كانت تتم فى داره بالمنيرة[٣]. ومثل ذلك يفعله أثناء تناوله لبعض شعر شوقى ، إذ استطرد فذكر قصة أول لقاء له به[٤]. وعند كلامه عن عادة إلباس الجوارى فى بغداد قديمًا ملابس الغلمان يحكى ما قاله له محمد لطفى جمعة عن حبيبته التى كانت تلبس ثياب فتًى وما رآه هو نفسه فى باريس من فتيات يلبسن ملابس الفتيان[٥]. ومن ذلك ما رواه عما دار بينه وبين طه حسين من نقاش حول إحدى قصائد شوقى اتفقا فيه على أنها قصيدة سيئة ، وهو نفس ما كان يقوله شوقى نفسه عنها ، ثم ظهر لهما مع الأيام أنها أحسن مما كانا يظنان[٦]. وبمناسبة الكلام عن قصيدتين لشوقى فى بعض الآثار المصرية ينخرط كاتبنا فى رواية الاكتشاف الأثرى الذى قام به آنذاك اللورد

---

(١) السابق / ١٥٣ .
(٢) السابق / ٢٨٣ .
(٣) السابق / ٢٨٨ .
(٤) السابق / ٣٧٣ .
(٥) السابق / ٤٠٣ .
(٦) أحمد شوقى / ٦٠ .

كارنارڤون مما كان سببا فى نظم شوقى لإحدى قصائده[١]، ثم يورد بعد ذلك حكايات عن التنافس الذى كان بين شوقى وشاعر النيل حافظ إبراهيم[٢]. كما يذكر فى مناسبة أخرى قصة لقائه لأول مرة بأمير الشعراء فى بيت عبد اللطيف الصوفانى بالحلمية الجديدة بالقاهرة[٣]. وعندما يأتى الكلام عن نُوَاح الشيعةَ على الحسين يوم عاشوراء نراه يقصّ ما رأى الشيعة يفعلونه بأنفسهم فى مسجد الحسين وغيره أيام كان طالبا بالأزهر[٤]. وكذلك يذكر، عند حديثه عن زهد المتصوفة، ما كان يأكله من طعام خشن فقير أيام أن كان طالبا بالأزهر، وأثر ذلك فى خمود شهوته[٥]. كما يصف، أثناء كلامه عن مجالس الصوفية، بعض المجالس الغنائية التى كان يحضرها لهم فى شبابه[٦]. وعند اقتباسه ما قاله القدماء فى تأنق العباس بن الأحنف وحبّه للترف والنعمة يستطرد فيذكر ما قاله له الشاعر العراقى الكاظمى عن هذا الميل فى شخصية البارودى[٧]. وفى بداية بحثه حول « كتاب الأم » تطالعنا ذكرى حديث

---

(١) المرجع السابق / ٦٢ - ٦٤ .
(٢) السابق / ٦٤ - ٦٧ .
(٣) السابق / ٢٩٣ .
(٤) المدائح النبوية / ٥٤ .
(٥) التصوف الإسلامى / ٢ / ١٩٠ .
(٦) المرجع السابق / ٢ / ٢٦٨ - ٢٧٢ .
(٧) العشاق الثلاثة / ١١٦ .



دار فى ليلة رمضانية بينه وبين بعض زملائه فى منزل الشيخ مصطفى عبد الرازق[١].

وهذا مجرد غيض من فيض، وهناك كتب للدكتور زكى مبارك تقوم فى معظمها على مثل هذه الحكايات والذكريات، كـ « ليلى المريضة فى العراق » و « ملامح المجتمع العراقى » و « الأسمار والأحاديث » و« البدائع » ومقالاته التى جُمِعَتْ بعد موته فى « معارك أدبية » و« زكى مبارك ناقدا » و « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك »، كما أنه فى كثير من الحالات يقدم لقصائده بحكايات وذكريات وقعت له. وهذا ينم على ميله، رحمه الله، إلى القصّ وحب التواصل مع القراء، وهو أيضًا دليل على دفء شخصيته وصراحته، تلك الصراحة التى استحالت معها نفسه إلى كتاب مفتوحٍ للغادى والرائح.

ومن هذا الباب أيضًا كثرة التفاته فى كتاباته إلى القراء.. إنه لا يستطيع، أثناء الكتابة، أن ينسى القارئ أو يغفل عنه. ولذلك نراه يعقد حواراً معه أو يسأله أو يقترح عليه هذا الأمر أو ذاك أو يوصيه أو ينصحه ... إلخ. وما من مقالٍ له تقريبًا أو فصل من كتاب إلاَّ وتجد فيه هذه الظاهرة. وتتردد العبارات التالية وأمثالها كثيرا فيما يكتب: «فإن أردت أن تفعل كذا فعليك بكذا»، « حدّثنى بربك عن كذا وكذا»، « ولك أن تذكر كذا »، «وإنى لأرجو القارئ أن يفعل كذا»،

---

(١) د. زكى مبارك / كتاب الأم / ط٤ / مكتبة مصر / ١٩٩١م / ٢٣ .

« قد يسأل القارئ : ... ؟ ونجيب بأن ... » ، « ما رأيكم فيمن يحدثكم بكذا ؟ » ، « أيرانا القارئ نتحامل على فلان إذا قلنا عنه كذا ؟ »، « قد يقول معترض كذا وكذا ، ونجيب بأن ... » ، «اذهبوا إن شئتم إلى المكان الفلانى وانظروا ... واقرأوا إن شئتم مؤلفات فلان»، « فإن سأل القارئ : ... ؟ فإنا نجيب بكذا » ، « وأنا أوصى القارئ بعمل كذا » ، و « سيرى القارئ كذا » ، « هل تذكرون ما قال الكاتب الفلانى فى الموضوع الفلانى ؟ » ، « وهنا أرجو من الدارسين أن يقرأوا ما كُتِب فى الكتاب الفلانى عن كذا » ، « أرجو ألا يغفل القارئ عما فى هذا الشعر من فنون الجمال »، « تأمل أيها القارئ هذه القصة ...»، « أتدرى لماذا ذكرتُ لك كذا ؟ » ، « وفى مقدور القارئ أن يرجع إلى الكتب الفلانية ليعرف كذا وكذا » ، «وإنك لتضحك بملء فيك حين ترى المؤلف الفلانى يقول كذا وكذا»، « ولا يتوهمن قارئ أنَّ ... » ، «وليس يخفى على القارئ أن ... »، « يا أبناءنا فى المدارس المصرية ، تذكروا أن ... وأن ... » ، « قد تقولون : ...؟ إن قلتم ذلك فإنى أجيب بأن ... وأؤكد لكم أنَّ ... » ، « راجع هذا الشعر أيها القارئ ، وقلّب النظر فى ثنايا ذلك الروح الحزين » ، « ولكن لا يتوهم القارئ أن ... » ... إلخ .

وكان زكى مبارك كثير التهديد لخصومه والقعقعة لهم . وله فى ذلك عبارات محفوظة هى الظَّرْف كله واللطافة ذاتها . ويغلب على خاطرى أنه لم يكن يقصد شيئًا من ذلك ، فى الأغلب الأعم منه على الأقل . إنما



كان يصنع صنيعَ المحطِّبين ، إذ ترى الواحد منهم يهجم بعصاه الغليظة على من يحاطبه فيظن أنه سيهوى بها على أم رأسه فيفلق دماغه ويصرعه ، وتنسى أنها حركات مدروسة يراد بها التهويش على المشاهدين وإمتاعهم . وأعتقد أن عدم مضيّه فى معركته مع السباعى بيومى فى « الرسالة » فى الأربعينات يرجع إلى هذا ، إذ رأى أن غريمه قد أخذ المسألة بجدّ وشرع يردّ عليه فى لددٍ وغضب حقيقي، بينما لم تكن الصيحات والفرقعات التى يطلقها هو إلا صيحات فنية تمثيلية ليس غير . ولهذا فعندما توسَّط بعض الأدباء لفضّ هذه المعركة استجاب على الفور . والذى يرجع إلى مقالات الطرفين سوف يجد بسهولة أنها تتمشى مع هذا التفسير وأن استجابة كاتبنا لداعى الصلح لم يكن عن ضعف بل كراهيةَ أن يتحول التمثيل إلى خصامٍ وعداوة حقيقيين[1] . ومن هنا فإننا لا نتفق مع ما قاله أنور الجندى من أن هذه المعركة «كانت أقسى المعارك التى خاضها الدكتور زكى مبارك . ولأول مرة تصادفه الهزيمة ، إذ لم يواجه لددا أقسى وعنفا أشد من مصارعة الأستاذ السباعى بيومى ، الذى كان قوى العارضة فى مواجهة سجال زكى مبارك حتى حمله على أن يفرّ سريعا من المعركة فيلجأ للصلح»[2] .

وإلى القارئ بعض العبارات التهويشية التى كان زكى مبارك بارعًا فى الإجلاب بها على الخصم بغية إبهاج القارئ : فعندما تسبب

(١) يستطيع القارئ أن يجد نصوص هذه المقالات فى « الرسالة » من أول ٦ يناير ١٩٤١م إلى ١٠ مارس ١٩٤١م .

(٢) أنور الجندى / المعارك الأدبية فى مصر منذ عام ١٩١٤ ـ ١٩٣٩ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٨٣م / ٤٤١ .

طه حسين فى إخراجه من الجامعة سمعناه يرعد قائلاً : « إن أطفالى لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه »[١] .

وفى موقف مماثل نراه يزمجر قائلاً : « والذين يحاربوننى لم يطمعوا فى محاربتى إلا لظنهم أنى رجل أعزل لا أنحاز إلى حزب من الأحزاب، وليس لى فى الحكومة عم ولا خال ، ولكن خاب ظنهم ، فإن الحق أعز وأقوى . وسيرون كيف أزلزل أرواحهم ، وكيف أملأ قلوبهم بالرعب ، وكيف أريهم عواقب ما يصنعون »[٢] .

ويقول عن معارضته للدكتور طه أيام أن كان عضواً فى مجلس قسم اللغة العربية بكلية الآداب : « لا أنكر أنى أسرفت ، ولكن الأيام أرتنى أن الحزم كان أوجب ، ولولاه ما استطعت الآن أن أناقش من يزعم أنى قابلت الدكتور طه حسين بالترحيب ، وأنه مع ذلك لم ينس ما كويتُ به جبينه من قوارع التثريب ولم يغفر ما كشفت من سرقاته ، وكان الناس يحسبونه من المبدعين »[٣] .

ويقول مهدداً من يفكر فى الاعتراض على ما سجّله فى كتابه «ليلى المريضة فى العراق» ( الذى يسميه بـ « التقرير » ) وموجها الحديث إلى الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف فى ذلك الوقت: « وأُعيذكم أن تظنوا أنى آذيت بهذا التقرير أحداً من الناس ، فقد عرضتُ بعض فصوله

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٨٠ .
(٢) المرجع السابق / ٦٢ ـ ٦٣ .
(٣) السابق / ١٥٣ .



على ليلاى بالعَراق قبل أن أعرضه عليكم فتلقته بالقبول ، وهى التى علمتنى مذاهب الرمز والإيماء . وسَيُرْمَى النقاد منى بداهية إن بدا لهم أن يعترضوا على ما فى هذا التقرير من رموز لا يدرك مغازيها إلا الراسخون فى الحب والطب »[١].

وفى الردّ على د. سعيد عبده ، الذى كتب فى مجلة « آخر ساعة » أنّ زكى مبارك يدافع عن العراق ليحفظ مكانه بدار المعلمين العالية ببغداد ، نجده يقول : « هل يعرف هذا الصديق أننى اعتذرتُ اعتذاراً قاطعًا عن الرجوع إلى بغداد ؟ هل يعرف هذا الصديق أن الدكتور زكى مبارك يستطيع أن يشوى لحم الأسود إن قضت عليه المقادير أن يجوع؟ »[٢].

وهو ينوش من يسميهم بالحاسدين والحاقدين والأعداء فيقول « ماذا يصنع الحاسدون والحاقدون والأعداء ؟ أنا أعرف العواقب ستُغَلَّف مؤلفاتى من جلودهم وجلود أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم بعد حين، وسوف يعلمون . الفناء لأعداء الآداب والفنون ، أما طبيب ليلى (يقصد نفسه) فله الخلود »[٣].

وفى حديثه عن صديق له ضاعت ، كما يقول ، منزلته من قلبه حين

(١) ليلى المريضة فى العراق / ١٢ .
(٢) المرجع السابق / ٣٣٥ .
(٣) السابق / ٣٨٦ .

رآه يتقول على القاهرة وبغداد ويريد أن تفسد العلاقة بين القطرين الشقيقين: «فإن اتفق لهذا الصديق أن يشعر بأنه فريسة الكرب من وقت إلى وقت فليعرف أن غضبى عليه سيصيِّره طُعْمَة المهالك والحتوف. وله أن يتوب إن أراد ، فإن لم يَتُبْ فسيعرف أن هوانه على الله والناس نصيب مضمون ، وسيرى مصارع آماله وأحلامه بعد حين »[1].

وفى أحد مقالاته التى حبّرها فى تفنيد ما كان يقوله د. أحمد أمين من جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى لدرجة أنْ أصبح هذا الأدب أدب معدة يرد قائلا : « لو أن معدتى كانت كما أُحِبّ من القوة والعافية لأكلتُ لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة فى الأدب والتاريخ »[2].

وفى الخطبة التى ألقاها فى جمعية الشبان المسيحية بالإسكندرية فى « عيد الورد » فى عام ١٩٤٠م وسبق الكلام عنها فى هذا الكتاب يذكر عدداً من مشاهير وزارة المعارف فى عصره ممن وُلِدوا فى الإسكندرية ويبدى غيرته من هذه المدينة التى استأثرت بهذا السلطان ، ولكن على طريقته فى التظرف بالتهديد المقعقع : « أيها السادة ، إن الحديث ذو شجون ، فهل سمعتم أن الإسكندرية تسيطر فى هذه الأيام على وزارة المعارف ؟ قيل إن النقراشى إسكندرى المولد ، وقيل إن السنهورى إسكندرى المولد ، وقيل إن شفيق غربال إسكندرى المولد ، فهل هذا

(١) ملامح المجتمع العراقى / ٣٤١ .
(٢) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٧٥ .



صحيح ؟ إن صح هذا فانتظروا منى ثورة تزلزل رواسى الجبال، فما يرضينى أن يكون لمدينتكم كل هذا السلطان »[1].

وفى ردّه على ما جاء بمقال فى مجلة « الثقافة » فى ١٩٤٣م لكاتب سمى نفسه « قاف » من أنَّ « الشاعر المجهول » الذى ينشر قصائده فى مجلة « الرسالة » هو الدكتور زكى نفسه يقول : « إن « قاف الثقافة » توهم أن الشاعر المجهول هو الكاتب المعروف ، وساق عبارة دل بها قراءه على أنه يعنى الدكتور زكى مبارك . أهلاً وسهلاً ، ولكن هل يعرف « قاف الثقافة » أنى سأسوق إليه ما يزلزل «جبل قاف» ؟ إن «قاف الثقافة » بعيد كل البعد عن الذوق الأدبى ، وهو لم يتوار فى أحد سفوح « قاف » إلا لينجو بنفسه من الرجفات التى تزلزل قمم الجبال»[2].

ويهدد بالقتل شاعراً كتب أبياتًا فى هجائه ، ثم يعدل عن تنفيذ تهديده لسبب إنسانى كما ذكر : « تلقيت أبياتًا يهجونى بها شاعر سمى نفسه « الأخطل »، وهو شاعر أقسمتُ إن عرفتُه لأقتلنَّه، ثم مضيت أبحث عنه فى الأندية الأدبية ، فلما اهتديت إلى اسمه سكن غضبى لأنى رأيته أبا يعول سبعة أطفال ! وهو الشاعر الذى قال الشيخ محمد سليمان : هجاؤه أبرد من سقوط التلميذ فى الامتحان »[3].

(١) الحديث ذو شجون / ١٦ .
(٢) المرجع السابق / ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٣) الأسمار والأحاديث / ٢٨٥ .

ويستخدم فى تهديد بعض من النقاد ذات مرة اية كريمة هدَّد الله بها الإنس والجن : « نظرت فوجدت فى جريدة « البلاغ » خمسة من النقاد ينوشوننى فى عدد واحد ، فكَرَرْتُ عليهم فى مقال عنوانه : «سنفرغ لكم أيها الثقلان » ... »[١]. وهو فى هذا التهديد قد ارتقى مرتقى صعبًا بل مستحيلاً كما ترى .

وعندما تناول بالعرض والتحليل كتاب الدكتور طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر » كان مما ناقشه فيه ما رآه ماسًا بالمعلمين ، الذين هم إخوانه كما يقول . ومما قاله له فى هذا السياق : « تعال أناقشك الحساب »[٢]، وهى عبارة شديدة العنف رغم وجازتها .

وفى ردّه على من ينتقدونه لكثرة ثنائه على نفسه وعلى مؤلفاته : «وأنا بعد هذا أسأل من يؤذيهم ثنائى على نفسى ... : متى يجاهدون فى الأدب كما أجاهد ؟ ومتى يعانون فى سبيل الأدب ما أعانى ؟ أين الزميل الذى يقول إنه أحرص منى على الوفاء بحقوق القلم البليغ ؟ وأين الشخص الذى يملك الزعم بأنه نفعنى ؟ ومن هو الروح الطاهر الذى يطمع فى السيطرة على شيطانية روحى ؟ كانت الغاية عندى أن أقيم الدليل على أن لوَطَنى وجوديةً تحميه من الأباطيل ، وكانت حياتى شاهداً على صحة ما ابتغيت ، فما استطاعت قوة أن تهدمنى ولا جاز فى وهم

(١) المرجع السابق / ٢٨٦ .
(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٧٢ .



مخلوق أن يرانى من أتباعه ولو كان أعظم العظماء . أنا أخاطب رجلا هو الأستاذ المازنى . أخاطب رجلا يسره أن يعلم أنى أسيطر على شآبيب من الدواهى المواحق وسأصبها على أعدائى حين أشاء . إن أدبى من صنع الله ، وثقة الجمهور بأدبى من فضل الله ، ولن أرتاب لحظة فى أنى أول كاتب وأول مؤلف وأولِ شاعر فى هذا الزمان . هاتوا برهانكم يا خصومى إن كنتم صادقين ! هاتوا برهانكم ، هاتوه إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام . أنا أثنى على نفسى ؟ هو ذلك لأنى أسهر الليل فى مسامرة قلمى ، لأنى أومن بأن الاعتماد على الماضى هو ثروة السفهاء من الوارثين . سنلتقى غدا وبعد غد ، وسيكون صرير الأقلام أخطر من قعقعة السيوف . وإلى اللقاء ، ولعله قريب »[١].

وكان يقول لأنطون الجميّل[٢]، الذى كان كاتبنا يرى أنه متمكن جدا فى اللغة العربية : « لقد أجرمت يا أنطون باشا فى حق نفسك . ولو كان لى شىء من الأمر لأصدرت أمراً عسكريا بإخراجك من جريدة «الأهرام» وفرضتُ عليك أن تنقطع للأدب كما كنت فى ماضى أيامك»[٣].

ورداً على حماسة الدكتور أحمد زكى أبو شادى لفرويد وآرائه فى الجنس يقول زكى مبارك : « قرأت مقالة الدكتور أبو شادى عن فرويد

(١) المرجع السابق / ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢) الذى كان رئيس تحرير « الأهرام » فى فترة من فترات تاريخها .
(٣) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٣٤ .

فلم تُرْضنى ، وقرأت له مباحث عن الدين فلم تُرْضِنى . وما أحب أن يتورط فى مسائل تفسح المجال أمام الدساسين ، وما أحب له أن يفتح أعيننا على مأساة جديدة فى عالم الأخلاق . سأحاسب الدكتور أبو شادى على مقاله بأقسى ما يكون العنف ، ولكن على شرط يتيح له الدفاع عن نفسه فى حدود المنطق »[١].

وفى ختام ردوده على مقالات أحمد أمين فى مجلة « الثقافة » فى ١٩٣٩م عن « جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى » يقول الكلمة التالية الموجعة : «أما بعد فقد أنهيت القول عن محاسبة الأستاذ أحمد أمين بعد أن أرَقْتُ جفونه خمسة أشهر كألْفَيْ سنة مما تَعُدّون»[٢].

وفى اجتماع للجنة إحياء الأدب العربى يحكى زكى مبارك أن إبراهيم مصطفى قال له أثناء مناقشتهم فى اللجنة طبع كتب النحو : «أنت يا دكتور زكى لا تعرف النحو» ، فكان ردّه عليه : « اسمع يا أستاذ . أنت أخذتها بالنبوت ، وأنا سآخذها بالمسدس »[١][٣].

وبمناسبة « النبوت » نذكر أنَّ جريدة « الفيوم » غضبت ذات مرة

---

(١) جريدة « البلاغ » / ٢٣ أغسطس ١٩٣٦م . وفى هذا المقال يسأله قائلاً : « أنت الذى قلت فى مجلتك بوجوب هدم الأزهر وهدم الكنيسة لينحيا المصريون حياة مدنية؟ أتعرف النتيجة أيها المسلم الذى اسمه أحمد بن محمد والذى يرتفع نسبه إلى الحسين ؟ تكون النتيجة أن يُهْدَم الأزهر ثم لا يُبْنَى أبدا ، لا قدر الله ، أما الكنيسة فتُهْدَم ثم تُبْنَى من جديد على قواعد أمتن وأرسخ » .

(٢) من مقال له بمجلة « الرسالة » فى ١٣ نوفمبر ١٩٣٩م .

(٣) الأسمار والأحاديث / ١٨٣ .



لكلام زكى مبارك عن الموال المشهور حول « بُلْطيّات » بحر يوسف (بالفيوم) وتناولته بالقول العنيف ظنا منها فيما يبدو أنه يعرّض ببنات الفيوم ونسائها ، فردَّ زكى مبارك قائلا بأسلوبه العنترى الظريف : « يا محرر جريدة «الفيوم» ، إن كان ساءك أن نفسر الموال بالطريقة الرمزية فانتظر فنشرح ما يتصل ببلدكم من الرمزيات ، حتى العنب والتين ! واحذر أن تعرض مرة ثانية إلى ذكر سنتريس بسوء ، وإلا فسأجرد عليكم حملة فيها عشرة آلاف نبوت ! وقد أعذر من أنذر ، والسلام »[١].

حتى العقاد المعروف بشدة بأسه فى المعارك الأدبية ينبرى الدكتور زكى مبارك له مؤكداً أن عبارة « الكاتب الجبار » ، التى قالها سعد زغلول ، لم يكن مقصوداً بها العقاد بل عبد القادر حمزة . ثم يضيف كاتبنا قائلا : « إنْ كَتَبَ الأستاذ العقاد حرفا فى تكذيب هذا الكلام فسيكون لى معه كلام ... سأصفح عن هذا الأديب ، فما نبنى أديبا مثله إن هدمناه »[٢].

وقد كانت هذه التهديدات والقعقعات المدوية سببًا فى أن أطْلِقَ عليه: « الملاكم الأدبى فى ثقافتنا الحديثة » . وينضاف إلى هذه السمة فى أدبه أنه لم يكن يتورع أحيانًا ، شأن كثير من معاصريه من الأدباء

---

(١) المرجع السابق / ٣١٢ - ٣١٧ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٢٨ .

والكتاب ، عن استخدام لغة عنيفة لا تبالى أن تكون شتما وتحقيراً ، إذ يصف خصومه بالجهل والغباء والسفاهة وعامية الفكر والرياء فى الدين والأخلاق ... إلخ . ومن ذلك على سبيل المثال أنه فى مقدمة كتابه عن « الأخلاق عند الغزالى » يقول : « لست ممن يخافون فى الحق لومة لائم أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ولغو اللاغين من مرضى القلوب وضعاف العقول وصغار النفوس ، وإنما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ويختلق المفسدون »[١]. وفى رده على من انتقدوا كتابه «مدامع العشاق» ، وهو كتاب يدرس ما فى الشعر العربى من تغنّ بالجمال وصبابه وهجر وتلويع ، كتب يقول : « أيريد جماعة ممن أظلمت الدنيا فى وجوههم وعَمُوا عن صنع الله ، الذى أتقن كل شيء ، أن أسايرهم فى جهالتهم فلا أكتب فى غير ما يروقهم من ذم الدنيا والتبرم بالوجود ؟ ... يقولون إن « مدامع العشاق » التى أنشرها فى جريدة « الصباح » مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال وما له من الأثر فى تهذيب النفوس وتثقيف العقول، ويهددون ويوعدون بالويل والثبور إذا أنا مضيت فى هذا البحث الشائق الطريف ، فهل حسب هؤلاء السفهاء أنى أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون ؟ ... وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا يملّون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة ! لهم الويل ! وهل الإنسان إلا لُباب الطبيعة

(١) الأخلاق عند الغزالى / ١١ .



وسرّها المكنون ؟ »[١].

ويقول مخاطبًا طه حسين : « أتحسب أن الوظيفة تحولنى إلى رجل جبان كما فعلتْ بك فى الأيام السوالف ؟ »[٢]. ويقول رداً على من استنكروا منه أن يصف طه حسين بالجهالة : « نعم ، طه حسين جاهل أشنع الجهل ... فليس فى مصر من يعرف مواطن جهله كما أعرف ... ومن الواجب أن يسبق المصريون إلى كشف القناع عن وجهه قبل أن يتقدم أدباء الشرق فيعيّرونا بسيطرة هذا الجاهل على الحياة الأدبية ... إن طه حسين لا يصلح لشيء ولا ينقاد له إلا الجهلة ... كنا نحب أن نستر أمر هذا الجهول لو كانت مصر أقفرت من الرجال ... وسأريكم من جهله ما تعذرون به كل من يكشف عنه ... إن الجاهل طه حسين أخطأ خمس مرات فى محاضرة واحدة ... وطه حسين يعجز أشنع العجز عن إصلاح التحريف لأنه جاهل »[٣].

وفى تفنيده لتقسيم أحمد أمين الأدب إلى أدب معدة وأدب روح وزرايته على الأدب الذى يهتم بمطالب المعدة نراه يقول هذه العبارة القاسية : « والسخرية من المعدة لا تقع إلا من رجل يفكر كما يفكر الأطفال »[٤].

(١) مدامع العشاق / ١٢ ـ ١٤ .
(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٢٢ .
(٣) المرجع السابق / ٤٣ ـ ٤٧ .
(٤) من مقاله فى مجلة « الرسالة » / العدد ٣١٢ .

وعندما يتناول محمد أحمد الغمراوى بالنقد كتابه « النثر الفنى » ويتهمه فى دينه يرد عليه بمقال جاء فيه : « ولو أنى وثقت بأن كلامى يُنْشَر فى الرد عليه لوضعتُ وجهه فى الحضيض لأنى فى نظره ملحد ولأنه فى نظرى جهول »[١].

ويكتب الدكتور أبو شادى مقالا عن البعث يُفْهَم منه أنه ينكره فيوجه الدكتور زكى إليه هذه الكلمة العنيفة : « أيها الصديق العزيز ، أنت أخطأت وأخطأت ، وأنا أدعوك إلى الاعتذار عما كتبت لأنه لا يليق بك أن تخرج على قواعد المنطق والذوق »[٢].

وممن سلقهم بشتمه د. عبد الرزاق السنهورى ، الذى كان وزيراً للمعارف ، وكان عليه أن يلقى كلمة فى حضور الملك أثناء وضع حجر الأساس للمدينة الجامعية ، وكان الطلبة سيحضرون هذا الحفل ، ولكن عُدلَ عن ذلك خوفًا من أن يقوموا ببعض أعمال الشغب . ولْنترك زكى مبارك يصف ما وقع : « لم يحضر الحفلة غير الوزراء . وكان السنهورى فى غفلة عما وقع[٣]، وهو من أكابر الغافلين ، فابتدأ خطبته بالعبارة الآتية : « أبنائى طلبة الجامعة » ... »[٤].

---

(١) الرسالة / العدد ٥٧٠ .

(٢) من مقاله فى جريدة « البلاغ » فى ٣٠ أغسطس ١٩٣٦م .

(٣) يقصد أن الطلبة قد مُنعوا من حضور الاحتفال .

(٤) ألحان الخلود / دار الكتاب العربى / القاهرة / ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م / ٦٥ . وهذا الكلام قد حذفته ابنته كريمة من الطبعة الثانية هو والشتائم التى وجهت إلى على الجارم والتى سنعرض لها حالا .



أما الشاعر والقصاص على الجارم فلعله كان أوفر خصوم زكى مبارك نصيبًا من شتائمه ، إذ وصفه بـ « الكذاب » و « الفتى المياس » و«الجبان» ... إلخ : « يا جارم ، أنت تغتابنى فى كل مكان ، ولن يشفيك الله من داء الاغتياب ، وهو من أمراض النساء ... كان الجارم يُنْتَدَب للإشراف على الامتحان النهائى لطلبة دار العلوم ، فكان الطلبة يعرفون طبيعته الجديرة بالاستغفال . الجارم يزعم أنه من رشيد ، وهو كذاب كذاب ، فإن أهل رشيد عُرِفوا بقوة الشكيمة ولم يُعْرَف هو بغير الانحلال . وحين زار الخرطوم ... ألقى قصيدة طنانة فى مدح الإنجليز ... وليس له ماض فى الوطنية ... وقد لطف الله بالوطنية فصانها من ميوعة هذا الفتى المياس ... أما بعد فهذا هو الجارم الذى يغتابنى فى كل مكان ، والذى يلقانى بالترحيب حين يرانى لأنه جبان »[١].

كما أنه فى مقالاته عن « جناية أحمد أمين على الأدب العربى » قد اتهمه مرات بالجهل وعامية التفكير[٢]، وذلك رغم الصداقة الوثيقة التى كانت بينهما ورغم الثناء الكثير الذى كان يوجهه إلى الرجل فى هذه المقالات نفسها[٣].

بل إنه لا يتورع ، وهو يغازل « ليلاه » المريضة فى العراق ، أن

---

(١) المرجع السابق / ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ .

(٣) المرجع السابق / ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٤٨ .

يوجه إليها ( كما توجه هى أيضًا إليه ) بعض الألفاظ القارصة ، فهى مثلا تقول له : « أما آن أن تعقل يا فاجر ؟ » ، فيرد لها التحية قائلا: « أنت الفاجرة »[١]. وهو يقول لها : «اسمعى يا حمقاء» فيكون جوابها: « أنت وحدك الأحمق » . وبعد قليل يخاطبها بقوله : « لم تفهمى كلامى يا بلهاء »[٢]. وفى موقف آخر يقول عن بعض التصرفات التى وقعت منها : « ما وقع منى ما وقع إلا لأنى أحمق ، ولا وقع منها ما وقع إلا لأنها حمقاء »[٣]. ولابد أن نسارع إلى توضيح أن « ليلى » هذه ليست إلا شخصية فنية لا وجود لها فى عالم الواقع . بيد أن الشواهد التى سقناها هنا من كلامه عنها تظل فى محلها ، إذ هى دليل على أنه لم يكن يتحرج من استعمال الألفاظ القارصة حتى مع حبيبته الوهمية .

ومع ذلك ينبغى أن نضيف أن زكى مبارك لم يكن يكتب بهذا الأسلوب إلاّ فى ردّه على من آذَوْه أو اعتدَوْا على القيم الغالية لديه ، وإلاّ فله كتابات أخرى يغضى فيها عن الهجوم عليه ويتلطف فى الردّ إلى حد كبير ، اللهم إلاّ إذا لم يتوقف الطرف الآخر عن هجومه فعندئذ يفقد زكى مبارك صبره ويبادله هجومًا بهجوم ، لكنه يظل مع ذلك أخف

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٢٢٦ .
(٢) المرجع السابق / ٢٤٨ .
(٣) السابق / ٣٠٠ .



من ردوده الأخرى ، وذلك مثل معركته مع أحمد زكى شيخ العروبة وحسن القاياتى وبعض ما كتبه فى الرد على العقاد وعلى سلامة موسى، الذى وقف من قبل يسانده عندما أخرج من الجامعة بسبب الدكتور طه حسين ، ومع ذلك فإن زكى مبارك لم يسكت على ما قاله سلامة موسى بل فنّد آراءه وبيّن تهافتها . كل ما هنالك أنه لم يلجأ إلى الشتم والتحقير[١].

وعند زكى مبارك سخرية كثيرة ، وهو بارع فى استعمالها إلى مدى بعيد . وقد تكون هذه السخرية ملفوفة يقول ظاهرها شيئًا وباطنها شيئًا آخر ، إذ يبدو كاتبنا وكأنه يمدح الشخص بينما هو فى الحقيقة يهزأ به . ومن سخريته قوله يخاطب الغزالى ، الذى يقول عنه إنه كان يعدّ الفقه من علوم الدنيا ، وهى حقيرة فى نظره ونظر المتصوفة عامة : « صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبى كان فقيها ، وكانت شريعته فقهًا »[٢]، وكأن الغزالى يمكن أن ينسى أن النبى كان فقيها . كذلك يضحكنا مخاطبة أديبنا لهذا الإمام الجليل بـ« يا مولانا الأستاذ » ، تلك العبارة التهكمية العصرية . وتعقيبًا على مجموعة الآداب التى ينبغى فى نظر أبى حامد أن يأخذ بها المؤمنون أنفسهم حتى

---

(١) انظر معاركه مع هؤلاء فى كتاب « المعارك الأدبية فى مصر » لأنور الجندى ، وكتاب محمد جاد البنا « المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه » .
(٢) الأخلاق عند الغزالى / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

يصيروا من المتوكلين ( ومنها أن المتوكل إذا خرج من بيته واضطر إلى ترك شيء فى البيت فعليه أن ينوى الرضا بما يقضى الله فيه من سرقة ، وإذا عاد ووجده قد سُرِق فعلاً فلا يحزن بل يفرح إذا أمكن ولا يَدْعُ على السارق وإلا بطل توكله ويشكر الله أن جعله مظلومًا لا ظالمًا ويغتمّ للسارق أن عرَّض نفسه لعذاب الله ) نرى زكى مبارك يقول متهكما وله كل الحق : « وما أدْرِى ما الذى أنسى الغزالى أن يحضّ المتوكل على أن يَترك باب البيت مفتوحًا ، وأن يعلق عليه لوحةً مكتوبًا فيها بخط واضح وجميل : « من أراد أن يأخذ شيئًا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب بل مجزيّ بما مكَّن صاحبَه من صنع المعروف ! » ... »[١].

وانظر إليه وهو ينتقد محاضرة ألقاها الدكتور طه حسين فى الجامعة الأمريكية فى منتصف العشرينات قائلا له : « الدكتور طه رجل مكسال، وسأتولى توجيهه إلى الدرس عساه يستفيد » ، ثم يعقب قائلاً: «وأنا أؤكد لكم أن الدكتور طه لا يخلو من الاستعداد للفهم»[٢]. إنه يتظاهر بأنه يحترم غريمه . أفليس يخاطبه بلقب « الدكتور » ؟ كما أنه يتظاهر بمدحه . أليس قد قال إن عنده استعداداً للفهم ؟ على أن الواقع إنما هو من ذلك على النقيض ، إذ إن الدكتور الحق لا يقال فيه إن عنده استعداداً للفهم ، وإنما يقال ذلك للأطفال والصبيان والشُّدَاة . ومثل

(١) المرجع السابق / ١٨٨ .
(٢) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٦٨ .



هذا قوله فى مناسبة أخرى : « والدكتور طه فيه شيء من الذكاء »[١].

ويتظاهر زكى مبارك أيضًا بالإشفاق على طه حسين فيقول : « يعزّ عليَّ والله أن يكون هذا مصير طه حسين ، ولكن هذا الرجل هو الذى يقضى على نفسه بلا رحمة وإشفاق » . ولو كان مشفقا عليه حقًا لما هاجمه ولَنَبَّهه فى السر إلى ما يرى أنه وقع فيه من أخطاء . وكيف يكون مشفقًا عليه وقد عقَّب على ذلك قائلاً : « ويرحم الله من قال :

لا يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

عصمنا الله من الزيغ ، وكتب لنا السداد والتوفيق » ؟[٢] إن هذا ليس كلام المشفقين بل كلام الفاضحين المتربصين .

ومن تهكمه كذلك بطه حسين قوله فى مقدمة « النثر الفنى فى القرن الرابع » ، الذى هاجم فيه عدداً من آراء الدكتور طه مهاجمة عنيفة : «أما الدكتور طه حسين فما أدرى والله ما ذنبه حتى يهاجَم أعنف الهجوم فى هذا الكتاب ! إن هذا الرجل تربطنى به ألوف من الذكريات يرجع بعضها إلى العهد الذى كنتُ فيه طالبًا بالجامعة المصرية القديمة يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم فى امتحان الطلاب ، فقد ساعد مرة على إسقاطى فى امتحان الجغرافيا ووَصْف الشعوب ، وأسقطنى مرة ثانية فى امتحان الشرق القديم . والسقوط فى الامتحان

(١) المرجع السابق / ١٤٦ .
(٢) السابق / ٦٩ .

مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف »[١]. وعجيب أن يؤكد زكى مبارك بل يقسم بـ « والله » إنه لا يدرى السبب فى الهجوم على طه حسين فى كتابه ، إذ من يدرى إذن ؟ وعلى أية حال فإذا كان زكى مبارك لا يدرى لم هُوجِم طه حسين فى « النثر الفنى » ، وكأنه كتبه وهو مسحَّر أو منوَّم أو فاقد الإرادة أو كأن أحداً آخر قد دسَّه فيه دسّاً ، فما الذى كان يمنعه بعد ذلك أن يحذف هذا الهجوم بعدما تنبه إلى ما فيه من عدوان على الرجل وظلم له ؟ وعجيب كذلك أن يقول إن طه حسين عندما أسقطه فى الامتحان كان يصطنع العدل ، وإن بدا أنه ظلم ، ثم يتمادى فى التهكم قائلاً إن السقوط فى الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص للأستاذ المنصف . فهل هناك أحد يحب أن يرسب ، فضلاً عن أن يكون هذا « الأحد » هو الطالب زكى مبارك الذكى المتفوق الذى لم يكن يستحق هذا الترسيب ؟

وحين يعرض الدكتور طه حسين لكتاب « النثر الفنى » فى مقال له بـ « الرسالة »[٢] ويصفه بأنه « كتاب من الكتب » أخرجه « كاتب من الكتاب » يرد عليه زكى مبارك بمقال فى « البلاغ » يشير فيه إلى النقد الذى كان قد انتقد به طه حسين فى ذلك الكتاب ، قائلاً فى تهكم: « يا دكتور طه ، ما أسأتُ إليك بل أحسنت إليك بعض الإحسان حين

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ١٣ - ١٤ .
(٢) بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٣٤م .



دللت القراء على أنك لم تبتكر ما تورطت فيه من الأخطاء ، وإنما أخطأه جماعة من المستشرقين فتبعتهم بلا روية »[١]. إن الدكتور زكى يدَّعى أنه قد أحسن إلى طه حسين ، يريد أن يقول : « إننى أبرْئك من الأخطاء التى ترددها فى تأليفك ، فهى ليست آراءك ، ومن ثم فلا ذنب لك فيها » . بيد أن هذا هو ظاهر الحديث ، أمَّا باطنه فهو أن طه حسين يسرق آراء المستشرقين ولا يستطيع أن يمحص ما فيها من حق أو باطل ، وإلا لكان انتهب الصواب ونبذ الخطأ . أى أنه يرميه بالسرقة وعدم الفهم أو التمحيص ، ثم هو بعد ذلك يمنّ عليه مدعيا أنه أحسن إليه بعض الإحسان ، على حين أنه فى الحقيقة قد أساء إليه كل الإساءة .

أما السخرية فى النص التالى فموضوعها المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى ، الذى كان آية فى خفة الظلّ ولكنه كان دميم معارف الوجه. ولنسمع ما يقول الدكتور زكى مبارك : « فى ضُحَا يوم الأحد الماضى كنتُ أقلّب بعض الأوراق فى سآمة وملالة ، ثم دق جرس التليفون فأنِستُ به وقلت : « لعله موعد غرام ! » ، ولكنى فوجئت بما أخْلَفَ فاتن الظنون ، فقد كان محدّثى خليفة الجاحظ فى جمال الوجه ، وهو الأستاذ عبد العزيز البشرى ، أثابه الله ! »[٢]. وحتى يضع القارئ هذا الكلام فى إطاره النفسى والتاريخى نقول إن عبد العزيز البشرى قد

(١) محمد جاد البنا / المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه / ١٩١ .
(٢) الأسمار والأحاديث / ٣١٨ .

هاتف الدكتور زكى مبارك ليبلغه سخطه على ما قاله من أن « شرح نهج البردة » المنسوب للشيخ سليم البشرى ( والد الشيخ عبد العزيز ) هو فى الحقيقة للابن لا الأب ، وأن عبد العزيز البشرى حينما سمع هذا الكلام من زكى مبارك سكت سكوت الموافق[1] . ولعل من المفيد والممتع أن ننقل أيضًا الفقرة التالية التى جاءت عقب الفقرة السابقة حيث قال أديبنا : « لا تسأل كيف كان الحديث ، فإنه فوق الوصف . لك أن تتصور أنه كان عنيفًا أقسى العنف ، ولولا أنى كنت أحدّثه فى منزلى وبين أهلى لانخلع قلبى من الرعب ، ولكن الله لطف وأحيانى حتى أدوِّن هذا الحديث ! » . إن زكى مبارك لا يقل عن المرحوم المازنى براعة فى تصويره وتعليقه الساخر . رحم الله الاثنين !

وقد كان لسلامة موسى موقف غريب من الأدب العربى القديم والمهتمين بدراسته ، إذ كان يرى أن الكتابة عنه مضيعة للوقت وأن الواجب توجيه الاهتمام إلى الكتابة فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية، فقال زكى مبارك متهكما على هذا اللون من التفكير : «الأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعى وليس بأديب ، واللغة عنده ليست إلا أداة تفاهم ، وكل تأنق فى العبارة والأسلوب يبدو لعينيه وكأنه لغو وإسراف . والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسًا مثل رأس الأستاذ

---

(١) انظر « أحمد شوقى » / ٢٦١ حيث يؤكد زكى مبارك أن عبد العزيز البشرى هو صاحب الشرح لا أبوه .



سلامة موسى . وهل فى الأدب القديم جنيهات وبورصات وصناعات واقتصاديات حتى يهتم به هذا الصديق الذى يضع على عينيه نظارة من ورق البنكنوت ؟ ولو نظرنا إلى الأهرام بعين الاقتصاد أو بعين سلامة موسى لرأينا سبّةً فى تاريخ مصر . والفراعنة الذين بَنَوْها فعلوا ما فعلوا فى غيبة البرلمان فى عهد « نسيم » ذلك الزمان ، وإلا فكيف يمكن لحكومة برلمانية أن ترضى بتسخير الفلاحين جميعًا فى إقامة بناء لا يدخله شمس ولا هواء ولا يصلح إلا للأموات »[1] .

وقد كتب محمد أحمد الغمراوى ، كما أشرنا أكثر من مرة فى الصفحات السابقة ، عدة مقالات يهاجم فيها زكى مبارك ويطعن فى إسلامه ، فردّ عليه كاتبنا ، وكان من بين ما ردّ به الفقرة التالية : « قال هذا الكاتب إنه لا ينبغى إلا أن يَعْرِفنى الناس فيَحْذَرونى وهذا القول مسروق من كلامى ، فقد نبهت الناس ألف مرة أن يحذرونى لأنى لا أبالى فى الحق أى ملام ولا ألتفت إلى أوهام المتزمتين »[2] . ووجه السَّخَر فى هذا الكلام تأكيده أن هذا القول مسروق منه هو ، فإذا كان الأمر كذلك فعلام يغضب زكى مبارك ؟ أليس الغمراوى قد قال فيه ما قاله هو فى نفسه ؟ كلا ، ليس الأمر هكذا . وإنما يريد زكى مبارك أن يقول إن الغمراوى لا يحسن شيئًا ولا يأتى بشيء من عنده ، بل كل ما يقول ويكتب مسروق .

---

(١) المرجع السابق / ٣٨١ ، ٣٨٧ .

(٢) الحديث ذو شجون / ٥٣٠ .

ثم يضيف مبارك عُقَيْبَ ذلك قوله : « ثم دعانى هذا الكاتب إلى التبرؤ من كتاب « النثر الفنى » . لبيك ثم لبيك يا كاتبًا يدعو إلى تبرؤ الآباء من نجابة الأبناء ! »[١]. وهذا أيضًا تهكم بل تهكم شديد رغم خلو الكلام من العنف والشتم . انظر إلى قوله : « هذا الكاتب » ، وهى عبارة تحقيرية . ثم انظر العبارة التالية : « لبيك ثم لبيك ! » ، التى يقصد كاتبنا العكس منها تمامًا ، وإلاَّ فهل يتبرأ الآباء من أبنائهم ؟ فما بالك إذا كانوا أبناء نجباء ؟

ويتابع زكى مبارك كلامه قائلاً : « كتاب « النثر الفنى » كتابى ، وقد استكثره ناس عليَّ فزعموا أنه من وحى الجن ، وليس بينى وبين الجِنّة نسب حتى أستوحى ما عندهم من آراء وأهواء ، فهو كتابى ، وقد سطرته بيمينى فى فورة شبابى ، ولن أتبرأ منه . ولو صرت إلى جهنم الحامية فسأكون به أشرف مذنب يصطلى نار السعير . وفى جهنم مكان للأحرار »[٢]. إن أحداً لم يزعم ، فيما نعلم ، أن « النثر الفنى » من وحى الجنّ ، فلِمَ قال زكى مبارك هذا وسارع إلى نفيه إذن ؟ إنه يقصد إلى القول بأن كتابه هو نتاج العبقرية ، فقد كانت العرب تجعل العبقرية من عمل الجنّ . أمّا مسارعته إلى نفى كونه من وحى الجنّ فليس معناه أبداً أنه ينفى عن الكتاب أن يكون من وحى العبقرية ، بل العكس هو الصحيح ، إذ هو يريد أن يقول : « إن عبقرية كتابى إنما هى منى أنا لا

(١) المرجع السابق / ٥٣١ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .



من الجنّ » . كذلك فالمعهود فى البشر أن يتبرأوا من النّار ، أما زكى مبارك فهو يرحّب بها . ترى هل كان يحب أن يصطلى بها حقًا ؟ لا ، وإن بدا فى ظاهر كلامه غير هذا ، وإنما هو يريد إلى القول بأنه رجل حرّ . أليست جهنم ، كما قال ، مكانًا لأحرار الرجال؟ أوليس هو ذاهبًا إليها ؟ إذن فهو من أحرار الرجال .

أما فى العبارة التالية فإن التهكم كامن فى مجرد استخدامه علامة من علامات الترقيم ، وهى علامة التنصيص التى وضع داخلها كلمة «ليس» ليبين للقارئ أنه لا يقصدها ، وإنما يقصد خلافها . ولتوضيح الأمر نقول إن زكى مبارك كان قد اعترض على أستاذه طه حسين فى إحدى المحاضرات ، ثم اعترض عليه فى المحاضرة التى تلت ذلك أعنف من اعتراضه الأول ، فأراد الدكتور طه أن يعقّب ، لكن أحد رجال الجامعة ، وكان حاضراً المحاضرة ، مال على أذن طه حسين « فأسرّ إليه بكلمات ، فانصرف الدكتور طه عن التعقيب ، ومضى فى المحاضرة الأساسية و « ليس » فى نفسه أشياء »[١].

وحين يكتب المازنى ذات مرة أن « الشعر لم يبق له فى الحياة الأدبية مكان » يرد زكى مبارك متهكما بقوله : « سيدنا إبراهيم يقول إن الشعر لم يبق له فى الحياة الأدبية مكان . أصحيح هذا يا سيدنا إبراهيم؟ »[٢]. والتهكم كله ، والظَّرْف كله ، والذكاء كله فى قوله :

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٣٣ .
(٢) ألحان الخلود / ٢٤ .

«(يا) سيدنا إبراهيم» . إن الدكتور زكى يستغل التشابه بين اسم المازنى واسم الخليل عليه السلام ، ومن ثم يناديه بـ « سيدنا إبراهيم » ، تهكما بما يقول ، إذ يصوره كأنه وحى أُنْزِل عليه من السماء ويجب الانصياع له وعدم المماراة فيه فى ذات الوقت الذى يفنّده ويهوّن من شأنه على نحو غير مباشر فيما يلى ذلك من عبارات .

وينشر زكى مبارك ذات يوم قصيدة فتُعْجِب بعض النقاد ولا تعجب بعضًا آخر . ومن هولاء الأخيرين محمد فهمى عبد اللطيف ، الذى غمزه أديبنا غمزة تهكمية خفيفة متلاعبًا باسمه ولقبه ، إذ قال : « إن القصيدة التى أُعْجِب بها الأستاذ عبد الحليم الغمراوى لم تعجب الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فكتب فى مجلة « الصباح » كلمة « لطيفة » قال فيها إنه لم يفهم شيئًا من القصيدة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن اسمه « فهمى » ... »(١).

ومثلُ هذه الغمزة التهكمية خفةً وظرافةً قولُه عن مصحح جريدة «البلاغ» الذى كان يراجع التجارب الطباعة لمقالاته : « أما أحمد سعيد فلا يزال فى جريدة « البلاغ » ، وهو الذى يصحح مقالاتى ليصل بها إلى أغرب معانى التحريف . جزاه الله « خير » الجزاء »(٢). وقد استعمل هنا نفس الحيلة الفنية التى استعملها حين تهكم بالدكتور طه مستخدما نفس علامة الترقيم ، فقد وضع هنا أيضًا كلمة « خير » بين

(١) المرجع السابق / ٩٢ .
(٢) السابق / ١٨٩ .



علامتى تنصيص إشارةً إلى أنه يقصد العكس .

وقد لجأ إلى هذا الأسلوب كذلك فى قوله عما فى ديوانه « ألحان الخلود » من قصائد هجائية لبعض الوزراء والشعراء المعاصرين له : «فى هذا الجزء هجاء لبعض الخلائق من وزراء وشعراء . وضميرى يؤنبنى على ذلك الهجاء ، ولكننى أبقيت عليه ليرى فيه الجمهور صوراً من العصر الذى « نَعِمْتُ » فيه بمعاصرة أولئك الوزراء والشعراء »(١).

وفى ختام رده على إيزاك شموسى المدرس بالجامعة العبرية وتمنّيه أن يختفى الوزن والقافية من القصيدة العربية ودفاعه عن إلحاد بعض الكتاب المصريين وتسميته إياهم بـ « شهداء الفكر » يقول زكى مبارك: « وخلاصة القول إن المسيو إيزاك شموسى رجل فاضل جدا . وهو يحب الخير للعرب وللمسلمين فيدعوهم إلى هجر القوافى المأثورة عن العرب القدماء لأنها أصبحت عتيقة ، ويدعوهم إلى هجر العقائد الدينية لأنها أمست بالية ، ويدعوهم إلى هجر اللغة الفصيحة لأنها لغة الأعراب. ورأيت من واجبى أن أنصح شبان العرب والمسلمين باتباع نصائح هذا الرجل المفضال ، ولا خوف عليهم من غضب الله وغضب الجمهور ، فسيتكلم عنهم هذا الرجل فى الجامعة العبرية ثم ينشر ثناءه عليهم فى «السياسة» الأسبوعية . أما بعد فأنا أعرف أن فى مصر وغير مصر ناسًا يسرّهم أن يكونوا من الشهداء ، ولكنى أرجو أن يفهموا الفرق بين الحظّين : حظ الشهيد الذى يندبه المسيو إيزاك شموس ، وحظ الشهيد

(١) السابق / ٣٣٤ .

الذى تبكيه لغة القرآن »[١] . وبطبيعة الحال لا يقصد زكى مبارك شيئًا مّما قاله بل يقصد عكسه على طول الخط . وهو بهذا الأسلوب يسخر من ذلك الصهيونى المتعصب على العروبة والإسلام ، ولكنه يراه أهون من أن يتكلف له شيئًا من الردّ الجادّ الذى يقرع الحجة بالحجة ، إذ ليس فى كلامه حجج بل شبهات متهافتة يحركها الحقد القاتل . الشيء الوحيد الذى لا ينبغى أن يؤخذ على عكسه هو تفرقة زكى مبارك بين نوعى الشهادة : الشهادة التى يندبها ذلك الصهيونى الرقيع ، والشهادة التى تُدْخِل صاحبها الجنة .

على أن الفكاهة فى كتابات زكى مبارك لا تقتصر على التهكم والسُّخر بل كثيرًا ما تكون ظرفًا خالصًا يُضْحِك دون أن يكون هذا الضحك على حساب أحد . يقول مثلاً عن مباراة شهدها فى كرة القدم وودّ لو شهدها بعض الشعراء حتى يصفوها : « فى ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب ، ولكن أين الشعراء ؟ إن ملاعب الكرة تقام فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهى لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غَدَاء العدس والفول ، وليس فى مصر شاعر يتخذ قُوته من الحب والنسيم »[٢] .

وذات مساء كان كاتبنا الكبير فى بيت عبد اللطيف الصوفانى

(١) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢) الموازنة بين الشعراء / ٣٤٩ .



الوكيل الثانى للحزب الوطنى ، وكان إلى جانبه الشيخ عبد ربه مفتاح ، الذى سأله وهو يشير إلى أحد الجالسين : هل تعرف هذا الرجل الجالس هناك ؟ فقلت : لعله مسكين من المساكين . فقال : هذا هو أحمد شوقى أمير الشعراء . مضيت للتسليم على الشاعر وقلت : فى جيبى ثلاثة جنيهات، وأنا أعطيها لك لتشترى بدلة تعفيك من هذه البدلة المبهدلة . وإن كنتَ حضرتَ لاستجداء الصوفانى بك فأنا أغنى من هذا الصوفاني. وأنا شاعر مثلك ، والشعراء كالفقراء يعطف بعضهم على بعض . ضحك شوقى ضحكة قوية وقال : هذه أول مرة أضحك فيها بقلبى ، وأحب أن أتشرف بمعرفة الأستاذ فقلت : أنا الشيخ زكى مبارك مَلِك الشعراء ، وأنت أمير فى مملكتى ، ومن واجبى أن أعطف عليك »[١] .

وقد اشتبك مرة فى معركة مع الشيخ عبد الله عفيفى ، الذى كتب يسخر منه فرد زكى مبارك قائلاً : « أما بعد فمن كان يظن أننا سنلقى درسًا فى النحو على فضيلة الأستاذ عبد الله عفيفى ؟ تلك والله أعجوبة الأعاجيب ، فالأستاذ لا يزال يحمل العمامة ، وهو فوق ذلك مدرس فى الأزهر ، والأزهر ، كما كنا نعهد ، معقل علوم العربية . ومثْلُ الأستاذ عبد الله عفيفى إذا دخل الأزهر وقفت لقدومه قواعد النحو صفًا صفًا ، فكانت المنصوبات فى جانب ، والمرفوعات فى جانب. وقد تصدمه «المجرورات» من شماله إذا دخل من الباب الذى كان يسمى

(١) أحمد شوقى / ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

«باب المزيِّنين » ... »[١]. ولست أجد إقذاعًا فى استعمال كلمة «المجرورات»، التى فسَّر محمد جاد البنا ما فيها من تورية بأنها تعنى أيضًا دورات المياه المتاخمة الباب المعروف بـ « باب المزينين » فى مبنى جامع الأزهر[٢]. إنما هى قفشة يراد بها الإضحاك لا الإقذاع . على أن الظرف كلّه والحُسْنَ أجمع إنما يكمن فى تصوير زكى مبارك لقواعد النحو وقد وقفت صفوفًا تستقبل الشيخ عفيفى إجلالاً له واحترامًا .

وقد ذكر أنه ، عندما كان ببغداد ، جلس مرة ليشوف بخته عند ضارب رمل كان يراه فى طريقه إلى مدرسة المعلمين كل يوم ، لكنه سرعان ما تذكر فى حسرةٍ واقعةً حدثت له على شاطئ ستانلى قبل سنوات كان هو فيها الذى يضرب الرمل وقد التفَّتْ الحسان حوله بملابس العوم يقرأ لهن كفوفهن . وقد صَوَّر بريشته الفاتنة ما حدث على النحو التالى : « ويلاه ! ماذا تصنع المقادير ؟ أنا أجلس أمام أحد الدراويش فى بغداد لأشوف بختى ، وأنا الذى غلبتُ الساحر الهندى على شاطئ الإسكندرية فى صيف ١٩٣٤؟ ليت أيامى تعود ! فما زلت أذكر كيف أعطانى ذلك الساحر الهندي عشرين ديناراً فى سبيل أن أترك له التفرد بقراءة الكف لمن يحج ذلك الشاطئ من الظبيات . وخلاصة القصة أنى ذهبت فى ضُحًا يوم صائف إلى خليج ستانلى ونزلت بثوب البحر إلى

(١) من مقال له فى « البلاغ » / ١٧ فبراير ١٩٣٣م .

(٢) انظر كتابه « المعارك الأدبية بين زكى مبارك ومعاصريه » / ٢٥٣ .



ملعب الغزلان فرأيت فقيراً هنديًا يقرأ الكف لفتاةٍ ناهدٍ تشبه أفروديت أو تشبهها أفروديت . فجلست بجانبهما جلسة الباحث المتعقب لا جلسة اللاهي اللاعب . وما هى إلا لحظات حتى قلت بصوت الواثق بصحة ما يقول : « على رسلك أيها الساحر ، فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف ، وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى . أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش المجهول ؟ » . فانزعج الرجل انزعاجا شديداً ، وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان . ونظرت الفتاة فى استغراب وقالت : « وحَضْرَتُك تعرف علم الكف ؟ » ، فقلت ، وأقسم ما قلت غير الصدق: « نعم ، أعرف الكف ، وهو خير ما تعلمت فى باريس » . فانعطفت الفتاة فى تخاذل وقالت : « تسمح تقرأ لى كفى ؟ » ، فأخذتُ يدها ونظرت إلى صدرها مرة وإلى عينيها مرتين، ثم شرعتُ أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين ، وما هى إلا دقائق حتى كنت ساحر الشاطئ. فهل تعود أيامى ؟ هل تعود ؟ أمرى إلى الهوى . وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع وأقبل يُسِرّ فى أذنى : « تتفضل بكلمة ؟ » فقلت : « نعم ». وانتحينا بعيداً عن أسماع الظباء فقال : « أعرف أنه لا يَفُلّ الحديد إلا الحديد ، وأعرف ثانيا أنى أعلم منك بقراءة الكف ، ولكنى واثق بالهزيمة إذا ناضلتُك لأنك تحدِّث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل . ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الكفّ ، وإنما تقرأ العيون ، ولا علم لهندى مثلى بلغة العيون » . فقلت : « وماذا تريد أيها الشيخ ؟ »، فقال : « أرجو أن تبيعنى هذا

الميدان » . وعندئذ تذكرت أنى موظف فى الحكومة المصرية وأن من الممكن أن يتعقبنى مندوب « آخر ساعة » أو مندوب « روز اليوسف » أو مندوب « الصباح » وأن من العقل أن أقبض ما يمكن قبضه وأترك الميدان .

- وماذا تقدّم يا شيخ ؟

- أقدم عشرة دنانير .

- أنا أترك لك هذا الميدان من أجل عشرة دنانير ؟ هيهات !

- يا سيد ، أنت فى وطنك ، وأنا غريب .

- ونحن لا نترك خيرات بلادنا للأجانب .

- أنا لست أجنبيًا بالمعنى البغيض لهذه الكلمة ، فأنا مسلم مثلك وأتكلم اللغة العربية .

- إنك رجل لبق يا شيخ ، ولكنى لا أترك هذا الميدان بعشرة دنانير .

- أنا لم أغنم من هذا الموسم غير أربعين ديناراً .

- أنت إذاً جهول ، ولو كنتُ مكانك لجمعت ألف دينار فى شهرين .

- هذا ما وقع ، وأنت تعرف يا سيدى أن عمل السحر صار قليل المكسب بفضل المقالات التى تُكْتَب ضده كل يوم . وأنت يا زميلى تعرف ما جنت علينا حذلقة أصحاب الجرائد والمجلات .

- إذن تدفع عشرين وتحفظ لنفسك عشرين .

فقبل الرجل وقدّم المبلغ ، فأخذته وانصرفت . وقد علمتَ بعد ذلك أن



عرائس الشاطئ شَكَكْنَ فى قدرته على فهم أسرار الكف فبارت سوقه وضاع . أما أنا فمضيت فى دراسة هذا العلم النفيس حتى تفوقت فيه ، ولكل مجتهد نصيب »[١] .

ولا أدرى مدى صحة هذه القصة ، فقد تكون وقعت على هذا النحو أو على نحو مقارب ، وقد تكون اخْتُرِعَت اختراعًا ، وهى فى كل الأحوال دليل على مدى الظرف الذى كانت تتمتع به شخصية زكى مبارك وبراعة الفن التصويرى الفكاهى لديه ، وبخاصة إذا وضعنا فى الحسبان أن الرجل لم يكن من صعاليك الصحفيين بل كان كاتبا وأديبا وشاعراً كبيراً ، ودكتورا « بالثُّلْث » فى الفكر الإسلامى والأدب العربى . وعلينا بعد ذلك ألا ننسى هذا الأسلوب العجيب الذى يجمع بين الحلاوة والسلاسة وبين المتانة والفحولة .

وهو يدَّعى أنه كانت له عيادة جعلها سامراً يلتقى فيها الأدباء كل مساءٍ ، وفيها تأسست بعض الجمعيات ، ومنها « نقابة المحبين »[٢] . وغريب أمر هذه النقابة ، إذ كيف يمكن أن تؤدى هذه النقابة وظيفتها ، والنقابات إنما تقوم على المباحثات ، والمؤتمرات والتظاهرات والمفاوضات

(١) هذه الرواية هى الرواية الموجودة فى « ليلى المريضة فى العراق » (ص٧٢- ٧٣) . وقد رواها زكى مبارك قبل ذلك بتلوينات مختلفة بعض الشيء وإضافات لم يذكرها هنا (انظر « الأسمار والأحاديث » / ١١٨-١٢٣) .

(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٤٦ .

مما لا يصلح لدنيا الحب والمحبين ، فأمورهم ترجع إلى العواطف التى لا علاقة لها بالمفاوضات والمباحثات ، إذ إن هذه تحور إلى العقل ، فهما إذن طريقان مختلفان .

وهذا الجنيُّ قد أراد ، كما أخبرنا فى « ليلى المريضة فى العراق » ، أن تروج سوقه فى عالم الفتيات فى باريس بعد أن ذاق مرارة الفشل معهن ، فغيَّر أسلوبه فى التقرب منهن لغزو قلوبهن ، فكان إذا لقى فتاة لم يحدثها عن عينيها وشفتيها ونهديها ، « وما أجمل نهود الفتيات فى باريس ! » كما يقول ، بل مضى يتكلم عن مصر وما فيها من نهضة حضارية وعلماءَ مبرِّزين فى كل الميادين . « وفى أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناى فى أعطاف الفريسة الحسناء ، فإن بدا لها أنْ تعترض على ما تقول عيناى أنكرتُ ما تقول عيناى . وهل كنت مسؤولا عما تقوله عيناى ؟ وما هي لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إنْ هذا إلا اختلاق . ومازلت أوغل فى المداهنة والنفاق حتى تقدمت إحدى الفتيات وقالت: « ما أجمل عينيك يا مسيو مبارك ! »، فتكلفت الغضب وقلت: « أنا أكره المزاح ! »، فطوقتنى بذراعيها وقالت : « أنا أحب الشبان العقلاء » ، فقلت : « وأنا أحب المجانين من الفتيات » . وكانت لحظة ستُنْصَب لها الموازين يوم الحساب ! »[1].

(١) المرجع السابق / ٥٥ .



وفى مناسبَة أخرى ، وكانت مأدبة بغدادية فيها بعض الكبار من رجال الدولة هناك ، يقول إنه قد انتظر حتى « علت قعقعة الشوكات والملاعق والسكاكين فرأيت إمرأة تحادثنى عن بُعْدٍ بعينين ترسلان أشعة العذوبة والحلاوة والرفق . ورأيت الفرصة سانحة لدراسة هاتين العينين لأضع عنهما فصلاً فى كتاب « سحر العيون »[1]، الذى شرعت فىَ تأليفه منذ أعوام . وحضور هاتين العينين زاد اقتناعى بفوائد المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الطبية . وسأكون بإذن الله عضوا فى جميع المؤتمرات لأجد المواد الشائعة لكتاب « سحر العيون » . ورأت المرأة أنى أسأت الأدب فصوبّتْ سهام عينيها لتقتلنى ، ولكنها لم تفلح ، فقد حاربتنى قبل ذلك عيون وعيون ثم نجوت . ولو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس »[2]. ترى هل سمع أحد بضريح يؤمه العشاق خاصةً من دون الناس أجمعين ؟ أو هل سمع أحد بشهيد خرَّ صريع العيون ؟ أو سمع برجل جاشت نفسه بالشفقة على فتاة مسكينة عاطلة عن الجمال فرأى أن يتصدق عليها بـ ... بـ ... بماذا ؟ لِنَدَعْه هو يقول : « عثرتُ فى الطواف ( يقصد الطواف فى حفل راقص فى بغداد ) على فتاة خشنة جافية تصلح لأن تكون مديرة لإحدى المدارس الثانوية ، ولكنها لا تصلح لأن تكون غادة فى مرقص ، فقلت فى نفسى : « ما

(١) ليس لهذا الكتاب وجود ، إنما هى كذبة فنية .
(٢) السابق / ٩٨ .

الذى يمنع من التصدق على تلك الفتاة بقبلة أو قبلتين ؟ » . وأنا فى الحقيقة « رجلُ إنسان » كما يعبر أهل القاهرة، أو « رجل آدمى » كما يعبر أهل دمشق وأهل بغداد ، وما أذكر أبداً أن سائلاً سألنى وخيَّبْتُه . وأنا لا أستحى من الجود بالقليل لأنه على كل حال أفضل من المنع ، وقد أكرمنا الله بالغنى ، فمن اللؤم أن نكون بخلاء »[1].

وفى أثناء وصفه لـ « حديقة الشعب » ببغداد يقول : « وفى طرف من أطراف تلك الحديقة رأيت نبات « الهُعْخُع » ، الذى يُذْكَر فى مقدمات كتب البلاغة . وقد بلَّغته تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف »[2]. وقد ذكر أساتذة الأزهر بالذات لأن اسم هذا النبات يُذْكَر فى كتب البلاغة القديمة التى تُدْرَس فى الأزهر كمثال على الألفاظ الحُوشِيّة المتنافرة الحروف التى يصعب نطقها على اللسان ، وذلك فى الشاهد التالى الذى يحكى أن رجلا سأل أعرابيا عن ناقته ، فكان جوابه : «تركتُها ترعى الهُعْخُع » . وعبارة « بلَّغته تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف» تعنى أن هناك مودة بينهم وبينه واشتياقًا منهم إليه ، وأنه يفهم التحية ويردّ مِثلها . فأنَّى هذا ؟ إن ذلك هو وجه الظرافة والفكاهة فى الأمر .

وفى أحد لقاءاته بليلى حبيبته فى العراق ( وهى شخصية وهمية فيما هو واضح ، أو على الأقل رمزية ) « أخذتْ ... تبكى بكاء أحرَّ من بكاء الأطفال ، وكانت تنتظر ، ولا ريب ، أن أشرب دموعها كما

(١) السابق / ١٠٦ .

(٢) السابق / ١٩٩ .



شربت دموع الباكية السمراء . ولكنى تخوفت العواقب ، وأنا أعقل فى بعض الأحيان .

- من أى صخرة قُدَّ قلبك يا دكتور ؟

- إن قلبى قُدَّ من الجلاميد التى صيغ منها قلبكِ الرقيق !

- وما الذى أنكرتَ عليَّ حتى تتهمنى بالقساوة ؟

- يسوؤنى ألا أظفر منك بما يظفر به الكلاب من سادتهم ، فالكلب يعبِّر عن عواطفه باللحس والعض .

- تريد أن تلحسنى وتعضنى ؟

- أريد أن ألتهمك مرة واحدة ليصير كيانك كلّه نقطة من دمى .

- ثم ماذا ؟

- ثم أصير أشعر الشعراء .

- كن ، إن شئت ، أشعر الشعراء »[1].

ومعنى هذا أن يلحسها ويعضها ويلتهمها مرة واحدة ويصير كيانها كله نقطة من دمه . ذلك أنه قد علق صيرورته أشعر الشعراء على هذا ، فكان جوابها عليه : كن أشعر الشعراء إذا شئت . تعنى أن بإمكانه ، إذا أراد ، أن ينال منها مشتهاه . والفكاهة فى هذا النص تذكرنا بأشياء مماثلة عند المازنى .

(١) السابق / ٢٢٧ .

ويقول عن انصرافه ، فى فترة من فترات نشاطه التأليفى ، عن الكتابات الغزلية واهتمامه بالأمور العلمية الجادة فى المجالات المختلفة :

«كنت أريد بهذا الكفاح المختلف الألوان أن أصرف قلبى عن هوى اللَّيْلَيَات، ولا سيما بعد ظهور كتاب « التصوف الإسلامي» . وهو كتاب يرشحنى لمشيخة الأزهر الشريف إن احتاج الأزهر إلى شيخ يفهم أسرار الفلسفة الإسلامية . ولكن هذا التعقل لم يدم طويلا ، فقد نشرتُ فصلين بمجلة « الرسالة » عن بعض غرامياتى فى باريس ، وبهذين الفصلين ساءت سمعتى من جديد فى بيئات المنافقين من عباد الله الصالحين »[١]. أمَّا كيف يكون الإنسان منافقًا وهو من عباد الله الصالحين فعلم ذلك التناقض المضحك عند الله وعند زكى مبارك ، يرحمه الله ! كما أن ترشيح كتاب « التصوف الإسلامى » لأديبنا لتولى مشيخة الأزهر هو من الأمور الطريفة ، فقد كان زكى مبارك آخر من يصلح لهذا المنصب بما عُرف عنه من بوهيمية وخروج على كثير من أوضاع الناس ومواضعاتهم ، وكذلك جرأته واقتحاماته فى عالم الفكر .

وفى العبارات التالية مقارنة بين الرسول محمد وأبى البشر آدم ، عليهما جميعًا السلام . وهى مقارنة غاية فى اللطف والطرافة : « إن المزية الصحيحة لنبى الإسلام هى أن يقترن بتسع نساء ثم لا يضلّ ، مع أن آدم اقترن بامرأة واحدة فأنزلته من السماء إلى الأرض وقهرته على

(١) السابق / ٣٨٧ .



أكل الفول بعد أكل التفاح »[١]. واللطافة فى هذه المقارنة أنه لا فرق فى الحقيقة بين آدم ومحمد عليهما السلام ، إذ إن آدم هنا إنما يمثل الجنس البشري كلّه ، بمعنى أنه لو كان رسولنا فى مكانه لكانت النتيجة هى هى. ثم من أدرى زكى مبارك أن آدم كان يأكل تفاحًا أو برقوقًا فى الجنة؟ وهل عرف آدم الفول ؟ إن هذا « آدمُ » مصريّ لا « آدمُ » الذى نعرفه ونقرأ عنه فى القرآن الكريم والأحاديث المشرّفة. وبطبيعة الحال لا يقصد زكى مبارك كلامه هذا على ظاهره بل يريد أن يقول إن البشر حينما طُردوا من الجنة وأُهبِطوا إلى الأرض قد انتقلوا من النعيم إلى الشقاء ، بيد أنه أعطى هذا المعنى نكهة مصرية صميمة بذكره التفاح والفول .

وهو يسمى عمر بن أبى ربيعة « سيدنا عمر بن أبى ربيعة ، رضى الله عنه »[٢]، ويقول عن إبليس : « صديقنا الشيطان »[٣]. ولا تخفى إيحاءات هاتين التسميتين الفكاهية على أحد . كما يعلّق على وصف الزيات لمقالته هو الافتتاحية التى كان يكتبها فى « الرسالة » بأنها «بقلم كاتب كبير » بكلمة واحدة فقط هى كلمة « صَدَقَ »[٤]، هكذا حاسمةً باترة . وهل ثمة شك فى أن زكى مبارك كاتب كبير ؟ فعلاً لقد «صدق» الزيات ، وهى من قلم زكى مبارك عن نفسه قد بلغت غاية الظرف والعذوبة .

(١) السابق / ٣٩١ .

(٢) السابق / ٤٢٨ .

(٣) السابق / ١٧ .

(٤) ألحان الخلود / ٣١ .

وأخيراً نختم بهذه الكلمة التى يعابث فيها نفسه معابثة بلغت القمة فى الصفاء ، إذ يقول إنه عرض بضعة أبيات على أحد معارفه من الشعراء فقال له إنها مأخوذة من البيت الفلانى للدكتور زكى مبارك ، فكان رده عليه : « أنا أسرق من الدكتور زكى مبارك ؟ ومن هو الدكتور زكى مبارك حتى أسرق منه وهو أسطورة من الأساطير ؟ »[١] .

ومن سمات أسلوب زكى مبارك كثرة تكراره للجزء الأول من عدة جمل متتابعة ، وهذا يقع عادة عندما يريد أن يؤكد معنًى ما ، وكذلك عندما تهتاج عواطفه ويتحمس لفكرة من الأفكار ... إلخ . لننظر مثلا كيف يكرر كلمة « أبو فراس » فى مطلع الجمل الست التالية : « ولغة العرب مدينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات ، أبو فراس الذى وصف الضعف الإنسانى أجمل وصف وشرحه أحسن شرح ومثّله أصدق تمثيل ، أبو فراس ضحية الكبرياء .... أبو فراس الوتر الحنّان الذى خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين ، أبو فراس الذى أبكى كل عين وأحزن كل قلب وشغل كل بال ، أبو فراس الأسد الذى استعذب الدمع بعد الزئير وعلمته الليالى كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجال »[٢] . وواضح نبرة الإعجاب الحادة بالشاعر الفارس المغوار فى هذه العبارات .

---

(١) قصائد لها تاريخ / ١١٢ .

(٢) الموازنة بين الشعراء / ٣٢١ .



وفى الفقرة التالية ، وهى فى الحديث عن ابن عربى ورؤاه وتأويله لها تأويلات حسية، نراه قد كرر عبارة « إليكم هذه الرؤيا » أربع مرات: « وإليكم هذه الرؤيا ، فهى وحدها شاهد على أنه يتناول المعانى بطرائق حسية ويواجه الدنيا بعين متشوقة إلى الصور والأشكال . إليكم هذه الرؤيا ، ففيها المقنع لمن يزعم أنه فى مقدور التصوف أن يَخْلُص كل الخلاص من عالم الحس . إليكم هذه الرؤيا التى غمرت ابن عربى فى تيار الشهوات من حيث لا يريد . إليكم هذه الرؤيا لتعرفوا كيف كان رجل اقتحام ، وكيف كانت غرائزه المقهورة تصور له العوالم القوية بصورة الخضوع للمؤنث »[١]. إن هذا التكرار يشى بقوةٍ بيقينه مما يقول عن ابن عربى ورغبته أن يسد علينا أقطار التفكير بحيث نسلم له به .

وعن بردة البوصيرى ومكانتها فى نفوس المسلمين يقول كاتبنا : «والبوصيرى بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين ، ولقصيدته أثر فى تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق : فعن البردة تلقّى الناسُ طوائفَ من الألفاظ والتعابير غَنِيَتْ بها لغةُ التخاطب ، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية ، وعن البردة تلقَّوا أبلغ درس فى كرم الشمائل والخلال »[٢]. والتكرار هنا يفيد تأكيد القصر الذى أراده الدكتور مبارك من تقديمه للجار والمجرور .

---

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ١٦٤ .

(٢) المدائح النبوية فى الأدب العربى / ١٦٢ .

وفى النص التالى نراه يكرر عبارة « هل قدّموا عليه ... ؟ » عدة مرات ، وهذا التكرار يومئ بأن الكاتب يريد التلبث فى هذا الموضع والتقاط الأنفاس ولفت الأبصار إليه كى يعجب الناس بأدائه الممتاز . يقول : « وقد أكرم الأدباء الأمويون أنفسهم فشهدوا لكُثَيِّر بالتفوق وضمنوا رفع الملامة عنهم فيما يتعاقب من الأجيال . إنهم قدّموا جميلا عليه ، وليس فى ذلك معاب ، فقد كان جميل ريحانة ذلك الزمان . فهل قدّموا عليه عمر بن أبى ربيعة وكان فتنة الفتن فى مغازلة النساء ؟ هل قدّموا عليه الأحوص ؟ هل قدموا عليه العرجى ؟ هل قدموا عليه الحارث المخزومى ؟ هل فكروا فى الموازنة بينه وبين جرير والفرزدق والأخطل فى النسيب ؟ »[١] . ولو كُتِبَتْ هذه الفقرة بالأسلوب العادى لقيل : « فهل قدّموا عليه عمر بن أبى ربيعة أو الأحوص أو العرجى أو الحارث المخزومى ، أو فكروا فى الموازنة بينه وبين جرير والفرزدق والأخطل فى النسيب ؟ » ، ولكن شتان بين الأسلوبين . إن هذا الأسلوب الأخير إنما يشبه تقديم الطعام فى طبق من الورق أو اللدائن يؤدى المهمة والسلام ، أما الأسلوب الذى اصطنعه زكى مبارك فهو بمثابة تقديم الطعام فى صحاف من الذهب المرصع باللؤلؤ والياقوت . وأنت فى هذه الحالة لا تأكل فقط ، وإنما أنت تأكل وتستمتع بالنظر وكذلك بالإحساس بفخامة

(١) العشاق الثلاثة / ٨٤ ـ ٨٥ .



المائدة ، تلك الفخامة التى تنعكس على الطعام ذاته ، فإذا المتعة والفائدة اللتان تصيبهما منه أضعاف مضاعفة . ولعلك لاحظت أن زكى مبارك لم يكتف بمجرد التكرار بل أدخل عليه فى التكرارة الأخيرة تنويعة أضفت عليه جدة وحيوية إذ اكتفى فيها بتكرير « هل » فقط .

وهو لا يلتزم عدداً بعينه فى هذه التكرارات ، وإن كثُر عنده التكرار الثلاثى والرباعى ، ومع ذلك فقد تزيد تكراراته عن ذلك كثيراً مثل : « أحبك يا ليلى . أحبك يا ليلاى . أحبك يا مسكينة لأنى من المساكين . أحبك يا شقية لأنى من الأشقياء . أحبك يا ليلى ، وسأنْحت لك صنما من ضلوعى . أحبك يا ليلى ، وسأنزف دمى قطرة قطرة ثم أتخذ من حديده خاتما أقدمه إليك يوم يحين الفراق ، وما أصعب الفراق ! أحبك يا ليلى ، وسأرقم اسمك الجميل على خدّ القمر وجبين الشمس . أحبك يا ليلى ، وسأستعذب فى سبيلك محنتى وعذابى . أحبك يا لئيمة يا غادرة يا ظلوم ، وأصفح من أجلك عن أهل اللؤم والغدر والظلم والجحود . أحبك يا ليلى ، أحبك ، وما أتصدق عليك بالحب ، فأنا أهفو إليك بلا وعى ولا إحساس . وقد حاولت مليون مرة أن أتوب من هواك فما صحّت لى توبة ولا نفعتنى عظة ولا عصمنى عقل ولا هدانى وجدان . أحبك يا روحى ويا ضناي. أحبك أصدق الحب ، وأبغضك أعنف البغض ، ولو رأيتك فى هذه اللحظة لروَّيْتُ روحى بدمك الغالى . ولكن متى أراك ؟ تلك أوهام وأضاليل . لقد نجوتِ من يدى يا شقية ، فعليك

غضبة الله ولعنة الحب ! »[١].

وقد يكون التكرار فى كلمة واحدة تتتالى مرتين مع « ثُمَّ » أو بدونها ، مثل قوله : « كان كُثَيِّرٌ باتفاق أكثر الرواة أشعر الناس فى عصر بنى أمية ، فأين أشعاره ؟ أين ؟ أين؟ »[٢]، « ما هذا ؟ ما هذا؟ »[٣] ، « هيهات ثم هيهات » ، « ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟ » ، « أيها الوطن الغالى ، غفرانك ثم غفرانك »[٤] ، و « اسمعوا ثم اسمعوا »[٥] ، « آه ثم آه »[٦]. وقد يكون التكرار كالذى فى الجملة التالية: « أتدرين لماذا أصبر عليكِ ؟ أتدرين ؟ »[٧] حيث تكررت كلمة واحدة من الجملة كلها مرتين لكنْ ليستا متتاليتين ، ومثلها هذه الجملة : « لطُفَ الله بالشرق الإسلامى ولَطُف ! »[٨].

وهذا التنويع فى عدد التكرارات شاهد على أنه يكره الجمود فى قالب معين ، وهو دليل الصحة والحيوية والقدرة على التفنن والإبداع .

على أن عنده لونًا من التكرار خاصًا يحتاج أن نفرده بملاحظة على

(١) ليلى المريضة فى العراق / ١٥٨ ـ ١٥٩ .
(٢) العشاق الثلاثة / ٦٥ .
(٣) ليلى المريضة فى العراق / ٢١٥ .
(٤) ملامح من المجتمع العراقى / ٣١٢ .
(٥) الحديث ذو شجون / ١٣ .
(٦) مجنون سعاد / ٢٥ .
(٧) المرجع السابق / ٤٣ .
(٨) زكى مبارك ناقدا / ٩٣ .



حدة حيث يورد اسمًا معرفا بـ « أل » ثم يعيده عقب ذلك منكرًا أو مضافًا أو ما إلي ذلك . والتكرار فى هذه الحالة إنما هو وسيلة من وسائل الربط بين أطراف الجملة التى لو حاول الكاتب أن يربط بينها بوسيلة أخرى لتعشكلت وتعقدت خيوطها أو ركّت وتهافتت أو احتاجت إلى إعادة ترتيب كلماتها من جديد ... إلخ . وهذه أمثلة على ذلك الاستعمال : « وها نحن أولاء نبسط القول عن هذه الوقفة الأليمة ، وقفة المحب على ديار خلت غُرَفُها من الظباء الغرائر »[١] ، « أبو فراس ضحية الكبرياء ، كبرياء الحب والمجد »[٢] ، « وهذا الوصف ، وصف الببغاء الذى أجاد فيه الشاعران ، أتاحته لنا لثغة أبى الفرج التى أبدع فى وصفها الصابى »[٣] ، « وهذه البلايا ، بلايا الحسد والغيرة التى عاناها الشافعى ، عاناها من بعده تلميذه وصفيه أبو يعقوب البوطي »[٤] ، « والعلاقات الدنيوية فى نظر القرآن هى تمهيد للصلات الروحية ، صلات الناس بالله الكبير المتعال »[٥] ، « وفى الدنيا شهداء راحوا ضحية هذه الدعاوى الباطلة ، دعاوى الحرص على الفضيلة والأخلاق »[٦] ، «وهذه العبارة فيها حيرة ، حيرة ابن عربى بين مقام الله

(١) مدامع العشاق / ٤٧ .
(٢) الموازنة بين الشعراء / ٣٢١ .
(٣) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢ / ٢٨١ .
(٤) كتاب الأم / ٢٢ .
(٥) التصوف الإسلامى / ٢ / ٧ .
(٦) المرجع السابق / ٢ / ٢١٩ ـ ٢٠٠ .

ومقام الرسول»[١]، « وكان الناس يعرفون عنه ذلك فيعمدون إلى كتبه فيضيفون إليها زيادات تدخله فى الحظيرة الخطرة ، حظيرة الصوفية المتفلسفين الذين يتطلعون إلى الخروج على المألوف من مقبول الآراء»[٢]، « وكان ( وصف الدِّمَن ) كذلك لأنه يعبر تعبيراً صادقًا عن الروحية البدوية ، روحية الرجال الذين تقهرهم قلقلة الحياة على الارتحال من وطن إلى وطن »[٣]، « كان الناس يعجبون من براعة شوقى فى بيان حكمة الجهاد ، جهاد الرسول »[٤]، « يتحدث الناس كثيراً عن العربدة ، عربدة السكارى »[٥]، « وإذ ذاك يعود الجو الصالح ، جو البر والمنفعة والإخاء»[٦]، « حدِّثونى أيها السادة : كيف يكون شعور الروح، روح الجندى المعروف لا المجهول ، حين يمرّ الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة ولا يعترضهم من روحه مثال ؟ »[٧]، «كيف يكون شعور الروح ، روح القائد المغوار الذى يمرّ الناس علي قبره فلا يذكرون كيف صارع النوائب وصاول الخطوب؟ »[٨]، «ولم يبق من ميادين الهزل غير

(١) السابق / ٢ / ٢٧٢ .

(٢) السابق / / ٢٨٧ .

(٣) العشاق الثلاثة / ١٠١ .

(٤) الأسمار والأحاديث / ٢٩٢ .

(٥) المرجع السابق / ٤٠٤ .

(٦) السابق / ٤٩٢ .

(٧) عبقرية الشريف الرضى / ١٤ .

(٨) نفس المرجع والصفحة .



تذكر الأحلام القديمة ، أحلام القاهرة ومصر الجديدة وباريس »[١]، «حضرتُ سهرة ... فوق سطح الفندق ، فندق العالم العربى »[٢]، « وهل فى الدنيا ميت أحق بالرحمة ممن يُسْتَشْهَد فى سبيل النظام السخيف ، نظام المدرسة ونظام البيت ؟ »[٣]، « يجب أن يكون السوط حاضراً فى كل وقت لئلا تهدأ الجياد ، جياد الفروسية المصرية »[٤]، « وكانت الدنيا قد سمحت فعلا بأن يكون للرشيد مُلكٌ فى بعض الممالك الآسيوية والإفريقية ، مُلكٌ ضخم يوحى بأن السحاب لن يجود إلا فى أرضه حيث وقع »[٥]، « أتذكرون المحطة القديمة ، محطة الإسكندرية ؟ »[٦]، «سيفنى كل شيء ، وتبقى الذكرى ، ذكرى تلك الليلة يا سعاد »[٧]، «وبأى حق أعيش إذا وقعتُ فى الدنس، دنس الجمود عن فهم روائع الصبابة والملاحة والجمال ؟ »[٨]، «علمت أن الجسر انقطع، جسر فرع دمياط ، فأغرق أربعين فدانًا »[٩]، « يجب أن ... يغرى ( أستاذ

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٥٧ .

(٢) المرجع السابق / ٢٤٣ .

(٣) السابق / ٢٩٢ .

(٤) السابق / ٤٣٦ .

(٥) ملامح المجتمع العراقى / ٢٨٥ .

(٦) الحديث ذو شجون / ١٧ .

(٧) مجنون سعاد / ٢٠ .

(٨) المرجع السابق / ٩٤ .

(٩) ألحان الخلود / ١٠٥ .

الأدب) تلاميذه بخوض الحياة ، حياة الجدّ والاقتحام»[١]، « وكانت إليه ( أى عبد اللطيف الصوفانى ) أمانة الخزينة، خزينة الحزب الوطنى »[٢].

وتكثر الجمل الاستفهامية فى كتابات زكى مبارك كثرةً ملحوظة جدا ، وهى ظاهرة تدلُّ على عقلية جدلية ، ويبدو أديبنا بسببها أحيانًا وكأنه يقارع خصمًا له يريد أن يقرعه فهو يحاصره بالأسئلة المتلاحقة من كل جانب . ولا أريد أن أكثر من الشواهد على هذه الظاهرة عنده بل نجتزئ بما يلى ، وقد اخترناه كيفما اتفق : « تلك قصة جميل فى شعره وهواه ، فمن هو بين الشعراء ؟ ومن هو بين المتيَّمين ؟ يجب أن نفصّل حياته فى العشق قبل الكلام عن منزلته الشعرية . ونحن قد أجملنا حياته الغرامية فى سطور ، فما الذى رأيناه ؟ »[٣]، « الدين من مقومات الاستقلال . ولكن أى دين ؟ أهو ذلك الدين الذى يقوم على قواعد الرياء ؟ رباه ، كم قاسينا من عنف المرائين ! إن الرياء فى الدين باب إلى الخراب لأنه يروض الناس على التكلف والافتعال فيما يأخذون وما يريدون ، ويوحى إليهم أن المراوغة لباقة وذكاء . أنا أشتهى أن أومن، ولكن الشوق يخمد فى قلبى كلما تذكرت أعمال المرائين . أليس من الحق أيها الناس أن الصراحة فى زماننا خلق بغيض ، وأن النفاق

(١) اللغة والدين والتقاليد / ٦٧ .
(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٣٥ .
(٣) العشاق الثلاثة / ٣٠ .



يسمو بصاحبه أحيانا إلى أرفع الدرجات ، وأن المداهنة أصبحت أمضى سلاح؟ »[١]، « فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد ؟ ألا ترون أن هذه الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين والناقدين ؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلاً لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما فى شعره من الحكم والأمثال ثم يبين ما فيها من المبتكر والمنقول ؟ أما كان أهلا لأن يُشْغَلَ به النقاد فيقولون إنه ابتكر كَيْت أو سَرَقَ زَيْت ؟ لقد رأيناهم يتعقبون المتنبى فيردون حِكَمه وأمثاله إلى الأدب المأثور عن قدماء اليونان، فما بالهم سكتوا عن الرضيّ ذلك السكوت ؟ أتريدون الحق أيها الأدباء؟ الحق أن النقاد شغلوا أنفسهم بالمتنبى طاعةً لبعض الرؤساء، ولم يشغلوا أنفسهم به حبا فى الوقوف على أصائل المعانى »[٢]، «هناك آية لا يصدّق أحد أنها فى القرآن . هناك آية أخشى أن تُرْفَض من أجلها هذه المحاضرة ، وسأذهب إلى محطة الإذاعة[٣] وفى يدى المصحف حتى لا يظن المشرفون على الإذاعة أنى كذبت وافتريت. هناك آية غريبة ، وما أكثر ما فى القرآن من غرائب ! هناك آية عجيبة ، وما أكثر ما فى القرآن من عجائب ! هناك آية تقول : { ما ننسخ من آية أو نُنْسِها نَأْتِ بخير منها أو مثلها } . أتذكرون هذه الآية ؟ لقد رأيتُها فى المصحف ،

(١) اللغة والدين والتقاليد / ٨٤ .
(٢) عبقرية الشريف الرضى / ٤١ .
(٣) يقصد محطة الإذاعة حين كان فى بغداد .

وما تخوننى عيناى ، فما معنى هذا الكلام ؟ تذكروا أن الرسول يروى عن ربه ، تباركت أسماؤه ! وهنا وجه الغرابة والعجب . وهل رأيتم أغرب وأعجب من أن يشهد الله على نفسه بأنه يراعى أحوال المجتمع فينقله فى التشريع من وضع إلى وضع ؟ هل تصدقون بأن الله ، وهو مالك الملك، يضع نفسه من الناس موضع الأستاذ من التلاميذ ؟ هل تصدقون بأن الله يشهد على نفسه بأنه يتدرج فى هداية المخلوقات؟ »[1]، « وزارة المعارف فى نظر المنصف أعظم الوزارات حيوية بدليل ما نشاهد من كثرة التغيرات والتقلبات . وهل يتغير أو يتقلب غير الأحياء ؟ ولكن هذه الوزارة التى تفكر فى كل شيء ويشتغل بأخبارها جميع الناس تنسى شيئًا فى غاية من الأهمية ، وهو تعديل مواعيد الامتحانات . ما الذى يوجب أن تكون تلك المواعيد فى وهج الصيف ؟ أيكون ذلك نقلاً عن الأمم الأوروبية ؟ هو ذلك . ولكن أين جو مصر بالقياس إلى الأجواء الأوروبية ؟ أعصاب التلاميذ فى شهر يونيه لا تحتمل أى إجهاد . ولو شئتُ لقلتُ إن التلاميذ يعانون قبل يونيه بشهرين ، فكيف تجود قواهم بالمحصول الذى يعيِّن منازلهم من الفوز أو الإخفاق ؟ وهل سمعتم حديث المصححين ؟ التصحيح نوع من القضاء ، ولا يجوز للقاضى أن يحكم إلا وهو سليم الأعصاب ، فكيف تكون مصاير التلاميذ بأيدى مصححين لم

(١) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك / ٨٤ ـ ٨٥ .



تُبْقِ منهم متاعب العام الدراسى غير أشباح ؟ »[1]... إلخ ، وهو كثير ، إذ قلما تخلو صفحة من هذه الجمل الاستفهامية . ومن الاستفهامات التى تكثر عنده قوله : « ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟ » و « أما بعد ، فماذا أريد أن أقول ؟ » مما سنسوق عليه الشواهد فى حينه.

وقد لاحظتُ أن الاستفهام كثيراً ما يأتى فى كتابات زكى مبارك بدون أداة ، وهذه بعض الشواهد على ذلك : « الأخوة عمل كالولادة؟ هذا والله عجب »[2]، « اللغة من مقومات الاستقلال؟ كذلك يقول صاحب الدولة رئيس الوزراء »[3]، « والدين؟ أهو أيضًا من مقومات الاستقلال ؟ »[4]، « وهناك مزية أساسية هى خلق الشجاعة فى نفوس الناس . الشجاعة ؟ أى شجاعة ؟ »[5]، « ومؤلفات التوحيدى أبى حيان؟ أفى مقدوركم أن تجدوا فيما بين أيديكم من الكتب ما يترجم لمن تحدث عنهم التوحيدى من أعلام الأدب والفقه والتوحيد ؟ »[6]، «فماذا ينتظر الناس من الفوز لرأى زكى مبارك أكثر من أن يوافقه وكيل كلية الشريعة من حيث لا يحتسب ؟ من حيث لا يحتسب ؟ أى

(١) الحديث ذو شجون / ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
(٢) التصوف الإسلامى / ٢ / ٢١٣ .
(٣) اللغة والدين والتقاليد / ٣٤ .
(٤) المرجع السابق / ٧٦ .
(٥) السابق / ٩٧ .
(٦) كتاب الأم / ١٢ .

والله!»[١]، «وكتب النحو أيضًا تطبعونها للجمهور ؟ يا ناس، اتقوا الله !»[٢]، «فقلت : يسمح الباشا بإطلاعى على نصّ الخطبة؟»[٣]، «أقول لليْلَى إنكِ أحسنت الدفاع عن اتهامك بالشيوعية فى الحب؟»[٤]، «وهى تتهمنى بخيانة العروبة وقد أذْوَيْتُ شبابى فى خدمة لغة القرآن؟»[٥]، «أنا أثْنِى على نفسى ؟ هو ذلك»[٦]. «قال القاضى : يرضيك يوم ٣٠ سبتمبر ؟»[٧]. وهذا كله أثر من آثار تطويع أديبنا للُغة الكتابية وجعلها أسلس وأكثر انسيابية وقريبةً فى خفتها وانطلاقها من لغة الحديث اليومى.

وهناك نوع آخر من الجمل يكثر فى أسلوب زكى مبارك، لكن ليس ككثرة الجمل الاستفهامية، وهو مجيء الجملة الاسمية فى موضع يتوقع الإنسان فيه عادة مجيء جملة فعلية. وكثيراً ما تبتدئ هذه الجمل الاسمية مباشرة بدون «إنّ» أو «الواو» مثلا. وفى عدد من الحالات لافتٍ للانتباه نجد المبتدأ فى هذه الجمل هو الضمير «أنا». وهذه أمثلة على هذه الخصيصة :

(١) المرجع السابق / ٣٢ .
(٢) الأسمار والأحاديث / ١٨٣ .
(٣) المرجع السابق / ٢٣٨ .
(٤) ليلى المريضة فى العراق / ١٧٠ .
(٥) المرجع السابق / ١٧١ .
(٦) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٢٢٤ .
(٧) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٢١ .



«هذه المحاضرات أُلقِيَتْ فى فبراير سنة ١٩١٩ فى الجامعة المصرية على أنها دروس تمرين»[١]، «إن شوقى حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور. وما صوت طاغور بالقياس إلى الموسيقى الشوقية ؟ شوقى شاعر مصر، وهو على جموده إنسان وأستاذ الأساتذة فى ميدان القصيدة»[٢]، «والغرض قد التوى على شوقى فى هذين البيتين بعض الالتواء»[٣]، «والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة»[٤]، «أكثر الشعراء والكتاب يَنْظِمون ويكتبون للعوام وأشباههم من أدعياء الخواصّ»[٥]، «الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة، قاهرية بالطبع»[٦]، «وغرام بعض الكاتبين من أهل هذا الزمان بردّ الصوفيّ إلى «سوفيا» اليونانية يمثل إحدى النزعات العصرية»[٧]، «وهذا السؤال من جانب الرسول لا يمكن أن يقع بمثل هذه الحدة إلا إن سُبِق بشواهد من حياة عكّاف»[٨]، «القرآن ليس بشعر، لأنه خالٍ من القوافى والأوزان، وهذا موضع اتفاق»[٩]، «العرب كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٩ .
(٢) أحمد شوقى / ٣٦ .
(٣) المرجع السابق / ٥٦ .
(٤) نفس المرجع والصفحة .
(٥) السابق / ٧٧ .
(٦) السابق / ٨٤ .
(٧) التصوف الإسلامى / ١ / ٦٥ .
(٨) المرجع السابق / ١ / ٢٠٧ .
(٩) المرجع السابق / ٤٥ .

وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ »[١]، « الجمال أهل للدرس »[٢]، «والصاحب مسبوق فى هذا النوع من الإنشاء »[٣]، «بغداد كلها فى جزع لما وقع فى كلية الحقوق »[٤]، « وأنا مع ذلك قلت فى القاهرة كل شيء كما قلت فى بغداد كلَّ شيء »[٥]، « وأنا أصرّح علانية بأنى مهدت لهذه المناقشة وأنا فى العراق »[٦]، « حافظ عفيفى لم يبتكر هذا الفن من التأليف ، وإنما سار فى طريق مسلوك عبّده الأوروبيون من أجيال طوال »[٧]، « البِشْرِيّ الكاتب له عينان تريان الألوان ، وأذنان تسمعان الأصوات ، ولكنه عاش بلا قلب »[٨]، « كان أبى يرانى رجلا عظيمًا ، فما حمّلته همًّا ولا غمًّا ... ، وحياتى قامت على أسنان المصاعب »[٩]، « الأخبار التى أذاعها وزير الأشغال كانت مزعجة جداً »[١٠]، « طلبة العلم فى مصر من أبناء العراق بلغوا من

---

(١) المرجع السابق / ١ / ٢٣١ .

(٢) السابق / ٢ / ٢١٥ .

(٣) السابق / ٢ / ٣١٠ .

(٤) ليلى المريضة فى العراق / ٢٩٥ .

(٥) المرجع السابق / ٤٠٨ .

(٦) السابق / ٤١٦ .

(٧) زكى مبارك ناقدا ١ / ٢٥ .

(٨) المرجع السابق / ١١٩ .

(٩) ألحان الخلود / ٣٧ .

(١٠) المرجع السابق / ١٠٤ .



الكثرة درجة ملحوظة »[١]. « وأنا لاحظت مرات كثيرة أن محطة باب الحديد تضاء بالنور الأزرق »[٢]... وهلم جراً .

قلت إن المتوقع فى هذه المواضع وأشباهها أن تجيء الجملة فعلية . وهذا صحيح ، وها نحن أولاء معيدون كتابة بعض هذه الشواهد ولكن بعد تركيبها من جديد بحيث يأتى الفعل فى أولها . وسيرى القارئ أن هذا هو ما كانت الأذن تنتظره . وسوف تكون الجمل التى أقوم بإعادة تركيبها هى الجمل الخمس الأخيرة : « و ( قد ) لاحظت مرات كثيرة أن محطة باب الحديد تضاء بالنور الأزرق » ، « بلغ طلبة العلم فى مصر من أبناء العراق من الكثرة درجة ملحوظة » ، « كانت الأخبار التى أذاعها وزير الأشغال مزعجة جداً » ، « و ( قد ) قامت حياتى على أسنان المصاعب » ، « وأصرّح علانية بأنى مهدت لهذه المناقشة وأنا فى العراق » ... وهكذا .

ومما يكثر عنده فى باب التراكيب حذفُه « قَدْ » التى تسبق فى الأسلوب المعاصر عادةً الفعلَ الماضى الواقع خبراً لـ « كان » ، إذ الغالب فى أيامنا الآن أن نقول : « كان محمد قد خرج من بيته عندما أتى زملاؤه لزيارته » ، أما زكى مبارك فيكثر بل يغلب عنده ، فيما لاحظت، أن يحذف « قد » هذه فتصبح الجملة هكذا : « كان محمد خرج ... » . وهذه أمثلة على ما نقول : « يا من أفنانى فراقهم، وكان

---

(١) السابق / ٢١٥ .

(٢) قصائد لها تاريخ / ٨٣ .

أحيانى لقاؤهم ، بربكم ما الذى لقيتم بعدى ؟ »[1]، « ولكن يظهر أن المعانى العربية كانت احتلَّتْ رؤوس الشعراء »[2]، « ولابد أن يكون رمسيس الثانى ظفر فى زمانه بقبس من الجاذبية الروحية والعقلية »[3]، « وهذا العصر ... كانت تجرى فيه أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق »[4]، « وقد كان هَرَبَ من أخيه عضد الدولة »[5]، « فقد كان ظَفِرَ بإجازة الدكتوراه قبل ذلك مرتين »[6]، « كان المتوكل عَقَد لولده المنتصر والمعز والمؤيد ولاية العهد »[7]، «وكان الجاحظ سُبِق بأجيال عرفت فضل البلاغة فى كلام النساك»[8]، « والزهاد لا يَصِلون إلى هذه المواطن إلا بعد أن يكونوا استطاعوا تثبيت سلطتهم الروحية»[9]، «فاليهود الذين عرفهم عيسى كانوا بَغَوْا فى الأرض واشتَرَوْا رقاب الناس بالربا الفاحش »[10]، « وكان الكُمَيْت أجاد مدح أبان بن الوليد »[11]، « ويظهر أن الكميت كان عفَّى على الأولين من

(١) مدامع العشاق / ١٦٨ .
(٢) الموازنة بين الشعراء / ١٨٣ .
(٣) المرجع السابق / ٣٠٤ .
(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٣٠٦ .
(٥) المرجع السابق / ٢ / ٢٩٧ .
(٦) التصوف الإسلامى / ١ / ١١ .
(٧) المرجع السابق / ١ / ٢٤ .
(٨) السابق / ٢ / ٧٧ .
(٩) السابق / ٢ / ١١٠ .
(١٠) السابق / ٢ / ١٣٣ .
(١١) المدائح النبوية / ٧٢ .



النسّابين »[1]، « وكنتُ أثرتُ هذه المسألة على صفحات جريدة «البلاغ» فهاجت جماعة كبيرة من جماهير الناس»[2]، « وقد يكون دوِّن هذا فى سنة تسع ومائتين أو عشر ومائتين أو أبعد من ذلك»[3]، «ولو كان الشافعى كَتَبَه بنفسه لرجَوْنا أن يكون له نظام موحَّد »[4]، « فما رأيكم فى أن الناس كانوا اطمأنوا طمأنينة شاملة ... ؟ »[5]، «... هذا إن كان بلغ سنّ الفهم والإدراك»[6]، «كان الرجل جاوز الخمسين»[7]، «ولكن يظهر أن روح نسيم باشا كانت حضرت بالفعل »[8]، « فماذا قال الأستاذ عنان فى هذا الموضوع إن كنت قرأت مقاله فى «السياسة» ؟ »[9]، «ومن المحتمل ألا يكون مَالَ إلا إلى الخادمات»[10]، « والسَّلامى فى هذا كان شَغَلَ أهل العراق فى القرن الرابع فمنحوه لقب « أمير الشعراء » ... »[11]، « ... فقد كنتُ انتشيتُ من حديث

(١) المرجع السابق / ٧٦ .
(٢) كتاب الأم / ٥ .
(٣) المرجع السابق / ٢٧ .
(٤) السابق / ٧٨ .
(٥) السابق / ١١١ .
(٦) الأسمار والأحاديث / ١٤٦ .
(٧) المرجع السابق / ١٦٥ .
(٨) السابق / ٢٠٩ .
(٩) السابق / ٢٨١ .
(١٠) السابق / ٣٤٦ .
(١١) عبقرية الشريف الرضى / ٨٢ .

ليلى»[١]، « ... وأكون تَغدَّيتُ وأخذت نصيبى من القيلولة »[٢]، «فإن كان ساءكم الحادث الذى وقع فى بغداد فتذكروا أنه حادث تعرضت له مصر نفسها مرات»[٣]، « وكنتُ قُلْتُ فى حديث سَلَفَ إنه ... »[٤]، «كان أحد أعضاء المجتمع اللغوى ... أنكر عليَّ ... أن أستعمل كلمة « يستأهل » بمعنى « يستحق» .... »[٥]، «كان الأستاذ محمد عبد الغنى حسن نَشَرَ فى الرسالة كلمة »[٦]، « ... وهو كتاب كنتُ نَقَدْتُه على صفحات «البلاغ» قبل سنين »[٧]، « كانت شركة مصر الجديدة وَعَدَتْ بالاستعداد لإنجاء المترو من أخطار الأمطار »[٨]، « كان الأستاذ عبد الباقى إبراهيم أراد أن يُعَيَّن مدرسًا بكلية الآداب »[٩]، «كنتُ قلتُ فى « البلاغ » كلمات عن الشاعر على محمود طه»[١٠]، « كنتُ رأيتُ أن أروض تلاميذى ... على الشعر »[١١]، « كانت إدارة الأزهر أقامت

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٦١ .
(٢) المرجع السابق / ٨٨ .
(٣) ملامح من المجتمع العراقى / ٢٩٩ .
(٤) الحديث ذو شجون / ٨٣ .
(٥) المرجع السابق / ٤٠٧ .
(٦) السابق / ٤٩٦ .
(٧) ألحان الخلود / ١١٨ .
(٨) المرجع السابق / ٢١٨ .
(٩) السابق / ٢٧٩ .
(١٠) قصائد لها تاريخ / ٧٩ .
(١١) أطياف الخيال / ١٠٦ .



درسين فى المسجد الذى يطل على شارع الحمزاوي»[١]، «وفى هذا الكتاب فصول كان كَتَبَها «الفتى الأزهري» بين سنة ١٩ وسنة ٢٢ »[٢]، « كان نقيب المحامين ... أَبْلَغَ رئيس المحكمة أنه حاضر للدفاع عنى»[٣]، « كنتُ رجوتُ معالى الدكتور نجيب باشا أن يمر بسيارته على تلك المنطقة »[٤]، «ولو أنه كان استباح الكذب فحدَّثهم بأن فيه عنصرًا من الألوهية لوصل إلى قلوبهم بلا عناء»[٥].

ومن التراكيب التى تلفت الانتباه فى كتابات زكى مبارك بتكررها أيضا التركيب الذى نمثل له ، على سبيل الشرح ، بالجملة التالية : «الصحف اليومية كان اهتمامها كذا وكذا »، وذلك بدلاً من أن نقول : «كان اهتمام الصحف اليومية كذا وكذا » . أى أنّه بدلاً من التركيب المباشر يلجأ زكى مبارك فى بعض الأحيان إلى آخر غير مباشر يُحْوِج إلى استعمال ضمير (هو هنا « ها ») يعود على الاسم الظاهر (الذى هو فى جملتنا : « الصحف اليومية ») . وهذه أمثلة على ما نقول : «وهذا استطراد لا يشك القارئ فى أنه غير محمود»[٦] ( بدلاً من أن يقول : « ولا يشك القارئ فى أن هذا استطراد غير محمود » ) ،

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٦ .
(٢) المرجع السابق / ٤١ .
(٣) السابق / ١٥٠ .
(٤) السابق / ٢٢٠ .
(٥) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ٤٥ .
(٦) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ١٢ .

و«ألسنا نخطئ من يزعم أن الورد ... ضعفت شجراته وقلّت زهراته؟»[1] ( بدلاً من « يزعم أن شجرات الورد ضَعُفَتْ » ) ، و « إن الناقد مفروض فيه البرء من جميع الأغراض »[2] ( بدل « إن المفروض فى الناقد البرء من جميع الأغراض » ) ، و « القدر له فى الأدب الشرقى مكان »[3] ( بدلاً من « للقدر فى الأدب الشرقى مكان » ) ، و«ملاعب الكرة فيها لطف وجاذبية »[4] (بدل « فى ملاعب الكرة لطف وجاذبية » ) ، و « إن القول بوحدة الوجود له وجه »[5] ( بدلاً من أن يقول : « إن للقول بوحدة الوجود وجها » ) ، و « هذا الجواب الأخير فيه سياسة الصوفية »[6] ( بدل « وفى هذا الجواب الأخير سياسة الصوفية») ، و « هذه العبارة فيها حيرة »[7] ( بدلاً من « وفى هذه العبارة حيرة » ) ، و « بَيْدَ أن ... الصحف اليومية كان اهتمامها بنشر الأدب ضئيلاً »[8] ( بدل « كان اهتمام الصحف اليومية بنشر الأدب ضئيلاً » ) ، و « إن هذه الزيارة لها قيمة معنوية »[9] ( بدلاً من قوله :

---

(١) المرجع السابق / ٩٥ .
(٢) الموازنة بين الشعراء / ١٤ .
(٣) المرجع السابق / ٣٤٥ .
(٤) السابق / ٣٤٨ .
(٥) التصوف الإسلامى / ١ / ١٨٢ .
(٦) المرجع السابق / ٢ / ٢٠٦ .
(٧) السابق / ٢٧٢ .
(٨) الأسمار والأحاديث / ١٤٦ .
(٩) المرجع السابق / ٢٣٠ .



« إن لهذه الزيارة قيمة معنوية » ) ، و « ظهر من حماسة المستمعين أن الكلام عن فلسطين له مكان فى هذا المقام »[1] ( بدلاً من « ظهر من حماسة المستمعين أن للكلام عن فلسطين مكانا فى هذا المقام » ) ، و«مالى لا أنصّ ... على أن وزراء العراق أكثرهم من رجال الجيش ...؟»[2] ( بدل قوله : « مالى لا أنصّ على أن أكثر وزراء العراق من رجال الجيش ؟ » ) ، و « الشاعر الوسط ... تضاف آثاره إلى آثار غيره )»[3] ( بدلاً من قوله : « فآثار الشاعر الوسط تضاف إلى آثار غيره » ) ، و « هل يحتاج الباحث إلى النصّ على أن الشعراء والكتاب كانت تراجمهم فرصة لدرس مشكلات السياسة والمجتمع؟»[4] ( بدلا من « وهل يحتاج الباحث إلى النص على أن تراجم الشعراء والكتاب كانت فرصة لدرس مشكلات السياسة والمجتمع ؟ » ) ، و«أفى الحق أن رسائلى إليك سمع بأخبارها ناس من أهل أسيوط ؟»[5] (بدل « أفى الحق أن ناسًا من أهل أسيوط سمعوا بأخبار رسائلى إليك ؟ » ) ، و«لكن النقد الأدبى يراه الناس من الهجاء »[6] ، ( بدلاً من أن يقول :

---

(١) السابق / ٢٤٨ .
(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٩٥ .
(٣) عبقرية الشريف الرضى / ٥٤ .
(٤) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٩٦ .
(٥) مجنون سعاد / ٥٧ .
(٦) قصائد لها تاريخ / ٧٩ .

«لكن الناس يَرَوْنَ النقد الأدبى من الهجاء » ) ، و « لا أنكر أن الإسلام فى مصر له خصائص »[1] ( بدلاً من « لا أنكر أن للإسلام فى مصر خصائص » ) ، و « مفكرو العرب لا يزالون أحياء ، فأبو حامد الغزالى لا يزال كتابه « إحياء علوم الدين » مورد رزق ومجد »[2] ( بدلا من أن يقول : « لا يزال كتاب أبى حامد الغزالى « إحياء علوم الدين » مورد رزق ومجد » ) ، و « الفكر له وثبات فى الخلود »[3] (بدلا من « للفكر وثبات فى الخلود » ) ... وهكذا . لكن لا بد أن أضيف أن هذا التركيب ليس هو الغالب فى أسلوب الدكتور زكى رغم تكرره عنده (كما قلت ) تكررا يلفت النظر . وبطبيعة الحال هناك فروق بلاغية بين التركيبن، وإن كانت دقيقة ، لكننى لست بصددها هنا ، إنما غايتى رصد السمات الأسلوبية التى تميز أدبه وتجعل له هذه النكهة المتفردة .

وثمة تركيب آخر منتشر عنده يقوم على التقديم والتأخير أيضًا ، فهو فى حالات كثيرة يعدل عن أن يقول : « النوافذ مفتوحة » مثلا إلى « مفتوحات النوافذ » ، وذلك بتحويل الصفة المفردة هنا إلى صفة مجموعة ثم تقديمها على الموصوف وإضافتها إليه كما فى الأمثلة الآتية : « غافيات المُنَى وهاجعات الأهواء »[4]، و « كرائم

---

(١) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٧١ .
(٢) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ١٢٨ .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ١٤٢ .



الملاح »[1] ، و « كرائم النفوس »[2] ، و « شواهق الجبال »[3] ، و« أفاضل الكُتَّاب وأماثل العلماء »[4] ، و « مِراض القلوب »[5] ، و« كرائم الخُطَب وجياد القصائد »[6] ، و « رواسى الجبال »[7] و« كرام الرجال »[8] ، و« كبريات الفضائح »[9] ، و « نضيرات البساتين»[10] ، و « غاليات المدامع »[11] ، و « كرائم الطيبات »[12] ، و « كرائم الخيل»[13] ، و« كرائم المعاني»[14] ، و « كوامن الأراقم والصِّلال»[15] ، و« أماثل الأحياء »[16] و « كرائم الأغراض »[17] ، و « هوامد الأعشاب وصوامت

---

(١) المرجع السابق / ١٧٩ .
(٢) مدامع العشاق / ٣٥ .
(٣) التصوف الإسلامى / ١ / ١٦ .
(٤) كتاب الأم / ٥ .
(٥) الأسمار والأحاديث / صفحة المقدمة .
(٦) المرجع السابق / ٢٤٨ - ٢٤٩ .
(٧) ليلى المريضة فى العراق / ٢٢ .
(٨) المرجع السابق / ٣٩٠ .
(٩) السابق / ٩٥ .
(١٠) السابق / ٩٨ .
(١١) السابق / ٣٨٣ .
(١٢) السابق / ٣٩٠ .
(١٣) عبقرية الشريف الرضى / ٢١ .
(١٤) المرجع السابق / ٥٦ .
(١٥) السابق / ٦١ .
(١٦) ملامح المجتمع العراقى / ١٦٣ .
(١٧) الحديث ذو شجون/ ١٢٧ .

الغدران »[1]، و « غـرائب المضـحكات » [2]، و«شواجر الأدب»[3]، و«كرائم العقول»[4]، و « مراض القلوب »[5].

وهناك تركيب قابلته عدة مرات فى كتابات زكى مبارك ، وهو قوله « من حيث كذا » ( بمعنى « فيما يتعلق بـ ... » ) . وهذه شواهده : «ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتبا écrivain، أى رجلا قديراً على تلوين أفكاره وخواطره تلويناً يستهوى العقول والألباب »[6]، « فهو لا يقولها إلا حين يريد أن يدل على أن العبارة ، من حيث الصياغة ، من كلام الشافعى بالذات »[7]، «نزّه الأستاذ نفسه عن اللجاجة ودَرَسَ الموضوع من حيث ذاته دراسة وافية»[8]، « يجب أن يكون البحث خاصا بالشعر من حيث هو »[9]، « ليسمح لى حضرته بتوجيه نظره إلى سرقة جديدة من سرقات شوقى . وهى جديدة من حيث الاستكشاف ، ولكنها ، من حيث وقوعه ، قديمة العهد »[10].

---

(١) المرجع السابق / ١٦٧ .
(٢) السابق / ٢٦٨ .
(٣) السابق / ٤٧٧ .
(٤) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٦٦ .
(٥) المرجع السابق / ٩٩ .
(٦) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٣٣ .
(٧) كتاب الأم / ٣٤ .
(٨) المرجع السابق / ٨٢ .
(٩) الأسمار والأحاديث / ١٣٣ .
(١٠) المرجع السابق / ٢٩٢ .



ومما يتميز به كذلك أسلوب الدكتور زكى مبارك أنه ، فى كثير من الحالات ، يعدل عن عبارةٍ مثل « أمّا فلان فعلى العكس من ذلك » إلى التركيب الموجز التالى : « ولا كذلك فلان » . وهذا الاستخدام نجده أحياناً عند العقاد . وإلى القارئ أمثلة على هذا الملمح الأسلوبى عند كاتبنا : « ظل المصريون أجيالا طوالا وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفًا رديئة ... ولا كذلك العراق ، فقد عرف الخمر منذ عهد الأشوريين والكلدانيين ، وظل يتفنن فى تقطيرها أظرف افتنان »[1]، «المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقى السورية وقصائده اللبنانية : فهو فى الشام يعانى نارين ... ولا كذلك حال شوقى فى لبنان ، فهو هنالك شاعر يصدح فوق أفنان الجمال»[2]. « شوقى يعتز بالوجد ... ولا كذلك البوصيرى ، فقد جعل الوجدَ داءً تُرْجَى منه السلامة »[3]، « وهذا الشعر يمثل الطبيعة فى مواقف الوداع، فالشاعر هنا شائق ومَشُوق . ولا كذلك أبيات ابن الرومى التى حصر دمعها فى عيون زائرته الحسناء »[4]، « لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف . ولا كذلك لغة الحريرى ، التى تُعَدّ من أغرب نماذج النثر المصنوع »[5]، « فأهل الظاهر يرون الشريعة قوانين محدودة منظمة ...

---

(١) الموازنة بين الشعراء / ٤٠٠ .
(٢) أحمد شوقى / ٥٨ .
(٣) المرجع السابق / ١٦٩ .
(٤) مدامع العشاق / ١٥٨ .
(٥) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢٤٩ .

ولا كذلك التصوف ، فإن أهله يعتمدون على الخواطر ويستفتون القلوب »[١]، « كانوا ... يستجيزون أن يضيفوا إليه كتابًا أُلّف بعد وفاته بأعوام طوال . ولا كذلك نحن اليوم ... فنحن اليوم لا نوافق على اعتبار كتاب حرملة من مؤلفات الشافعى »[٢]، « ولكننا للأسف نترك فى الأغلب هموم العيش فوق كواهل عضو واحد من أعضاء الأسرة ... ولا كذلك الفرنسيون ، فإنهم ... يتمتعون بثروة عظيمة »[٣]، « مصر قد ازدحمت بالسكان ازدحامًا أوجب غلاء الأرض . ولا كذلك العراق ، ففيه مساحات واسعة تمنع ذلك الغلاء »[٤]، « أعتقد ... أن الأدعياء يترددون ألف مرة قبل أن يتحدثوا عن الآداب العربية لأن فى مصر قوما يستطيعون أن يقولوا للمخطئ : أخطأت . ولا كذلك الآداب الأجنبية التى لا يعرف عنها الجمهور إلا القليل »[٥]، « الكلمة الأخيرة مهجورة ومنسية وثقيلة . ولا كذلك الكلمة الأولى ، فهى مأنوسة ومألوفة لجميع الناس »[٦]، « فالقراء فى مصر لا يُعْنَوْن بالصحافة الأدبية كما يُعْنَوْن بالصحافة السياسية ... ولا كذلك القراء فى العراق ، فهم يسايرون الصحافة الأدبية فى مصر مسايرة جدِّية »[٧]، « فالمقالة القاسية فى

(١) التصوف الإسلامى / ٢ / ١٩ .
(٢) كتاب الأم / ٨٠ .
(٣) الأسمار والأحاديث / ٩٠ .
(٤) المرجع السابق / ٢٤٢ .
(٥) السابق / ٤٢٠ .
(٦) ليلى المريضة فى العراق / ٣٧٧ .
(٧) ملامح المجتمع العراقى / ٣٤ .



جريدة مصرية لا تغيّر إحساس الجمهور إلا بمقدار ضئيل . ولا كذلك المقالة القاسية فى جريدة عراقية ، فهى تزلزل إحساس الجمهور أعنف الزلزال »[١]، « والظاهر أن المائدة المصرية منقولة عن المائدة التركية . ولا كذلك المائدة العراقية ، فلها مذاق خاص بأهل العراق »[٢]، «المشركون بالحب درسوا طبائع متعددة سمح الشرك بدرس تقلبها دراسة وافية . ولا كذلك الموحّدون فى الحب ، فقد درسوا نفوسهم فى صحبة أحبابهم دراسة بلغت الغاية فى محاولة التعرف إلى سرائر الروح »[٣]، «الهوى المعقّد يوقظ القريحة ... ولا كذلك الهوى الموحّد ، فقد ينتهى إلى الملال »[٤]، « فزائر المتحف يخرج كما يدخل فلا يكون محصوله غير ذكريات . ولا كذلك زائر المعرض ، فهو يقتنى ما يروقه من النفائس حين يشاء »[٥]، « الإسلام لا يعترف بالكهنوت ... ولا كذلك المسيحية ، فهى تعطى رجال الدين طوائف كثيرة من الحقوق »[٦]، « الشاعر اللبنانى يستطيع الظهور بقصيدة أو قصيدتين . ولا كذلك الكاتب المصرى أو الشاعر المصرى ، فبلادنا لا تسمح بالظهور لكاتب أو شاعر إلا بعد أن يشقى بالنثر والنظم عشرين سنة أو تزيد »[٧]، « ومما لاحظته أن الطيور المؤذية تخاف من هواء البحر ، فليس فى الإسكندرية حدآت

(١) المرجع السابق / ٧١ .
(٢) السابق / ١٠٢ .
(٣) العشاق الثلاثة / ١٢ .
(٤) المرجع السابق / ١١٢ .
(٥) زكى مبارك ناقدا / ١١٦ .
(٦) المرجع السابق / ١٤٩ .
(٧) الحديث ذو شجون / ٥٤١ .

ولا غربان ... ولا كذلك العصافير ، فهى تملأ الإسكندرية »[١]، « لا يجوز فى جامعة باريس أن يتكلم أحد بغير اللغة الفرنسية . ولا كذلك الحال فى الجامعة المصرية »[٢].

وكثيراً ما يستخدم زكى مبارك ضميراً بين اسم الاستفهام «مَنْ» أو « ما » والاسم الذى بعده فيقول مثلاً : « من هو محمد ؟ » و «ما هو الكتاب الذى تفضله ؟ ». وبعض المتشددين ينكرون إيراد الضمير فى هذا الموضع ، إلا أن له توجيها مقبولاً ، فقد أجازه المجمع اللغوى القاهرى على أساس أنه ضمير فصل أو ضمير عائد على متأخر فى اللفظ والرتبة أو على أنه مبتدأ وما بعده خبر له ، وجملة المبتدإ والخبر هى خبر اسم الاستفهام . وقد أشار على النجدى ناصف إلى آية قرآنية مركبة هذا التركيب فى أحد إعرابيها ، وهى قوله تعالى : { فسيعلمون من هو شرٌّ مكانا وأضعف جندا }[٣]. وإلى القارئ بعض الأمثلة من كتابات زكى مبارك على هذا الاستعمال :

« ما هى حالة المرء الذى ينتظر هذا النور الذى تراه فوق البرهان

---

(١) ألحان الخلود / ١٩١ .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٤٩ .

(٣) انظر « كتاب الألفاظ والأساليب » / إعداد وتعليق محمد شوقى أمين / مجمع اللغة العربية / القاهرة / ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م / ١٨١ ـ ١٩٤ .



والدليل ؟ »[١]، « ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده وبين من يدخل البادية بلا زاد ؟ »[٢]، « وما هى غاية هذا العلم ؟ »[٣]، «ولكن ما هى آثاره النثرية؟ »[٤]، « ما هى الكتب التى تُدْرَس فى هذا الفصل للدلالة على تطور اللهجات العربية ؟ »[٥]، « وما هى الكتب التى بين أيدينا أيها الناس؟ »[٦]، « فما هو الزائف ؟ وما هو الصحيح ؟ »[٧]، « ما هى العناصر التى يجب استبقاؤها من التراث القديم »[٨]، « وما هى لغة العيون ؟ »[٩]، « فمن هم أولئك العلماء ...؟»[١٠]، «ما هى الأمم التى عرفها المسلمون بفضل الفتوحات؟»[١١]، « ما هى الأسباب التى قضت بشهرة محمد عبده وقاسم أمين ؟ »[١٢]، « لو كان أحمد أمين دَرَسَ مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان لأدرك بلا شك أن

---

(١) الأخلاق عند الغزالى / ٦٠ .

(٢) المرجع السابق / ١٨٥ .

(٣) السابق / ٢٣٥ .

(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٢٨١ .

(٥) التصوف الإسلامى / ١ / ٣٧٩ .

(٦) كتاب الأم / ١١ .

(٧) الأسمار والأحاديث / ١٢٥ .

(٨) المرجع السابق / ١٤٤ .

(٩) ليلى المريضة فى العراق / ٥٥ .

(١٠) المرجع السابق / ٤١٦ .

(١١) ملامح المجتمع العراقى / ٢٧٥ .

(١٢) عبقرية الشريف الرضى / ١٩ .

لهذين الرجلين غاية ... فما هى تلك الغاية ؟ »[١]، « ومن هم المدرسون الذين يدرّسون لطلبة كلية الآداب ذلك الأسلوب الأحمدى؟ »[٢]، «ولكن ما هى الشمائل التى تَصِلُنى بسيدنا رسول الله ؟ »[٣]، « من هو أزرق العينين ؟ »[٤]، «ولكن ما هو حديث ١٨ يوليو ؟»[٥]، «ومن هو الأبله المخدوع الذى تقدرين على اقتناصه بعد اليوم ؟ »[٦]، « ما هو الموت ؟ وما هو تكريم الأموات ؟ »[٧]، « من هو المخلوق الذى يتوهم أن له دَيْنًا في عنقى ؟ ومن هو الروح الطاهر الذى يطمع فى السيطرة على شيطانية روحى ؟ »[٨]، « ومن هو الدكتور زكى مبارك حتى أسرق منه وهو أسطورة من الأساطير ؟ »[٩].

وثمة تعبيرات بعينها تتكرر فى مؤلفات زكى مبارك منها تعبير «(وثبة من) وثبات الخيال » أو « وثبة وجدانية » أو « وثبة شعرية » وما إلى ذلك : « أما مطران فهو شاعر مبدع ... وله وثبات لا ينهض

(١) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٦١ .
(٢) المرجع السابق / ٧٠ .
(٣) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ٥١ .
(٤) ألحان الخلود / ٩٢ .
(٥) المرجع السابق / ١٢٦ .
(٦) مجنون سعاد / ٤٣ .
(٧) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٣٤ .
(٨) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٢٢٣ .
(٩) قصائد لها تاريخ / ١١٢ .



بها إلا الفحول »[١]، « وجملة « والعوادى فى جوانبها صرعى » من أروع وثبات الخيال »[٢]، « فالجمر يحرق ، ولكنه حين يمسه الحب يحترق، وتلك من وثبات الخيال »[٣]، « والبيت الثانى وثبة من وثبات الخيال»[٤]، « ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسى الشاعر بطء الكواكب ثم ينظر فيراها ابتُلِيَتْ به فباتت تقاسيه وهى حسرى لواغب؟ »[٥]، « والبيت الأخير من وثبات الخيال »[٦]، « والأدباء يَرَوْن هذا من وثبات الخيال»[٧]، « سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبى مع التعامى عن معانيه الجيدة وخياله الوثاب »[٨]، «فما تراه مبالغة فى كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الإنساني»[٩]، « والشاهد فى الشطر الثانى من البيت الثانى ، وهو عندى وثبة من وثبات الخيال »[١٠]، « وكانت للرضيّ وثبات نفسية تسمو به إلى المطالبة بعرش الخلافة الإسلامية»[١١]،« وانظر هذه الوثبة

(١) الموازنة بين الشعراء / ٢٩٠ .
(٢) المرجع السابق / ٣١١ .
(٣) السابق / ٣٣٦ .
(٤) السابق / ٣٤٢ .
(٥) السابق / ٣٨٣ .
(٦) أحمد شوقى / ٤٣ .
(٧) مدامع العشاق / ٣٢ .
(٨) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢ / ١٢١ .
(٩) المرجع السابق / ٢ / ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .
(١٠) العشاق الثلاثة / ١٢٩ .
(١١) المدائح النبوية / ١٢٧ .

الشعرية فى تصوير شخصية الرسول »[١]، « كيف تعيش بعد أن حُرمت من وثبات الأفئدة وخفقات القلوب ؟ »[٢]، «كانت لهذا الرجل وثبات شعرية قليلة الأمثال»[٣]، « ابتسمتُ لأنك تقولين إن فى رسائلى وثبات وجدانية تنقلنى إلى صفوف العباقرة من أهل البيان »[٤]، «والواقع أن إقبال المصريين على مصايفهم الجميلة ليس إلا وثبة جديدة فى تذوق الحياة»[٥]، « ونَظْم ألوف الأبيات فى غرض واحد وثبة من وثبات الخيال»[٦]، « والفكر له وثبات فى الخلود »[٧].

ومن التعبيرات الخاصة التى تتردد فى كتابات زكى مبارك ولا أذكر أنى وجدتها فى أسلوب غيره من الكتاب تعبير « أفنان الجمال » : «شوقى فى لبنان ... شاعر يصدح فوق أفنان الجمال ، ولا يرى ما يسوؤه من الاضطهاد »[٨]، « فأنا ، بصريح القول ، مُوكَّل بالحسن أتبعه، ومغرم بالتغريد على أفنان الجمال »[٩]، « أرجو أن تحترس الآنسة حياة ... من أن تنهانى عن التطلع إلى العيون والخدود والثغور والنحور والنهود ، فإنه

---

(١) المرجع السابق / ١٥٥ .

(٢) ليلى المريضة فى العراق / ١٩٤ .

(٣) عبقرية الشريف الرضى / ٨٦ .

(٤) مجنون سعاد / ٦٩ .

(٥) الحديث ذو شجون / ٤٥٢ .

(٦) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٠٣ .

(٧) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ١٢٨ .

(٨) أحمد شوقى / ٥٨ .

(٩) مدامع العشاق / ١٣ .



لا سبيل إلى مثل هذا المثاب ! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال كما يردّ الشارب الكأس وهى تتوهج بين أنامل الساقى الجميل»[١]، « ولى قلب يتشوف إلى أفنان الجمال تشوف الشمس إلى أنداء الصباح »[٢]، « الله ... هو الذى دعانى إلى التغريد فوق أفنان الجمال »[٣]، « بينى وبين الله عهد وميثاق . والعهد بينى وبينه أن أقضى العمر ساجداً فوق ما أبدع من أفنان الجمال »[٤]، « أنا حزين يا سعاد ... على العمر الذى أنفق منه بلا حساب فى التغريد فوق أفنان الجمال »[٥]، « فإن اخترمتنى المنية قبل أن أراك يا ريحانة قلبى فتذكّرى أن روحى يحوم حول دارك فى كل وقت وهو ظمآن ، وسيستمع فى كل لحظة عساه يسمع منك شهقة وجيعة على ذهابى ذهاب الطائر الغريب الذى ضنّت عليه المقادير بأن يغرّد فوق أفنان الجمال »[٦]، «أسئلة كثيرة من قراء « البلاغ » عن السبب فى إكثارى من الكتابة عن الحب . والجواب حاضر ، وهو أننى أرى إغناء الأدب العربى بالأدب الوجدانى ، وحياتى قامت على التغريد فوق أفنان الجمال »[٧].

---

(١) المرجع السابق / ١٨١ .

(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٢٠٢ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) الحديث ذو شجون / ٤٠٣ .

(٥) مجنون سعاد / ٨٢ .

(٦) المرجع السابق / ١١١ .

(٧) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٣٧ .

الكتاب ( يقصد جبران ) ، ثم نمضى فى عرض ما فى كتابه من دقائق الأغراض »[1] ، « محبوبتى الغالية ، ... أنت أجهل من أن أتحدث إليك عن هذه الدقائق الذوقية »[2] ، « وسيأتى يوم ينعزل فيه الدكتور طه ... ليحقق مع تلاميذه بعض الدقائق الأدبية والفلسفية »[3] ، « أحسب أن يرتاض قرائى على الشعر لأنه يوجب عليهم النظر فى دقائق اللغة العربية »[4] ، « لم يكن لهذه النهضة ( يقصد النهضة الأدبية الحديثة ) غنى عن لغة قوية تستطيع التعبير عن الدقائق والجلائل من المعانى والأغراض »[5] .

كذلك فأديبنا مغرم بإدخال كلمتى « الأسرار » و « السرائر » فى تعبيرات مثل « أسرار القلوب » و « أسرار الشعر » و « سرائر النفوس » و « سرائر المجتمع » ... إلخ : « وقد سما شوقى بهذه القصيدة سمواً لا يدرك مغزاه غير من يعرف أسرار الشعر وسرائر القلوب »[6] ، « وقد وجد ( شوقى ) فى سورية ولبنان جماعات كثيرة تعرف من سرائر شعره أكثر مما يعرف »[7] ، « إن أقوى القلوب هى

---

(١) زكى مبارك ناقدا / ١٤٧ .

(٢) مجنون سعاد / ٦٣ .

(٣) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٠٥ .

(٥) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ١١٠ .

(٦) أحمد شوقى / ٣٧ .

(٧) المرجع السابق / ٤٨ .



القلوب التى واجهت سرائر الليل »[1] ، « وأول من تلفَّت الناس إلى كلامه فى المعانى الوجدانية وأسرار القلوب هو حذيفة بن اليمان الصحابى الجليل »[2] ، «التصوف هو البصر بأسرار القلوب »[3] ، «أتستطيع أن تمحو من الدنيا أثر الدراسات الأدبية والفلسفية والفنية والاجتماعية والتاريخية والتشريعية التى يضطلع بأعبائها فحول الأدب من الواقفين على أسرار النفوس والقلوب والعقول ؟ »[4] ، « والمعلم الصالح لا يتحدث عن الهوى والفتون إلا وهو يرمز إلى حقائق وأضاليل من أسرار المجتمع وسرائر القلوب »[5] ، « ولك يا معالى الوزير أن تَبْلُوَ سرائر هذا التقرير إن أردت »[6] ، « وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس المحجَّب من سرائر النفوس »[7] ، « أنا بين جدران الغرفة التى ... دوّنتُ فيها ما عرفتُ من أسرار المجتمع وسرائر القلوب »[8] ، « أُعيذكم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التى تفصح عن بصر بخلائق المجتمع وسرائر الناس »[9] ، « أيها

---

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ١٠ .

(٣) المرجع السابق / ٢ / ١١ .

(٤) الأسمار والأحاديث / ٣٩ .

(٥) المرجع السابق / ٢٦٣ .

(٦) ليلى المريضة فى العراق / ١٢ .

(٧) المرجع السابق / ٣٩ .

(٨) السابق / ٢٨٨ . والغرفة المشار إليها هى الغرفة التى كان يسكنها آنئذ فى بغداد عند عمله فى دار المعلمين العليا هناك .

(٩) عبقرية الشريف الرضى / ٢٤ .

الشريف ، أنا فى وطنك وفى ضيافتك ، فارفع الحُجُب عن أسرار قلبك وسرائر عبقريتك »[١] ، « وقد جهلتُ يوما فتوهمت أنى أعرف سرائر قلبى ، ثم عرفت أنى واهم فيما توهمت ، فما كان قلبى إلا غابة تعيش فيها ألوف الألوف من أنواع الشجر والنبات والطير والحيوان والأفاعى والصِّلال »[٢] ، «وإنما يصل إليه الخطأ من ... عدم تعمقه فى درس السرائر النفسية والوجدانية »[٣] ، « ما تسمو لغة على لغة إلا بقوة الإفصاح عن السرائر الوجدانية »[٤] ، « الموحِّدون فى الحب ... درسوا نفوسهم فى صحبة أحبابهم دراسة بلغت الغاية فى محاولات التعرف إلى سرائر الأرواح»[٥] ، « هل يكون من العجب أن يخلق الشاعر من معشوقته دمية روحية يجاذبها أطراف الحديث حول أسرار الوجود ؟ »[٦] ، « لو أن الأستاذ سلامة موسى قرأ كتاب « ليلى » لعجب من أن يستطيع الرجل فى عام واحد أن يدرك سرائر هذه البلاد »[٧] ، « إنْ وَصَلَ كتابى إلى سرائر المجتمع الإسلامى فسيغير ما يغيّر ويبدّل ما يبدّل»[٨] ، « الكاتب البليغ والشاعر المجيد هما أعرف الناس بسرائر اللغة »[٩] ،

---

(١) المرجع السابق / ٤٤ .

(٢) ملامح المجتمع العراقى / ١٨٨ .

(٣) جناية أحمد أمين على الأدب العربى / ٤٦ .

(٤) العشاق الثلاثة / ٨ .

(٥) المرجع السابق / ١٢ .

(٦) السابق / ١٨ .

(٧) الحديث ذو شجون / ٨٢ .

(٨) المرجع السابق / ١٣٧ .

(٩) السابق / ٤٤٢ .



«مصر فى سرائر أبنائها الأحرار تريد أن تكون صلة الوصل بين الشرق والغرب »[١] ، « أين الكاتب المنشود ، الكاتب الذى يحدثنا عما نعرف أو نجهل من أسرار النفوس وسرائر القلوب ؟ »[٢] ، « القلم الصوَّال ... يوحى إلى القارئ أنه قبس من السرّ المكنون فى سرائر الغيوب »[٣] ، «هو ( أى جبران ) روح شرّده الشرق ليدرك سرائر الألم والحنين »[٤] ، «مهمة المجمع اللغوى ... أن يستفيد من آراء العارفين بسرائر اللغة العربية »[٥] . وبالإضافة إلى هذه الشواهد ، وهناك الكثير منها مما ضربت عنه صفحا ، نرى الدكتور زكى مبارك قد أعلن ذات يوم عن كتاب له بعنوان « سرائر الروح الحزين » ، وهو كتاب شعرى نثرى ، وإن كنّا لا نعرف عن هذا الكتاب شيئًا[٦] .

وكثيراً ما نقابل عنده أيضًا عبارة « أما بعد » ، وعادة ما يكون ذلك عند انتهائه من عرض فكرة أو مناقشتها ، وكذلك عند رغبته فى لملمة أشتاتها وما أشبه : « أما بعد فما خلاصة هذا البحث ؟ »[٧] ، «أما بعد فهذه كلمات سريعة بدَّدْتُ بها ساعات من الطريق بين القاهرة

---

(١) زكى مبارك ناقدا / ١٧ .

(٢) المرجع السابق / ١١٩ .

(٣) السابق / ١٢١ .

(٤) السابق / ١٥١ .

(٥) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٥٧ .

(٦) يوجد إعلان عن قرب ظهور هذا الكتاب فى آخر الطبعة الأولى من كتاب « الأسمار والأحاديث » .

(٧) الموازنة بين الشعراء / ٣١٢ .

والمنيا ، ولن أنظر فيها بعد ذلك »[١]، « أما بعد ، فقد آن أن نكتفى بما أسلفنا من الكلام فى شخصية محيي الدين بن عربى »[٢]، « أما بعد فقد أدينا واجبنا فى نزاهة وإخلاص ، ولخصومنا أن يفعلوا ما يشاؤون . فلو ركبوا متون الهواء ووضعوا أفواههم فى مسامع الزمان لعجزوا عن دحض ما قدّمنا من الحجج والبراهين »[٣]، « أما بعد ، فهذه هى الصورة الصحيحة لمضبطة مجلس الشعراء كما جاء فى الورقة السحرية »[٤]، « أما بعد فهل بقى ما أنص عليه فى هذا التمهيد ؟ آمنت بالله وكفرت بالحب »[٥]، « أما بعد فقد انتهى ما بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك ، وقد حرَّمْتُ على نفسى رؤية الزمالك إلى أن أموت »[٦]، « أما بعد فهل ترانى أفلحت فى رسم صورة صحيحة للحياة التعليمية فى العراق ؟ »[٧]، « أما بعد فقد آن للقلم أن يستريح بعد هذه الأشواط »[٨]، « أما بعد فهذه رواية لم يكتب مثلها كاتب فى الموضوع الذى صيغت فيه »[٩].

وهناك تلوينات غاية فى الطرافة يدخلها كاتبنا على هذه العبارة مثل

(١) أحمد شوقى / ٧٠ .
(٢) التصوف الإسلامى / ١ / ٢٠٨ .
(٣) كتاب الأم / ١١٥ .
(٤) الأسمار والأحاديث / ١٤٢ .
(٥) العشاق الثلاثة / ١٣ .
(٦) ليلى المريضة فى العراق / ٣٥٥ .
(٧) ملامح المجتمع العراقى / ٢٦٥ .
(٨) اللغة والدين والتقاليد / ١٣٣ .
(٩) زكى مبارك ناقدا / ١٤٤ .



قوله : « أما بعد ، وقد تعبنا من « أما بعد » ، فإن موقفنا من هذه الآراء موقف المؤرخ للنظريات الفلسفية »[١]، « أما بعد ، وقد تعبت من « أما بعد » ، فهذه ملاحظات أقدمها إلى معالى وزير المعارف راجيا أن تظفر من اهتمامه بما هى له أهل »[٢]، « أما بعد ، وقد أشقتنى « أما بعد »، فأنا أسارع إلى طبع ديوان « ألحان الخلود » قبل أن أموت»[٣].
« أما بعد ، وقد أشقتنى وستشقينى « أما بعد »، فهذا قصيد فى رثاء الشيخ إبراهيم الدباغ »[٤]، « ثم أما بعد فهذا مقال تحررتُ فيه من مراعاة الظروف والملابسات فى مصر والعراق »[٥]، « ثم أما بعد فقد شغلت نفسى بالدكتور طه حين وكتابه سهرتين كاملتين»[٦]، « أما بعد فماذا أريد أن أقول ؟ »[٧]، « أما بعد فأين أنا مما كنت أريد ؟ »[٨].

وتنم التلوينة الأولى على أنه كان على وعى بإكثاره من قولة : «أما بعد» بل ضيقه بها ( ظاهريا طبعا ) . أما التلوينة الثانية فهو يستعملها عادة عندما يكون سبَقَ له أن قال : « أما بعد » ثم احتاج إلى أن يكررها مرة ثانية . وطرافة التلوينة الثالثة أن الكاتب أو الخطيب

(١) التصوف الإسلامى / ٢ / ٣٧٥ .
(٢) الحديث ذو شجون / ٥١٧ .
(٣) ألحان الخلود / ١٢ .
(٤) المرجع السابق / ٣١٣ .
(٥) ملامح المجتمع العراقى / ٨٧ .
(٦) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٩٦ .
(٧) الحديث ذو شجون / ٣٦٥ .
(٨) ملامح المجتمع العراقى / ١٨٣ .

إنما يقول : « أما بعد » عندما ينتهى من موضوعٍ أو فكرةٍ ما . ومعنى هذا أنه قد قال ما كان يريد قوله ، أما لو جاء بعد هذا كله وقال إنه لا يعرف ماذا يريد أن يقول فمعناه أنه قد بدد وقته ووقتنا دون أن يقول شيئًا . وبطبيعة الحال فإن هذا لا ينطبق على حالة زكى مبارك . إنما هى حيلة فنية يوظفها للإطراف والتفكهة .

ومن سمات أسلوب زكى مبارك المميزة أيضًا كثرة تساؤله بعبارة «ثم ماذا ؟» . وقد يكررها فيقول : « ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟ » ، أو قد يكرر « ثم » فقط : « ثم ماذا ؟ بقى أن نشرب صبابة الكأس من نونية شوقى »[1] ، « ثم ماذا ؟ بقى ختام القصيدة »[2] ، « ثم ماذا ؟ ثم ذهب « شوقى » الذى قطع ما بينه وبين كرام الرجال ... وبقى «شوقي» الشاعر الذى رثاه المازنى يوم مات بعد أن قال فيه ما قال »[3] ، « ثم ماذا ؟ ثم يختم شوقى قصيدة « النيل » بأبيات تفسر معنى الوطنية»[4] ، « ثم ماذا ؟ ثم ظنَّ خصومنا أننا وقفنا عند كلمة الغزالى وتناسينا كلمة المكى »[5] ، « ثم ماذا ؟ ثم أُجْمِلُ الغرض من هذا الحديث فأقول : ... »[6] ، « ثم ماذا ؟ أتَرَوْنَنِى وصلتُ إلى جلاء هذا

(١) الموازنة بين الشعراء / ٣٨٩ .
(٢) المرجع السابق / ٣٩٠ .
(٣) أحمد شوقى / ٣٦ .
(٤) المرجع السابق / ٥٤ .
(٥) كتاب الأم / ١٨ .
(٦) ملامح المجتمع العراقى / ٦٤ .



الجانب من حياة الرشيد ؟ »[1] ، « ثم ماذا ؟ ثم أقول إن أحمد حسنين صوّر نفسه فى كتابه بصورة الرجل المتحَن بهوى الصحراء»[2] ، « ثم ماذا ؟ ثم نقرأ بحثه عن « حيرة الأدب المصرى » فنعرف أن الكاتب هو الحيران »[3] ، « ثم ثم ماذا ؟ ثم امتطيت قطار الإسكندرية وأنا حزين »[4] ، « ثم ماذا ؟ ثم أُوصِى الأدباء بأن يهتموا بالشعر »[5] ، « ثم ثم ماذا ؟ ثم أذكر أن الأبيات التالية صبابة الكأس من القصيدة الماضية »[6] ، « ثم ثم ماذا ؟ ثم يكون الشعر المقبوس من الروح »[7] ، «ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟ ثم عرضتُ بالتفصيل لمشكلة اليوم ، وهى النزاع بين الأزهر ودار العلوم »[8] ، « ثم ماذا ؟ ثم أخبر صديقى صاحب «الرسالة» باعتراض الصديق محمد عبد الوهاب »[9] . كذلك رأيته استخدم هذا التعبير ثلاث مرات أثناء عرضه قصيدةً قصصية لعمر بن أبى ربيعة يقص فيها مغامرة من مغامراته العاطفية ، فكان يتدخل كل عدة أبيات قائلاً للشاعر : « ثم ماذا ؟ » ، « ثم ماذا يا خبيث؟ » ،

(١) المرجع السابق / ٢٩١ .
(٢) زكى مبارك ناقدا / ١٠١ .
(٣) المرجع السابق / ١١٨ .
(٤) ألحان الخلود / ٩٠ .
(٥) المرجع السابق / ١٦٩ .
(٦) السابق / ١٧٠ .
(٧) السابق / ٢٨٩ .
(٨) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٧١ .
(٩) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٢٨ .

« قاتلك الله ! ثم ماذا ؟ » وكان ذلك فى أول كتاب ظهر له ، وهو « حب ابن أبى ربيعة وشعره »[١].

ويلاحظ أنه يستخدم هذا التعبير عندما يريد أن يضيف شيئًا إلى ما قال . وعادة ما يقال فى مثل هذه الحالة : « وفضلاً عن ذلك فإن ... أو « إلى جانب هذا فإن ... » أو « ثم إن الأمر كيت وكيت » . أما زكى مبارك فإنه ، كعادته فى كثير من الحالات ، يفترع طريقة أسلوبية جديدة يضع عليها بصمته فتسجَّل فى عالم الأساليب باسمه وتصبح من السمات المميزة لأسلوبه . والملاحظ أنه يُعْقِب هذا السؤال غالبًا بكلمة « ثم » وبعدها الكلام الذى يريد أن يضيفه كما رأينا فى بعض الأمثلة التى مضت .

وكما يكثر زكى مبارك من السؤال بـ « ثم ماذا ؟ » نراه يكرر الجملة الاستفهامية التالية عند فراغه من عرض فكرة ما ورغبته فى تلخيصها أو إبراز أهم ما فيها : « ماذا أريد أن أقول ؟ » . وإلى القارئ أمثلة على هذا الملمح الأسلوبى عنده : « ماذا أريد أن أقول ؟ ماذا أريد؟ وهل تركتْ لى ليلى عقلا أعرف به ما أعنى ؟ »[٢]، « ماذا أريد أن أقول؟ أريد أن أقول إن العقل يفرض أن نوضّح أغراضنا فيما ننشر من رسائل ومؤلفات »[٣]، « ماذا أريد أن أقول ؟ أنا أريد القول بأن تقاليد

---

(١) ص ١١٦ .
(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٢٦٢ .
(٣) المرجع السابق / ٤١٨ .



العراقيين فى القديم والحديث توجب أن تكون سهراتهم فى البيوت على نحو ما كانت الحال فى مصر إلى عهد قريب »[١]، « ماذا أريد أن أقول؟ أريد أن أقرر بصراحة أن البلاد التى فتحها المسلمون أثرت فيهم بعض التأثير »[٢]، « ماذا أريد أن أقول؟ أنا أريد النص على أن الأدباء الذين ظهروا فى هذا العهد لم يكونوا لاعبين ولا مازحين »[٣]، « ماذا أريد أن أقول ؟ ما يهمنى النص على ما وقع فيه المتنبى من خطإٍ أو صواب ، وإنما يهمنى القول بأن حرص المتنبى على طلب الملك هو الذى خلق تلك الشاعرية الطريفة »[٤]، « أرانى أطَلْتُ فى غير طائل ، فماذا أريد أن أقول ؟ أريد أن أهوى بيدى على رأس المازنى فأحطمه بلا ترفق عقابا على ما صنع بنفسه بلا ترفق »[٥]، « ماذا أريد أن أقول ؟ أقول إنى خرجت ظمآن إلى الحرية ... »[٦]، « ولكن ... ولكن ... ماذا أريد أن أقول ؟ إن هذه الرعناء تملك من أسباب النضرة والنعيم ما ينقل العاشق إلى رحاب الفراديس ، ولكن .. ولكن .. ماذا أريد أن أقول؟ أقول إن هذه الجميلة الفتانة الخلابة مريضة بداءٍ عضالٍ هو الغرام بالنكتة المصرية »[٧]، « ماذا أريد أن أقول ؟ أنا أمشى على الشوك وأنا أقيد

---

(١) ملامح المجتمع العراقى / ٤٦ .
(٢) المرجع السابق / ٢٧٧ .
(٣) زكى مبارك ناقدا / ١٠ .
(٤) المرجع السابق / ١٠٩ .
(٥) السابق / ١٣٢ .
(٦) ألحان الخلود / ٩١ .
(٧) مجنون سعاد / ٧٢ .

هذه الفكرة الفلسفية لأن بنى آدم يحتملون جميع الأفكار إلا الأفكار المتصلة بحيوات الأنبياء »[١]. وقد وجدته ذات مرة يغير السؤال ليجعله خاصًا بغيره لا به هو فقال: « فماذا يريد المؤلف أن يقول ؟ » ليجيب كالعادة بالفعل « يريد »: « يريد أن يجعل عبء الكمال فوق كاهل الإنسان لا كاهل الطبيعة »[٢]. .

وهناك عبارة أخرى يستخدمها فى مثل هذا الموقف أيضًا ، وهى قوله « وخلاصة القول ( أو « وجملة القول » ) كذا وكذا » . وهذه العبارة منتشرة بكثرة فى كتاباته ، ويمكن للقارئ أن يجد أمثلة عليها فى « أحمد شوقى / ٥٠ » و « النثر الفنى / ١/ ٤٩ ، ٢٧٧ ، و ٢/ ٦٦، ٢٦٣، ٣١٥، ٣٩٤ » و«الأسمار والأحاديث/ ٣٨٤ » و«التصوف الإسلامي/٢/٢٤، ٣٦ ، ١١٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ » و « المدائح النبوية / ٨٥، ١٣١، ١٩٨ » و« العشاق الثلاثة/ ٥٣، ١٤٩ » و « ليلى المريضة فى العراق / ٣٥، ٣٩ » و « ملامح المجتمع العراقى / ٤٨ » و«الحديث ذو شجون / ١٢٩ ، ٤٤٣ » و « زكى مبارك ناقدا / ١٠١، ١٠٦ ، ١٠٩ » و « اللغة والدين والتقاليد / ٥٦، ٧٤ » و«عبقرية الشريف الرضى / ٤٨ » و « ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ١١٧ » .

ومما يتصل من ملامح الأسلوب فى كتابات زكى مبارك بالجمل الاستفهامية أنه كثيراً ما يورد سؤالاً ثم يجيب عليه بـ « هيهات »

(١) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ٤٥ .

(٢) زكى مبارك ناقدا / ٣٨ .



مفردة، أو مكررة على النحو التالى : « هيهات هيهات » أو « هيهات ثم هيهات » . وأحيانا ما يوردها بعد جملة غير استفهامية : « أكانت تتسع اللغة لهذه الألقاب العديدة والمصطلحات الكثيرة ، أم كان يتسع وقتنا لدراسة الفنون على هذا النحو فى اختلاف أنواعها وتباين أشكالها؟ هيهات هيهات ! »[١]، « وفى كتاب « كليلة ودمنة » فقرات كثيرة عن القَدَر وتصريفه لشؤون الناس . وما نحب أن نفعل كما يفعل كتّاب الغرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقية . هيهات ! فالناس فى الشرق والغرب ضعفاء ، وإن فتنهم النصر فى بعض الأحيان»[٢]، « انظروا فى هذا واسألوا أنفسكم : أيمكن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف ؟ هيهات هيهات ! »[٣]، «وفى البيت الخامس حنين إلى النواقيس . ولكن أى حنين ؟ أهو حنين الخاشعين؟ هيهات ! إنه حنين الفَجَرة الذين كانوا يتخذون الدِّيَرة ملاعب صبابة ومجالس سُلاف»[٤]، « هل يحتاج هذا الشعر إلى شرح؟ هيهات !»[٥]، «وهذا أيضًا خيال شعراء ، فهو يتوهم أن المقادير ركّبتْ عينى أبى الهول لنقد الحوادث وأعدّت مخلبيه لافتراس الطغاة ، ولكن هيهات لما يظن

(١) حب ابن ربيعة وشعره / ٦٦ .

(٢) الموازنة بين الشعراء / ٣٤٥ .

(٣) المرجع السابق / ٤٠٢ .

(٤) السابق / ٤٠٨ .

(٥) أحمد شوقى / ٥٨ .

هيـــهات ! »[١]، « هل العـبـقـرية لبـاس مـهندم ولسان معسـول ؟ هيهات! »[٢]، « هى صـورة لحـالة من حـالات النفس حين يثـور الوجـد ويتـمنـى المحب ليـأسـه لو أفلت من أشـراك هواه . وهيــهـات ! »[٣]، « أفيُعَدّ هذا من المبتذلات ؟ هيهات هيهات ! »[٤]، «هل أستطيع أن أحكم بأن إعجابى بذلك الكتاب ( يقصد كتاب « المكافأة » لأحمد بن يوسف المصرى ) هو أيضًا مكافأة لمؤلفه رحمه الله وأن جهده فى وضعه وتنسيقه لم يضع ... ؟ وهيهات أن يضيع عند الله شيء ، هيهات هيهات ! »[٥]، « من أين جـاءته هذه النزعـة ؟ أترون هذا الفن من مبتكراته ؟ هيهات ! »[٦]، « أيجزينى الناس على التلطف خير الجزاء ؟ هيهات ! إن المهذب عندهم مغبون »[٧]، « وهل يكون العفاف فضيلة اهتدى إليها الإنسان لأنه أشرف من الحيوان ؟ هيهات ثم هيهات ! فالعفاف فضيلة يؤمن بها الحيوان أصلح الإيمان »[٨]، «إن الطلبة الذين سيتقدمون للامتحانات العمومية فى مدارس الحكومة خاصة يُلحّون إلحاحًا شديداً فى إتمام المقرارات ، ولكن لا تحسب أنهم يفعلون ذلك جداً

---

(١) المرجع السابق / ١٣٣ .

(٢) السابق / ٢٤٩ .

(٣) مدامع العشاق / ١٨٧ .

(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٢٣٥ .

(٥) المرجع السابق / ١ / ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٦) التصوف الإسلامى / ٢ / ٧٦ .

(٧) الأسمار والأحاديث / ٥٧ .

(٨) العشاق الثلاثة / ١٢٤ .



ونشاطا . هيهات هيهات ! إنهم يفعلون ذلك لينجوا من دفع القسط الرابع »[١]، « وهل تجوز عليّ الحِيَلُ وأنا خرّيج مونمارتر ومونپارناس ؟ هيهات هيهات ! »[٢]، « الصحافة الحزبية فى مصر صحافة مؤذية ، وهى كريهة المذاق . ولن ينجو العراق من شرّ هذه الصحافة إلا يوم تنجو منها مصر ، وهيهات ثم هيهات ! »[٣]، « من الخطإ القبيح أن يعتمد الكاتب على ماضيه الجميل وأن يتوهم أن القراء قد يذكرون حين يخطئ أن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن الذى يحلق ألف مرة قد يُغْتَفر له الإسفاف مرة أو مرتين . هيهات هيهات هيهات ! فليس للقراء ذاكرة ، وليس للقراء ميثاق »[٤].

وكثيراً ما يردد كاتبنا العبارات التالية وأمثالها : « إن شاء الحب » أو « أمرى وأمره للهوى » أو « معاذ الأدب » أو « غضبة الله والحب على بيروت » أو «توكلت على الهوى ونظمت هذه القصيدة» أو «أستغفر الوطن » أو « معاذ الأدب والذوق » أو « معاذ الذوق والعقل» أو «أستغفر الحب» أو « أستغفر العقل » أو « بحمد الله والهوى » أو «يرحمك الحب يا قلبى » أو « غضبة الحبّ على فلان » أو « حرس الحبُّ ليلى » أو « اتّق الذوق يا فلان » أو « معاذ الحب » أو «بإذن الهوى» أو « غضبة الأدب عليك يا فلان » ، واضعًا كلمات «الحب والوطن والأدب والعقل ... إلخ » مكان لفظ الجلالة . وهو

---

(١) المرجع السابق / ١٠٨ .

(٢) ليلى المريضة فى العراق / ٤٩ .

(٣) ملامح المجتمع العراقى / ٧٣ .

(٤) الحديث ذو شجون / ١٣٥ .

استعمال مباركيّ صميم ، ولا أذكر أني وجدت مثل هذا الاستعمال عند غيره من الكتاب قديمًا أو حديثًا . وهذا من مظاهر جرأته واقتحاماته الفكرية والأسلوبية .

وممّا يتميز به أسلوب الدكتور مبارك أيضًا أنه يكثر من الأدعية الاعتراضية أو التذييلية ، لا للأشخاص وحدهم بل أيضًا للأشياء والأماكن والمعانى والأزمنة والكتب والدراسات ... إلخ ، وهو الغالب . وهو يفعل ذلك فى كثير من الأحيان للتفكهة ، وبخاصة إذا كان الدعاء لغير الأشخاص . وقد رأينا كيف أن النزعة الفكاهية سمة أصيلة فى شخصيته وأسلوبه ، فبعض هذه الأدعية إذن مظهر من مظاهر هذه النزعة. والآن مع الشواهد على هذا الملمح الأسلوبى :

فهو فى ختام محاضراته عن عمر بن أبى ربيعة يدعو له بدعاء مقارب لما دعا به القرآن لعيسى ويحيي عليهما السلام فى سورة «مريم»، وهو ما يثير الضحك . فأين عمر الشاعر الغزلى الماجن من هذين النبيين الكريمين ؟ وهذا نص الدعاء : «فسلامٌ عليه يوم قال الشعر! وسلام عليه يوم ودّعه ! وعفا الله عمن فُتِن بشعره فأجاب داعى الشباب!»[1]. ولعمر بن أبى ربيعة أيضًا يدعو بهذا الدعاء الذى لا يُدْعَى به إلا للصحابة والتابعين: « وكان (الحارث المخزومي) يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة ، رضى الله عنه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء»[2]. وهو، كما ترى ، دعاء الظرفاء العابثين . كما يعلق

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ١٢١ .
(٢) المرجع السابق / ١٦٥ .



على بيتين لابن الزيات يذكر فيهما قبر زوجته بغاية الحنوّ والألم قائلا : « فإنهما غاية فى تمثيل الحنوّ على القبر المأهول برفات الحبيب ، وسقى الله كل بقعة من هذا القبيل »[1].

وهو يدعو على الأحكام العرفية عند حديثه عن قصيدة شوقى السينية التى وصلت إلى مصر من منفاه أيام كانت الأحكام العرفية قائمة ، فيقول : « والقارئ يتلقى هذه الأبيات بشيء من الطمأنينة . أما الذين قرأوها يوم قالها شوقى فلهم فيها رأى ، ومن كان فى رَيْبٍ من هذا فليذكر الأحكام العرفية ، لا قدَّر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة »[2]. ويقول فى معرض المقارنة بين قصيدة البارودى وأخرى للبوصيرى فى مدح الرسول : « أما البارودى ، جعل الله له لسان صدق فى الآخرين ، فقد وصف الحرب وصفا حيا صارخًا يبعث ميت العزم ، ويثير مدفون الصِّيَال »[3].

ويقول عند قرب فراغه من الكلام عن نونية شوقى التى يعارض بها نونية ابن زيدون : « ثم ماذا ؟ بقى ختام القصيدة ، وهى أبيات ما قرأتها إلا بكيتُ على أمّى رحمها الله . وانظر كيف هفا الشاعر إلى أمه فى حلوان : ... » . ثم يعقب على الأبيات المشار إليها قائلاً : « طيَّبَ الله ثراك أيها الشاعر ، ورحم والديَّ ووالديك ، فالدعاء فى أعقاب

(١) الموازنة بين الشعراء / ٧٤ .
(٢) المرجع السابق / ١٤٤ .
(٣) السابق / ٢٣٤ ، وأحمد شوقى / ٢٠٧ .

شعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات »[1]. والجملة الأخيرة كما ترى لفتة مذهلة من لفتات زكى مبارك .

وفى حكايته لقصة المقدمة التى أراد منه أمير الشعراء أن يكتبها لديوانه واعتذاره عن ذلك يقول : « إنى لا أستطيع كتابة المقدمة التى ينتظرها أمير الشعراء لأنى أخشى أن أقول فيها كلامًا يصدّنى عن نقده إن رأيت فى أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد . وهو ، بارك الله فى عمره، لا يكف عن مساورة الشعر والخيال فى صباح أو مساء »[2]. ورغم أن أمير الشعراء ، ردًا على هذا الاعتذار ، لم يَدْعُه مع من دعاهم إلى بيته للاحتفال بطاغور الشاعر الهندى ، فإن زكى مبارك، وهو يتحدث عن هذا الأمر بعد وفاة شوقى ، قد ختم الكلام بهذا الدعاء الجميل : « فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام، وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع »[3]. وهو بالمناسبة كلام من يؤمن بعبقرية شوقى[4] لا من يمدحه لقاء دراهم يأخذها منه كما ذكر د. محمد رجب البيومى مما ناقشناه قبلاً فى هذا البحث ، إذ لو كان قد مدحه فى حياته لقاء مالٍ أخذه منه لكان انقلب عليه بعد أن لم يَدْعُه مع المدعوين للاحتفاء بالشاعر الهندى ولاستجاب لمن حرّضوه على أمير

(١) الموازنة بين الشعراء / ٣٩٠ ـ ٣٩١ ، وأحمد شوقى / ٢٣٤ .
(٢) أحمد شوقى / ٣٤ .
(٣) المرجع السابق / ٣٦ .
(٤) لستُ من المبهورين بشعر شوقى مع ذلك ، وربّما كان شعر حافظ إبراهيم أحسن فى عينيَّ من شعره .



الشعراء قائلين له : « إن مال شوقى لا يُنال بغير الهجاء »[1] ولما دعا له بعد موته هذا الدعاء الجميل الذى ينبئ عن حب ووفاء خالصين .

ويقول ساخراً من دعوى الغزالى أن عيسى عليه السلام لم يكن يملك إلا ثوبا واحداً ظلّ يلبسه عشرين سنة لا يغيّره ولا يغسله : « من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة إلا أن تكون هذه معجزة . وعفا الله عمن لا يفهم هذه المعجزات ! »[2].

وفى ختام الفصل الذى جعله لابن شُهَيْد فى كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع » نسمعه يدعو له بهذا الدعاء بعد أن مهد له بهذه اللفتة النفسية العجيبة ، وكم لزكى مبارك من لفتات عجيبة : « فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فإن جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا ننقد وننقض فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود . فعلى ذكراهم تحية وسلام ! »[3].

ويختم الصفحات التى خصصها لابن عربى فى كتاب « التصوف الإسلامى » بهذا الدعاء الذى ينبئ عن تقديره لذلك الصوفى الأندلسى رغم مخالفته له فى بعض الأشياء وعدِّه ديوان شعره كله لغوا وفضولاً :

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) الأخلاق عند الغزالى / ٩١ .
(٣) النثر الفنى فى القرن الرابع / ٢ / ٣٨٧ .

« وسلام على ابن عربى بين أعلام الفكر وأقطاب البيان »[١].

وفى تقديمه لكتاب « العشاق الثلاثة » يقول : « وهذه الصفحات ليست محصول أيام أو أسابيع ، وإنما هى محصول أعوام طوال ، فقد كنت أحفظ جميع ما بقى من آثار هؤلاء الشعراء ، وكان لى معهم عهد يسبق العهد الذى ألّفت فيه كتاب « مدامع العشاق » عليه السلام! »[٢]. و « مدامع العشاق » هو الكتاب الذى أثار عليه ثائرة بعض الكتاب واتُّهِم بسببه بالدعوة إلى إفساد الشباب . وفى ضوء هذا يمكننا أن ندرك مغزى السخرية فى هذا الدعاء الغريب لذلك الكتاب . وعلى أية حال فمن الغريب أن يحيِّيَ كاتب كتابًا له ، بله كتابًا متهما بالانحلال ، بهذه التحية التى لا يُحَيَّا بها عادةً غير الرسل والأنبياء . ولكنه زكى مبارك !

وفى « ليلى المريضة فى العراق » يدعو لصديق له مشيراً إلى ماضيه العفيف قبل أن يودّع دنيا التُّقى والزهد ، وأغلب الظن أنه هو نفسه ذلك الصديق ، فيقول : « ولماذا أفضح نفسى ... بأحاديث مونمارتر ومونپارناس ؟ لماذا لا أكتفى بالشواهد التى أعرفها فى مصر ؟ ألم يكن صديقنا فلان من أعفّ الناس فى صباه ؟ ألم يكن يحوقل ويستغفر ويسترجع حين يطرق أذنيه بيت من النسيب ؟ رحمة الله على أيامه الطيبات ، أيام كنا نتقرب إلى الله بتقبيل يمناه ! فمن يصدقنى

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ٢٠٨ .

(٢) العشاق الثلاثة / ٩ .



اليوم إذا قلت إنه كان فتى عفيفا ؟ وكيف يصدقنى الناس إذا ادّعيت ذلك وهو اليوم ألطف ماجن وأظرف عربيد ؟ »[١].

وفى نفس الكتاب أيضًا نراه يشير إلى أيام تدينه وتقواه هذه الإشارة الساخرة : « تركتُ أول منزل سكنتُه فى بغداد ، ويا حسرة القلب على فراق ذلك المنزل الجميل ! فقد كان صورة صحيحة للمنزل الذى كنت أسكن فيه حين كنتُ طالبًا بالأزهر الشريف . كان صورة لربْع يعقوب بالغورية ، على أيامها السلام ! وكانت جاراتى فى ذلك الربع من الغيد الحسان ، وكان فيهن إسرائيلية تأتمننى على كل شيء وتقول : الشيخ زكى مسلم ، ولكنه[٢] ابن حلال . وكنت حقا ابن حلال . كنت مستقيما أؤدى الفرائض والنوافل وأقرأ الأوراد ، وما تغيّر حالى إلا منذ استطعت أن أقول : بونچور مدموازيل ! بونسوار مدام ! »[٣].

وعند حديثه عن المنارة الحدباء ( بالعراق ) التى عجز د. عبد الوهاب عزام الأستاذ بالجامعة المصرية آنذاك عن صعودها ، وكلما غشيَ مجلسًا من المجالس هناك سمعهم يتحدثون بما أصاب الدكتور عزام من دوخة منعته من إتمام هذا الصعود ، نراه يعلق قائلاً : « قلت : يا فضيحة الجامعة المصرية ! ثم صممت على صعود هذه المنارة ولو كان فى ذلك حتفى لأنقذ سمعة الجامعة المصرية ، على حجراتها وغرفاتها

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٣٢ .

(٢) الحسن كله والظرف كله وموقف اليهود منّا كلّه فى « ولكنه » هذه !

(٣) المرجع السابق / ٦٧ .

ومدرّجاتها أزكى التحيات ! »[١].

كما يدعو لساقية من السواقى كانت لأحد أصدقاء والده بقريتهم . ولكن لم الدعاء ؟ ذلك ما سنعرفه الآن : « كان لأبى صديق اسمه حسين قابل ، وكنت أحب ذلك الرجل حبا شديداً . وكان معروفًا أنى أحبه لأنه صديق أبى ، فهل أستطيع أن أقول اليوم إنى كنت أحب ذلك الرجل لأنه كان يمتلك ساقية فى ضاحية البلد ، ولأن حوض تلك الساقية كان ملعبا لأقدام الملاح ؟ رباه ، متى تعود أيامى ؟ وهل تصدقون أنى ما سافرت إلى البلد إلا مررت بأطلال تلك الساقية وسلّمت تسليم المحبين ؟ رحمة الله على تلك الساقية ، فلم تبق منها غير أطلال ! »[٢].

ويدعو لماضى المسلمين أيام كان الواحد منهم ينتقل من بلد مسلم إلى آخر دون حاجة إلى جواز سفر أو تأشيرة دخول : « كان الرجل العربى ينتقل من قطر إلى قطر وليس بيده جواز سفر غير تحية الإسلام ، على عهوده الزواهر أطيب التحيات »[٣].

ويدعو لمحمود تيمور باللُّطف والهداية حتى يرجع عن ولعه بالكتابة بالعامية انخداعًا بوسوسات بعض المستشرقين : « والخطر المخُوف من مذهب محمود تيمور يرجع إلى أنه رجل محترم ، فهو من أدبائنا الكبار

(١) السابق / ١٩٠ـ١٩١ .
(٢) السابق / ١٩٤ .
(٣) ملامح المجتمع العراقى / ١١٥ .



بلا جدال . وإقباله على التعبير بالعامية ستكون له عواقب سود ، لَطُفَ الله به وهداه ! فى مدى أربعة عشر عاما لم يجرؤ واحد من الأئمة على كتابة العامية بالحروف النطقية كما صنع محمود تيمور فى المجموعة التى نشرتها مجلة « الحوادث » ، وهى مجموعة تشهد بأنه انقاد لفتن المستشرقين أبشع انقياد ، وسيهوى بها فى قاع جهنم ألف خريف »[١]. والكلام كله تهكم بتيمور كما نلاحظ ، وقد عاد رحمه الله عن هذه التقليعة والتزم بالفصحى وتشدد فيها فى كل ما كتب . ولا بدَّ أنه كان لكلام زكى مبارك فى هذا الموضوع دخل كبير فى رجوعه إلى العربية الفصيحة .

ويقول عن بعض ذكرياته فى باريس : « اذهبوا إن شئتم إلى مدينة مثل باريس ، وانظروا كيف تُنْشَر على الجماهير بعض الفقرات من خُطَب الوزراء . رحمة الله على تلك الليالى حين كنت أنظر أقوال هريو ودلادييه منشورة بأحرف من نور فى أكثر الميادين وهى فى بساطةٍ تذكّر بتعابير الأطفال »[٢].

ومن « مجنون سعاد » نقتطف هذين الدعاءين : « أنت امرأة ؟ أنت امرأة يا سعاد ؟ أنت كتلة من الصخر الأسود الأصم الذى لا يبتسم لأنداء الصباح . باسم الحب المزوّر المكذوب يصل إلى قلبك من يشاء ،

(١) زكى مبارك ناقدا / ١٤٢ .
(٢) اللغة والدين والتقاليد / ٥٠ .

وباسم الحب الصادق الصحيح أشرب من يديك كأس الموت . غضبة الله عليك وعلى جميع بنات حواء ! قلبى ، لَطُفَ الله بك وهداك ! »[1]، «لن أنساكِ أبداً يا سعاد ، ولن أنسى أنك كنت مصدر الوحى لقلمى عددا من السنين . أيتها اليتيمة فى أسيوط ، تذكرى اليتيم فى أشمون. يا يتيمة الأب ، ترفّقى بيتيم الأبوين . وقد رَضِيَتْ أمك بأن تكون أمى، فكيف رَفَضْتِ أن تكونى أختى ؟ تحيتى إلى أمك الغالية ، وسلام على الحب الذى أبدعناه فى سنة ١٩٣١ ثم دفنّاه فى سنة ١٩٤٢ »[2].

وفى آخر مقال من مقالاته العنيفة التى يهاجم فيها طه حسين نسمعه يقول : «عصمنا الله من الزيغ ، وكتب لنا السداد والتوفيق»[3]، وهو دعاء له مغزاه ، إذ يريد زكى مبارك أن يقول : « إن طه حسين زائغ غير مسدّد ولا موفّق ، وأنا أدعو الله ألا يجعلنى مثله ». كان ذلك فى سنة ١٩٣٥، السنة التى كتب فيها ذلك المقال ، بيد أنه فى سنة ١٩٤٠، بعد أن خفّتْ حدة العداوة بين الرجلين وأصبح طه حسين موظفا فى وزارة المعارف حيث يعمل زكى مبارك أيضًا ، نسمع نبرة دعاء من لون آخر رغم أن الخلاف الفكرى كان لا يزال موجوداً بينهما . يقول زكى مبارك موجها الحديث إلى الدكتور طه فى آخر المقال : « وستريك الأيام بعد

(١) مجنون سعاد / ٧٤ - ٧٥ .
(٢) المرجع السابق / ١٥٧ .
(٣) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٦٩ .



قليل أن الميزان الذى كنتَ احتكمتَ إليه فى تقدير العداوات والصداقات لم يكن أدق الموازين . والله المسؤول أن يديم عليك عافية القلب وشباب الروح »[1].

وعن البطيخ يقول : « فى تلك الأيام ( أى أيام طفولته بسنتريس ) كنت أنزل الساقية فى الظهرية وأترك القواديس تغمرنى بالماء البارد ، وأحيانًا كنت أمضى إلى بحر سنتريس فأعبره عشرين مرة فى الظهرية ، فكان أطيب ما ندفع به الحرّ هو البطيخ ، على أيامه السلام ! »[2].

وليس البطيخ وحده من بين ألوان الطعام هو الذى دعا له زكى مبارك، فقد دعا للكنافة أيضًا : « ولكن قمر الدين مع طلعته البهية تقلصت دولته وحلّت محله الكنافة ، على وجهها أزكى التحيات ! فمن شاء منكم ( يقصد العراقيين ) أن يزور مصر فليكن ذلك فى رمضان ليمتّع عينيه بمنظر الكنافة ، فلها وجه خمرى جميل »[3].

ويلاحظ قارئ زكى مبارك ترديده عبارة « يا ويل ... » أو « الويل لـ ... » أو « الويل كل الويل لـ ... » فى مواقف الرثاء أو التهديد أو الغيظ : « والدين أداة من أدوات الفتح والاستيلاء فى أيدى الشعوب القوية ، وغلّ فى أعناق الأمم الضعيفة . والويل كل الويل

(١) المرجع السابق / ٢١٦ .
(٢) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٤٥ .
(٣) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ٨١ .

للمغلوب!»[1]، « وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا يملون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة . لهم الويل ! »[2]، « إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذى يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذ ذاك تُمْكِن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ فى ميدان العلم . أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فبابٌ من الضلال . ويا ويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات ! »[3]، « وكذلك صحّ عندنا بعد التجارب الأليمة أن السلامة لا تكون إلا لمن رحمه الله فكتب أن يعيش بلا أقرباء ولا أصدقاء ولا رفقاء ، والويل كل الويل لمن وثق بالأصدقاء وأمن غدر الزمان ! »[4]، «تلك أصوات المدافع ، وكأنها تقصدنى بالذات ... طاخ ! طاخ ! طاخ ! اصنعوا ما شئتم أيها العادون من بنى الألمان ، فأنا أشتهى أن أموت والقلم فى يدى ، ولن أنزل أبداً إلى السرداب ولو لَقِيتُ الحتف بمدافعكم الباغيات . طاخ ! طاخ ! طاخ ! لكم الويل ! ماذا تريدون منى وقد قضيت شبابى فى خدمة الآداب والفنون ؟ »[5]، « الواقع أن الزيات يعيش فى دنيا العصر الحديث ،

---

(١) الأخلاق عند الغزالى / ٢٤ .

(٢) مدامع العشاق / ١٤ .

(٣) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى / ٢ / ٧٠ ـ ٧١ .

(٤) التصوف الإسلامى / ٢ / ٣٣١ .

(٥) ملامح المجتمع العراقى / ١٧٦ .



فتجاريبه ليست تجاريب من يعبر الطريق بلا وعى ولا إحساس، وإنما هى تجاريب من له فى كل شارع دار وجيران ، ويا ويل من كان له فى هذه الدنيا دار وجيران ولو اعتزل فى حدود الصحراء ! »[1]، « إنى أرائى من أحب ، ولكنى لا أرائى من أبغض . فلأعدائى الويل إن هم توهموا أنى سأجزيهم رياء برياء ! كتب الله لى فى تأريق جفونهم الهواجد أجر المجاهدين »[2]، « أمثلى يُجْزَى بمثل الذى أتلقاه من بعض الناس من يوم إلى يوم ، وما كنت فى كل أدوار حياتى إلا نموذجًا من الصدق والأمانة والإخلاص ؟ لبعض الناس الويل ! وما أحب أن أزيد »[3]، «كانت بيوتنا منتديات روحية يعرف بها أطفالنا من نألف ومن نحبّ ، فأصبحت مقفرة موحشة ، وأصبح الصديق لا يلقى الصديق إلا سأل : «أين تسهر ؟ وكيف نراك ؟ » . والويل كل الويل لمن يحدِّث أبناء الزمان بأنه لا يسهر إلا فى البيت وأنه يكره التبذل فى المشارب والقهوات ! »[4]، « أحب أن أعرف ما أنتم صانعون ، فإن الحياة حركة، والويل كل الويل للمنافقين ! »[5].

ويلفت النظر فى كتابات زكى مبارك كثرة العبارات المقتبسة من آيات القرآن الكريم أو المستوحاة منها . ولا غرو فى ذلك ، فقد كان

---

(١) زكى مبارك ناقدًا / ٢٠ .

(٢) الحديث ذو شجون / ١٣٣ .

(٣) المرجع السابق / ١٤١ .

(٤) اللغة والدين والتقاليد / ١١٥ ـ ١١٦ .

(٥) المرجع السابق / ١٣١ .

الرجل أزهريا صميما يحفظ القرآن ، وكان متصلاً بالدراسات الإسلامية التى تدور حول كتابنا الكريم أوثق اتصال ، وكان دائم الرجوع إليه والحديث عنه ومناقشة ما فيه من قضايا وأساليب . والشواهد على ذلك كثيرة جدا جدا ، ونكتفى منها بما يلى : « رأيت حديثًا مسهبًا لبعض العلماء المتقدمين فيما ابتكره ابن أبى ربيعة من نادر المعانى وابتدعه من جديد الأغراض ... حديث طويل ، بيد أنه كسراب بِقِيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا »[١] ، « لن يخلو العالَم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون »[٢] ، « فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين »[٣] ، « وهم لا يقرأون كل شعر كالصنف الأول ليقفوا على أنواع المدركات من حق واضح أو باطل فاضح ، ولكنهم يعكفون على طائفة من الشعر الذى انفصمت عراه وتفككت أوصاله ليتمّ التناسب بين ما تعمل أيديهم وما تقرأ ألسنتهم . وإن فريقًا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »[٤] ، « بيَدِكم لا بيد رؤسائكم أن تصبح المدارس جنات عالية

---

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٦٣ . وآخر العبارة منقول من الآية ٣٩ من سورة «النور» نصًا .

(٢) الأخلاق عند الغزالى / ١١٠ . والعبارة الأخيرة مسبوكة على مثال قوله تعالى : «ولو كره الكافرون» (التوبة/٣٢) .

(٣) المرجع السابق / ٢١٣ . وتلك العبارة مأخوذة من قوله تعالى : « ذلك هو الخسران المبين » (الحج/١١) بعد تنكير «الخسران» .

(٤) أحمد شوقى / ٢٤٣ . والجملة الأخيرة هى نص ختام الآية ١٤٦ من سورة «البقرة» .



نزع الله ما فى صَدور أهلها من الحقد وصيّرهم إخوانا أصفياء »[١] ، «فإن كنتم فى ريب من صحة هذا الحكم فراجعوا معجم « أساس البلاغة» ومعجم « لسان العرب » ... »[٢] ، « وأظرف من هذه القطعة أبياته (يقصد أبيات البوصيرى ) التى بعث بها إلى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ، فكتب على لسانها إليه: ... وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات وردّ إليه الحمارة ، ولم يكن فيها من الزاهدين »[٣] ، « يا طاهر[٤] ، اذكرنى عند ربك ، وقل إن فى سكان الأرض ناسًا يحفظون الجميل »[٥] ، « سعاد ، إليك بعد الله أشكو بَثّى وحزنى »[٦] ، « وهل عرف المصريون قبر ابن هشام الأنصاري، الذى رفع القاهرة مكانًا عليًا وجعل هامتها فى النحو مساوية لهامة بغداد ؟ »[٧] .

---

(١) الأسمار والأحاديث / ٤٩٢ . وقد أخذ زكى مبارك فى هذه العبارة الفكرة وبعض الألفاظ ومرادفات بعض الألفاظ الأخرى من قوله تعالى عن أهل الجنة : « ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ إخوانا على سُرُرٍ متقابلين » (الحجر/٤٤).

(٢) العشاق الثلاثة / ١٤٣ . وصدر العبارة هو نص بداية الآية ٢٣ من سورة «البقرة».

(٣) المدائح النبوية / ١٤٦ . والجملة الأخيرة هى ترديد لقوله تعالى : « وكانوا فيه من الزاهدين » (يوسف / ٢٠ ) ، لكنْ منفيا .

(٤) ابن صديق له تُوُفّى .

(٥) ليلى المريضة فى العراق / ٦٤ . وجملة « اذكرنى عند ربك » هى هى ماجاء فى الآية ٤٢ من سورة « يوسف » ، إلاّ أن معنى « الرب » هنا هو الله ، وفى الآية الكريمة هو الملك .

(٦) مجنون سعاد / ٩٩ . وهو مأخوذ من قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام : « قال: إنما أشكو بَثّى وحزنى إلى الله » (يوسف/٨٦) .

(٧) عبقرية الشريف الرضى / ١٨ . وانظر قوله تعالى عن إدريس عليه السلام : «ورفعناه مكانا عليا» (مريم/٥٧) .

وقد لاحظت أنه قد يستشهد بآية قرآنية أو يقتبسها أو يستوحيها في مواقف الغزل والهزل . مثال ذلك قوله للجميلات من النساء : « يا أهل الملاحة ، إن الله ما خلقكم كالأزهار في القفار ، تُزْهِر ثم تذبل ولا يتمتع أحد بشمها ولثمها ، وإنما خلقكم رَوْحًا لكل حيّ ، ونعيما لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظا ، ولا أقل من النظر ، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم وتموت بصدكم . وما الله بغافل عما تعملون »(١) ، وقوله لشاب مصري قابله في باريس وبصحبته فتاة أوربية: « تشرَّفنا يا سي محمود ! ولكن حدِّثني : ما تلك الفتاة بيمينك؟ »(٢) ، وقوله عن طريقته في مغازلة الفتيات الفرنسيات : «وفي أثناء تلك الأحاديث الوهمية تجول عيناي في أعطاف الفريسة الحسناء ، فإن بدا لها أن تعترض على ما تقول عيناي أنكرتُ ما تقول عيناي . وهل كنت مسؤولاً عما تقوله عيناي ؟ وما هي لغة العيون ؟ وهل للعيون لغة ؟ إن هذا إلا اختلاق »(٣) ، وكذلك قوله في تقديم قصيدته « إلى بعض الناس » : « قد سرّني يا صديقي أن تسكت فلا تسأل عني ، وقد فكرت فلم أجد أني أسأت إليك ، فلم يبق إلا أن يكون فراغ جيبي بعد أن سرق اللصوص بيتي هو السبب في السكوت . يقول الله تعالى في كتابه العزيز : { وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم } .

(١) مدامع العشاق / ٧ ـ ٨ . والجملة الأخيرة هي نص نهاية عدد غير قليل من الآيات القرآنية .

(٢) الأسمار والأحاديث / ٢١ . وهو مأخوذ من قوله تعالى لموسى عليه السلام عن عصاه : « وما تلك بيمينك يا موسى ؟ » (طه/١٧) .

(٣) ليلى المريضة في العراق / ٥٥ . والجملة الأخيرة هي نص نهاية الآية ٧ من سورة



وأنا كرهت أن أرجع إلى بيتي فأجده بعد السرقة أفرغ من فؤاد أم موسى، ولكني استروحت حين رأيت أن فجيعتي في وفائك قد أوحت قصيدة جديدة ، فاسمع حتى تشبع : ... »(١) .

وقد ذكر د. زكي مبارك أنه متأثر في أسلوبه بأسلوب القرآن الكريم، فمن ذلك قوله : « لفائدة قرائي أقول : أنا متأثر بأساليب كثيرة أولها أسلوب القرآن المجيد »(٢) ، ومنه أيضًا قوله موضحًا بعض النقاط الأسلوبية في قصيدته « عدنا إلى الحب ، عدنا » : « ثم أقول إنني أكرر بعض الألفاظ عامداً متعمداً لأنني أريدها بالذات . ولهذا نظير في سورة «الناس» من القرآن المجيد »(٣) .

وعند زكي مبارك كثير من العبارات والصور القديمة المصبوغة مع ذلك في بعض الأحيان بلون روحه ، مثل « فعضّوا عليها بالنواجذ إن كنتم تعقلون » و « يلقى عصا التسيار » و « كانت شكواه مضرب الأمثال » و « لا يخبو زَنْده ، ولا ينكسر جناحه ، ولا يقع طائره » و«يمشون في دنيا الحب مشي المقيد في الوحل» و « يخبط خبط عشواء» و « واحرّ قلباه ! واحرّ قلباه ! » و « اخترمتني المنيّة » و«بيني وبين الدكتور طه ما صنع الحداد » و « من سقط المتاع » و«اندفع كالصخر حطّه السيل من شاهق » و « لا يُشَقّ لهم غبار » و « يبيّت

(١) أطياف الخيال / ١٠١ . وفي الآية إشارة إلى قوله تعالى عن الحزن العنيف الذي أحسّته أم موسى بعد أن ألقت به في التابوت وقذفت بالتابوت في اليمّ : « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » (القصص/١٠) .

(٢) سيرة حياة الدكتور زكي مبارك / ١٢٢ .

(٣) أطياف الخيال / ٥٧ .

لهم من الحقد والضغينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنْدية الجبين » و « تجالس الفارغين من أحلاس القهوات » و « هذه شِنْشِنَةٌ نعرفها من أخزم » و « يعض بنان الندم » و « يخلع العِذار » و « قضى الحظ العاثر أن أكون رجلا ساذجًا » و « ربّات الحِجال » و« لا يفلّ الحديد إلا الحديد » و « جارى بَيْتَ بَيْتَ » و « ستؤتى ثمارها بعد حين » و « خرج بالصمت عن لا ونَعَم » ... إلخ .

وقد فسَّر كاتبنا هذه الظاهرة فى شعره بأنها راجعة إلى محفوظه الهائل من الشعر القديم ، وهو ما يصدق على كتاباته النثرية أيضًا . قال: « فى الأشعار القديمة ( يقصد أشعاره الأولى ) صَدًى للأخيلة البدوية كـ « منعطف الحَزْن » ... و « اللِّثات الحُمّ » ... وألفاظ أخرى يجدها القارئ منثورة هنا وهناك . وعذر صاحبنا ( يقصد نفسه ) أنه حفظ فى حداثته ثلاثين ألف بيت من الشعر القديم ، ولهذا أثره فى تلوين الديباجة والجمال »[1].

ومع ذلك فإننا نقابل بين الحين والحين لفظة أو عبارة دارجة أو شبه دارجة مثل قوله : « كنت ألاحظ أن للرجل نواحى هو فيها أضبط من الساعة كما نعبّر فى لغة الحديث »[2]، « فلْينظر الطلبة إلى مصالحهم ، ولْيعرفوا شغلهم »[3]، « وفهمت أيضًا ... أن اللجنة قد لا تنعقد مرة

(١) ألحان الخلود / ٤٣ .
(٢) أحمد شوقى / ٢٥١ .
(٣) الأسمار والأحاديث / ١١١ .



ثالثة إلا فى المشمش »[1]، « من فمك إلى باب السماء »[2]، « لا أهلاً ولا سهلا ، ولا صبح ولا مساء . خلّيتها خَلاً يا دكتور ! »[3]، «إليك المكتبة ، فإن شئت كلفت خاطرك كما يعبّر بعض الناس فخطوْت خطوات إلى الصوان الخاص بدواوين الشعراء »[4]، «فالمرجو من صاحبنا أن يأخذ باله كلما عرض لأمثال هذه الشؤون»[5]، « درِّية ، متى تَمْرَضين؟ اخْص عليك ! »[6]، « ثم أعرَج على ضارب الرمل لأشوف بختى »[7]، « وقد طوّلت بالى ، وكنت أتوقع أن يعود النذل بعد ساعة أو ساعتين وفى يده مسدس ، ولكنه لم يعد أبدا »[8]، « وأُديرَ على الحاضرين صوت أم كلثوم :

على بلد المحبوب ودِّينى    زاد وجدى ، والبعد كاوينى

فكانت بلد المحبوب عندى هى المائدة التى تجلس عليها صاحبة العينين ، ولكن من « يودّينى » هناك ؟ »[9]، « أما الأستاذ المصرى ، ولا سيما أستاذ اللغة العربية ، فهو شخص « ملخوم » يرى الحركة تنافى الوقار ،

(١) المرجع السابق / ٢٠٠ .
(٢) السابق / ٣٠٧ .
(٣) السابق / ٣١٩ .
(٤) السابق / ٣٩٤ .
(٥) السابق / ٤٢ .
(٦) ليلى المريضة فى العراق / ٧١ .
(٧) المرجع السابق / ٧٢ .
(٨) السابق / ٨٣ .
(٩) السابق / ١٠٣ .

ويرى الابتسام من أخلاق السفهاء »[١]، « إن الكاتب يستطيع ، إن أسعفته مرونة التعبير ، أن يجعل من الحبة قبة »[٢]، « لو كان من حق مصر أن تنزعج لكل حادث يقع لأحد أبنائها فى الخارج لكان من واجبها أن تضع أبناءها فى قُمْقُم وأن تعتزل جميع الناس وترضى بحياة الخمول »[٣]، « وهو رجل لم تلده ولادة »[٤]، « عرفت من جديد أن المازنى بروحين أو أرواح »[٥]، « وسَحْنَته الساهية تؤيد المثل الذى يقول: تحت السواهى دواهى» [٦]، « محمود تيمور ابن ذوات »[٧]، « الأمواه بين العباسية ومصر الجديدة بلغت ما يزيد عن نصف متر ، فكانت السيارة « تطبّش » فى حين ، وتعوم فى أحايين »[٨]، « وكان صوته لونا من الصرصعة »[٩]، « عاد طه حسين إلى الجامعة فى زفّة لم يُسْمَع بمثلها »[١٠]. كما استعمل مرات متعددة كلمات « الفَجْرِيّة » ،

(١) السابق / ٣٧٥ .
(٢) ملامح المجتمع العراقى / ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٣) المرجع السابق / ٣٠٠ .
(٤) زكى مبارك ناقدا / ٩٤ .
(٥) المرجع السابق / ١٣٠ .
(٦) السابق / ١٣٩ .
(٧) نفس المرجع والصفحة .
(٨) ألحان الخلود / ٢١٩ .
(٩) الحديث ذو شجون / ١٠٤ .
(١٠) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٥٢ .



و«الظُّهْرِيّة » ، و «العَصْرِيّة» ( التى كان يرى أنها أفضل مقابل لكلمة « après midi » الفرنسية )[١]، و « العشوية » ، وهى كلمات لا تكاد تستعمل إلا فى لغة الحديث اليومى . والملاحظ أن هذه الألفاظ والتعابير الدراجة إنما تكثر فى المقالات ، وبخاصة الخفيف منها ، أما الدراسات الجادة فإنها تقلّ فيها أو تكاد تنعدم .

وقد انتقد بعض الكتاب زكى مبارك لاستعماله مثل هذه الكلمات: فأنكر عليه حسن القاياتى ، عضو مجمع اللغة العربية ، استعماله لكلمة « يستاهل » بمعنى « يستحق » ، فردّ عليه الدكتور بمقال عنوانه «والله تستاهل يا قلمى » . كما أخذ عليه أيضًا استخدام كلمة «شاف»، فردّ قائلاً إن كلمة « تشوّف » كثيرة الورود فى الشعر القديم، ثم أكد « أن العرب فى جميع الأقطار يقولون : « شافه » بمعنى « رآه » ، وقد شفتهم بعينى » ، واتهم أمثال هذه الانتقادات بـ « الببغاوية »[٢]. ونراه فى مقدمة قصيدته « عُدْنا إلى الحب ، عُدْنا » ينص على أنه استخدم هذا الفعل فى تلك القصيدة ، وكذلك الفعل « باس » ، الذى قال إن العربية قد أخذته عن الفارسية ثم أخذته الفرنسية عن لغتنا[٣].

وهو يدافع عن صنيع أحمد تيمور باشا حين ألف رسالة فى اللهجة العامية ، التى كان يرى أنها خليقة برد الاعتبار ، إذ هى عنده لغة

(١) انظر « ليلى المريضة فى العراق » / ٤٠٥ / هـ ١ .
(٢) الحديث ذو شجون / ٤٠٧ .
(٣) أطياف الخيال / ٥٧ .

فصيحة لا ينقصها غير الإعراب . ولكنه فى ذات الوقت قد انتقد ابنه محمود تيمور انتقاداً شديداً لإقباله على التعبير بالعامية ، مؤكداً أن عواقب عمله هذا ستكون عواقب سوداء ، وأنه ينقاد فى ذلك لفتن المستشرقين أبشع انقياد[1]. وقد يرى بعضٌ أن ذلك تناقض فى مواقف زكى مبارك ، إذ يستعمل الألفاظ العامية فى الوقت الذى ينكر ذلك على محمود تيمور . والحق أنْ ليس ثمة تناقض ، فقد كان زكى مبارك لا يستعمل الألفاظ العامية إلا لِمامًا وحيث يكون لها فى الغالب توجيه فصيح . أما محمود تيمور فقد جرى فى فترة من حياته الأدبية على كتابة قصصه كلها بالعامية كما فى مجموعة « أبو على عامل أرتست »، وهذا هو ما انتقده زكى مبارك . ولكن لابد من القول إنه عاد إلى الفصحى بل تشدد فيها مع شيء من التحذلق حتى لقد أعاد كتابة المجموعة السابقة نفسها بالفصحى جاعلا عنوانها « أبو على الفنّان » ليلائم وضعها الجديد .

وفى نفس الوقت الذى نجده يستخدم بعض الألفاظ العامية نراه يستخدم أيضًا بين الحين والحين لفظة قديمة مثل « أماليد » و« إقليد » و « تجاليد » و « عَرامة » و « بهاليل » و « غطاريف » و« رُعْبوبة » و « يَتَبَهْنَس » و « حنادس » و « سُوْر » و « وَقَذَ » و« ( الفقر ) الدَّيْقوع » و « عِثْيَر » .

(١) انظر « زكى مبارك ناقدا » / ١٤٢ ـ ١٤٣ .



كذلك نراه حريصًا على استعمال بعض الألفاظ فى صِيَغٍ لم تعد تستخدم الآن تقريبًا ، فقد تكرر مثلا استعماله للفعلِ « رَجَع » ومصدرِه متعديا ( بدل صيغة « أرجع » ، التى لا نكاد نعرف غيرها الآن ) . وهذا الاستعمال هو استعمال قرآنى صميم ، إذ وردت هذه الصيغة فيه مرات كثيرة ، بينما لم تُسْتَعْمَل صيغة « أَرْجَعَ » فيه قطّ . وهذه أمثلة على ذلك الاستعمال عنده : « ويمكن رَجْع كلامهم فى النسيب إلى أصلين اثنين : ... »[1]، « وهل يمكن الشك فى أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من رَجَع الصور الفنية فى نثر كُتَّاب الصنعة والزخرف إلى أصول عربية صميمة ؟ »[2]، « يمكن رَجْع أثر البردة فى اللغة العربية إلى خمس نواح : ... »[3]، « ابدأ إذن بإصلاح شيخ الجامع الأزهر ، وارْجِعْه إلى حياته الأولى »[4]، « لا تؤاخذنى يا توفيق فى القسوة عليك ، فأنا أحاول رَجْعَك إلى فردوس الأدب الرفيع »[5]، «تذكَّرْ أنك كنت السبب فى تأخر التعليم فى كلية الآداب ، وأنصح لك إن رجَعَك إليها الوزير الجديد أن تفهم أنه لا يجوز لأستاذ أن يوجه الطلبة إلا بعد أن يعرف موضوع الدرس »[6].

(١) مدامع العشاق / ١٧ .
(٢) النثر الفنى فى القرن الرابع / ١ / ٦ .
(٣) المدائح النبوية / ١٦١ .
(٤) الأسمار والأحاديث / ٢٧٨ .
(٥) الحديث ذو شجون / ٢٦٠ .
(٦) المعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ٣٣ .

ومن ذلك الاتجاه أيضًا جَمْعُه كلماتٍ مثل « غد » و « سبت » و« صيف» و « عَدَم » و « طَرَب » و « صباح » و « غرام » و« جمال»، وهى كلمات لا تُجْمَع عادة ، فيقول : « أغداء » و« سُبُوت» و« صُيوف» و « أعدام » و « أطراب » و « أصْبِحة » و« غرامات» و« جمالات»[١].

ومن هذا النوع كلمة « حياة » ، التى يكثر زكى مبارك من جمعها على« حيوات » كثرة لافتة للنظر[٢]. كما أنه قد جمع « حقد »[٣] على « حقود » ، و « نَسْر » على « أنْسُر » ، و « تلميح » على « تلاميح » ، و « كَبِد » على « كُبُود »، و« خادم» على « خَدَمة » ، و« خَصْم » على « أخصام » ، و « سناد» على « أسندة » ، و « مُنْكَر» على « مناكر » ، وذلك بدلاً من « أحقاد ، ونُسُور ، وتلميحات ، وأكباد ، وخَدَم أو خُدَّام ، وخصوم ، وسُنُد ، ومنكرات » ، وهى الصيغ الأكثر شيوعًا .

ومن الصيغ التى تكثر عنده صيغة « فُعْلة » ، وقد استطعت أن

---

(١) لا أذكر أبداً أن هذا الجمع الأخير قد قابلنى ، اللهم إلا فى اسم بعض النسوة المصريات، وقد اختفت تقريبًا هذه التسمية .

(٢) مثلا : التصوف الإسلامى / ١ / ٢٢٣ ، والعشاق الثلاثة / ١١ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، وعبقرية الشريف الرضى / ٨٩ ، وملامح المجتمع العراقى / ٢٧٤ ، والحديث ذو شجون / ٧٧ ، وزكى مبارك ناقدا / ٢٥ ، وألحان الخلود / ١٢٦ ، ومجنون سعاد / ١٢٤ ، وملامح دينية / ٤٥ ، ١٥٥ .

(٣) بالمناسبة يكثر ذكر « الحقد » فى كتابات زكى مبارك ، وقد يمدحه قاصداً به حينئذ الصراحة فى إظهار العداوة وما إلى ذلك .



أجمع من كتاباته الألفاظ التالية التى سُكَّتْ فى هذا القالب الصرفى : « طُعْمة ، نُهبة ، مضغة ، عمدة ، قدوة ، طُرْفة ، صحبة ، تحفة ، سمعة، قدرة ، شُبْهة ، دمية ، رؤية ، قُبْلة ، سُخْرة ، أسوة ، لقمة ، خُلْسة ، لمعة، جملة ، مُنْية ، عرضة ، شهرة ، هُدْبة » .

كذلك وجدته يكثر من صيغة الجمع « فواعل » بشكل جدّ ملحوظ ، وهذا ما أمكننى التنبه إليه من جموع الأسماء والصفات الجارية على تلك الصيغة : « بوارق ، عوادٍ ، خواطر ، بواسم ، فواطم ، فواجع ، نوازٍ ، هوادٍ ، لواعج ، عوافٍ ، طوائف ، هوامد ، مواضٍ ، قوارع ، قواصف ، سوانح ، مواضٍ ، فواقر ، سوابق ، شوائك ، عواقب، أوامر ، شواطئ ، جوامع ، روافد ، فوارق ، سوالف ، فوادح ، بواعث ، لواحق ، نوازع ، غوائل ، صوامع ، عوارف ، عواطف ، أواصر ، أوابد ، بوادر ، توافه ، سواهٍ ، دواهٍ ، نواطق ، شواهق ، مواحق، نوادر ، جوارح ، ظواهر، خواصّ ، شوائب ، عواتق ، عوائد ، ذواهب، رواكد ، جوامد ، صوادح ، رواسٍ ، خوالٍ ، حواسد ، حوداث ، عواصف ، نوابغ ، سوافر ، لوامع ، صوامت ، صوادق ، غوادر ، نوابغ، بواقٍ ، ثواقب ، روابط ، جوائز ، حوالٍ ، عواطل ، كوامل ، ثوابت ، صوارخ ، هواجس ، قواقع ، أواهل ، فواتك ، عواتق، نوازع ، لواذع ، شواغل ، سواكن ، غوافل ، كواذب ، جواذب ، هواجس ، عوابر ، بواطن ، خواطئ ، أواثم ، أوانس، بواسق، قواصم ، شوارد ، فواتن ، نواصع ، غوانٍ ، نوازع ، بوارق ، نواضر ، سواطع ، طوالع ، خوالد ، حواضر ، غوالٍ ، ثوابت ، جوارح ،

ضواحك ، خوالج ، جواذب ، روائع ، بواعث ، شوائب ، نواظر ، حوائل، هواجد ، دوامغ ، ضوائع ، كوامن ، صوائب ، سوائم ، زواهر ، صوالح ، خواضع ، شوائق » .

وهناك صيغة جمع أخرى تكثر عنده هى صيغة «أفاعيل» ، وإن لم تكن بكثرة صيغة « فواعل » . وهذا ما تنبهت إليه من الألفاظ المصبوبة فى هذا الوزن : « أفانين ، أقاصيص ، أراجيف ، أعاجيب ، أماليد ، أضاليل ، أحاديث ، ألاعيب ، أحايين ، أسابيع ، أغاليط ، أزاهير ، أباطيل ، أكاذيب ، أغاريد ، أحابيل ، أفاويق ، أباريق ، أحاسيس ، أقاليم ، أقاويل ، أمانيّ ، أحاسيس ، أعاصير ، أضابير ، أناشيد، أقاويل » .

وهو يميل فى بعض الأحيان إلى استخدام صيغة جمع المذكر السالم بدلاً من جمع التكسير رغم شيوع الأخير ، مثل « الطاغين ، والكاتبين ، والعاميّين ، والعالمين ، والجاهلين ، والعبقريين ، والقارئين، والناقدين » بدلاً من « الطغاة ، والكتّاب، والعوامّ ، والعلماء، والجهلاء ، والعباقرة، والقراء ، والنقاد » . ويمكن أن نلحق بذلك تكرار استخدامه لـ«الفراعين» بدلا من « الفراعنة » عدة مرات[1].

ومن الكلمات التى تتكرر أو تكثر فى كتابات زكى مبارك كلمة

(١) « الفراعين » و « الفراعنة » كلتاهما جمع تكسير بطبيعة الحال ، إلا أن الأولى تشبه جمع المذكر السالم ، فلذلك ذكرتها هنا



«قصيد» ( بدلاً من « قصيدة ») . وتوجد أمثلة على ذلك فى « أحمد شوقى » (ص ٦٠) ، و « ملامح المجتمع العراقى » (ص ١٤٣ مرتين)، و « كتاب الأم » ( ص ٣٠ ) ، و « عبقرية الشريف الرضى » (ص ١٩٤ عدة مرات ) ، و«ألحان الخلود » ( ص ١٩، ٢٦، ٤٥، ٦٥، ١٥٨، ١٧٦، ٢٧٤، ٣١٣ ) ، و « الحديث ذو شجون » ( ص ٢٣٢) ، و « سيرة حياة الدكتور زكى مبارك » ( ص ٢٢٦ ) ... إلخ .

وكذلك كلمة « فتون » ( حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٩٨ ، والموازنة بين الشعراء / ٣٣٩ ، ٣٤٨، ٣٧٣ ، وأحمد شوقى / ٢٢١ ، والنثر الفنى / ١/ ٣٢٩ ، و ٢/ ٧ ، والتصوف الإسلامى / ٢/ ٣٠٥ ، والمدائح النبوية / ١٥، والعشاق الثلاثة / ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥، ١١٤، ١٣٤ ، والأسمار والأحاديث / ٨٧ ، ٢٦٣ ، وليلى المريضة / ٣٥، ١٨٠، ١٨١، ٣٥٠ ، وملامح المجتمع العراقى / ٩٨ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩ ، والحديث ذو شجون / ٤٧٧ ، وألحان الخلود / ٤٣ مرتين ، وزكى مبارك ناقداً / ٩٩، ١٤٣، ١٤٨ ، ومجنون سعاد / ١٩، ٢٨ ، والمعارك الأدبية بين طه حسين وزكى مبارك / ١٨٣ ... إلخ ) .

و « أطايب » ( حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٢٩٦ ، وأحمد شوقي/ ١٥، وليلى المريضة / ٥٣ ، ٦٢ ، ٣٥٤ ، ٣٨٥ ، وعبقرية الشريف الرضى / ٨٧ ، والحديث ذو شجون / ٢٥، ٦٧ ، ٥٠٤ ، ٥٣٩، وزكي مبارك ناقداً / ١١٧ ، ١٢٣، ومجنون سعاد / ٧١ ،

وملامح دينية / ٤٧ مرتين ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ١٠٠ ).

و « وجدان » ، وكذلك النسبة إليه « وجدانى » بمعنى «عاطفي/ خيالي» أو « رومانسى » حسبما وضّح الكاتب بنفسه فى سياق حديثه عن أحمد زكى أبو شادى ، إذ يقول « أما دفاعه عن كلمة «كلاسيك» فكان مضحكًا ، وكان دليلا على أنه لا يعرف من الأدب الأوربى إلا القشور ، فقد زعم أن « الكلاسيك » هو التقليدى ، وأن الرومانتيك هو الإبداعى . ومن الطريف أنه لم يبتكر الخطأ فى كلمة «رومانتيك» ، وإنما قلّد فى ذلك الأستاذ الزيات ، الذى انفرد بالسبق إلى هذا الخطإ المبين . والترجمة الصحيحة لكلمة «رومانتيك» هى «وجداني» لأن الرومانتيك يعتمد على إثارة العاطفة والخيال ، فى حين أن الكلاسيك يعتمد على العقل »[1]. ويستطيع القارئ أن يجد هذه اللفظة فى المواضع التالية على سبيل المثال: حب ابن أبى ربيعة / ٢٨٧ ، ومدامع العشاق / ٢٦٤ ، والنثر الفنى / ١/ ٧، ٢/ ١٠٨ ، ٣٩٤ ، والمدائح النبوية / ٨٢ ، ٨٤ ، والعشاق الثلاثة/ ٢٧ ، ٣٠ ، ٤١، ٤٨ ، ١٢٢، ١٢٥، والأسمار والأحاديث / ٢٩ ، ٣٩٦ ، ٤٧٢، والحديث ذو شجون/ ٢٢٦ ، ٥٢١ ، وزكى مبارك ناقدا / ٥٣، ١٠٨ ، وليلى المريضة / ١٩ ، ٣٤، ٧٨، ١٦٩ مرتين ، ٤٣٩ ، وملامح المجتمع العراقى / ١٣٣، وألحان الخلود / ١٢٦، ١٩١، ٢٤١، ومجنون سعاد/ ٧٦ ، ٩٠ ، ١٥٥، ١٥٦ ، وقصائد لها تاريخ / ٨٨ ، والمعارك الأدبية بين طه حسين وزكى

(١) الأسمار والأحاديث / ٤١٩ .



مبارك / ٢١٤ ، ٢١٥ ، وسيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٠١ ، ٢٣٤ مرتين .

كذلك يكثر زكى مبارك من استعمال الكلمات المشتقة من مادة «ص و ل» ، كـ « صَالَ » و « تصاولَ » و « صِيال » و « مصاولة » و«صَوْلة» و « صوآل » . ولعل السبب فى ذلك أن حياته قامت على الصِّيال مع كتاب عصره وشعرائه .

ومن الكلمات التى تكررت عنده بعض التكرار كلمة « حنَّان » (بدل « حنون » ، وهى الصيغة الشائعة) .

كما تكرَّر عنده الربط بين الحب والصوفية ، فنسمعه مثلا يقول فى كتابه عن «التصوف الإسلامي» : «نرى جمهور المؤلفين فى الحب والمحبين لا يخلون من نزعة صوفية : فابن داود صاحب «الزهرة» وابن حزم صاحب «طوق الحمامة» وابن القيم صاحب «الروضة» والأنطاكى صاحب « تزيين الأسواق »، كل أولئك فيهم نفحات صوفية ، والجمع بين النزعة الحسية والروحية يظهر لهم من الأمور التى لا تحتاج إلى جدل ولا تأويل »[1]. وفى ختام حديثه عن قصيدة الفرزدق فى مدح على بن الحسين التى أنشدها فى حضرة هشام بن عبد الله ورَفَضَ أن يأخذ عليها أى عطاء يقول : « فإن لم يكن مثل هذا الحب تصوفًا وروحانية ، فما

(١) التصوف الإسلامى / ٢ / ٢٣٢ - ٢٣٣ .

منزلتــه بين نوازع الحب والوفــاء ؟ »[١]. كـمـا يعلّق على مـا ذكـره الفيروزابادى من أن أهل نهر سورين ( بالرَّيّ ) يتطيرون منه لأن السيف الذى قُـتل به يحـيي بن زيد بن على بن الحـسين غُـسِل فيـه ، قـائلا : «والتطيُّر من نهر غُسِل فيه سيف قُتل به رجل من أهل البيت يمثل أقصى معانى التصوف فى حب أسباط الرسول »[٢]. ويقول أيضًا فى مناسبة أخرى : « ومن أقـوى مظاهر التـصـوف فى حب أهل البيت ما كـان يقع من أنصارهم فى حضرة معاوية »[٣]. ويقـول عـن دعـبـل : « كـان ذلك الرجل شريراً ، وكان كَلِفًا بإيذاء الناس ، فكيف يتفق له التصوف فى حب أهل البـيـت ؟ »[٤]. ويقـول عن جـمـيل وقـضـائه الأيام الطوال فى السفر إلى بثينة دون أن يتناول شيـئًا من الطعام أو الشراب : « تلك صوفية فى الحب لا يتحدث عنها متحدث إلا فى تهيب واستحياء لأن الدنيـا فى شـواغلهـا القـاسـيـة لم تعـد تسـيغ هذا الصنف من غـذاء الأرواح»[٥]، كما يصفه بأنه « شاعر يتصوف فى الحب »[٦]. ويقول عن بيت لكُثَيِّر إنه « من صور التصوف فى الحب »[٧].

(١) المدائح النبوية / ٤٩ - ٥٠ .
(٢) المرجع السابق / ٥٣ .
(٣) السابق / ٦١ .
(٤) السابق / ١٠٥ - ١٠٦ .
(٥) العشاق الثلاثة / ٣٤ .
(٦) المرجع السابق / ١٠٩ ، ١١٠ .
(٧) السابق / ٨٦ .



ويكشف كـاتبنا السـرَّ وراء هذا الربط المتكرر عنده بين الحب والتصوف فيقول : « فى سنة ١٩٢٧ لقيت الأستاذ ماسينيون فى باريس وقرأت معه فقرات من كتاب « الزهرة » ، وعرفت ميله إلى درس العلاقة بين الحب العذرى وبين التصوف ، فتسرب إلى صدرى بصيص من ضوء الفكرة التى يقوم على أساسها هذا الكتاب ( يقصد كتاب «التصوف الإسلامي» ) . وفى خريف سنة ١٩٣٠ وشتاء سنة ١٩٣١ حضرت دروس الأستاذ ماسينيون بالكوليج دى فرانس فى العلاقة بين التصوف والحب الرقيق فازدادت الفكرة وضوحًا ، وصحّت عزيمتى على درس أثر التصوف فى الأدب والأخلاق »[١]. ولا ننس كذلك أن زكى مبارك قد بدأ حياته بالانخراط فى سلك الصوفية ، بل جاء عليه يوم كان له فيه مريدون وأتباع .

ومّما يلفت النظر أيضًا فى بعض تعبيراته وصوره ربطه فيها بين الخمر أو السُّكْر وأشياء لا يرتبطان بها عادة مثل قوله : « عاقرتُ الثغور »، و « أعاقر الحُبّ » ، و « يعاقر البَرْد » ، و « يعاقر كؤوس الغلّ » ، و « أساقيه صهباء الوجود » ، و « يعاقر الحياة » ، و « نقدّم إليكم البائية النفيسة التى ... تعاقر أفواه المنشدين فتذكّرهم معاقرة الرضاب»، و « امتزج بحياته البيتية امتزاج الماء بالصهباء » ، و«كانت أشعاره فى الحب كؤوسا يعاقرها المقيمون » ، و « معاقرة الحديث » ، «ساقه القلب إلى معاقرة العيون » ، و«اشربوا من الكأس الذى

(١) التصوف الإسلامى / ١ / ١٧ .

شعشعتموه بالسم الزعاف » ، و « أعرف أنك تعاقر من فرح الحياة وحزن الحياة بعض ما أعانى » . وقد كان الدكتور مبارك من معاقرى الكأس وأصبح من مدمنيه فى أخريات حياته ، غفر الله له ، فإنه رحيم كريم .

وقد كان عنده غرام شديد بجمع النعت الخاص بجمع غير العاقل، على حين أنه فى الأسلوب المعتاد ، والأسلوب الحديث بالذات ، يجيء مفرداً . ومن الأمثلة فى هذا الصدد : « العادات الصوالح » و «التقاليد الصوالح » و«التقاليد الفواسد » و « الآثار الخوالد » و « أبيات لطاف» و « أيامه الخوالى » و « قصائده الجياد » و « ديون ثقال » و«الأهواء الساميات» و « ألوان مختلفات » و « القلوب الخواضع » و« التُّهَم الجوارح » و«القلوب الخوامد » و « الحجج الدوامغ » و«مقدمات ثقال» و«أساليب مختلفات» و « أزهاره الضواحك » و« أنفاسى الحِرَار» و«أحلام شوائق» و « صفحات موجِعات » و«سهرات كوامل » و«أخلاق صحاح» و « أحاديثه الصوارخ » و « ربوعها الفِيح» و«الإشارات العوابر» و « الحجج البواقى » و « المتاعب الثقال » ... إلخ. وليس معنى ذلك أنه لا يستخدم النعت المفرد فى مثل هذه الحالة . كل ما هنالك أن جمع هذا اللون من النعوت يكثر عنده كثرة مدهشة رغم أنه يرى أن إفراد الصفة فى هذه الحالة أفصح ، ويستشهد على ذلك بما يقوله الأجهورى :

وجمع كثرة لما لا يعقلُ     فالأفصح الإفراد فيه يأقل

وغيره فالأفصح المطابقة     نحو « هبات وافرات » لائقة



ويسوق أمثلة له من القرآن الكريم . بل إنه ليتوسع فى هذا الاستعمال حتى ليعمِّمه على الصفة التى يكون مفردها « فَعْلاء » ، مثل «شمائل غرّاء» و « أفعال جوفاء » . وكانت هذه المسألة مثار معركة لغوية بينه وبين بعض كتّاب العراق[1] .

ويحتاج استخدام كلمة « روح » عند زكى مبارك إلى بعض التوقف: فهو يذكّرها دائمًا إذا استعملها فى معناها المعروف، أى قسيم الجسد . لكننا كثيراً ما نجده يستخدمها بمعنى «إنسان» أو « إنسانة »، وبخاصة الحبيبة ، ومع ذلك فإنه ، حتى فى القسم الثانى من هذه الحالة الأخيرة ، قد يذكّرها . وإليك أمثلة على هذه الاستخدامات : «إن ذلك الروح الجبار ، روح الرجل الذى اتهمه معاصروه بالشعر والسحر والجنون ... ، هو شعلة أبدية ستظل ما بقيت الأرض والسماء فتنة للعقول والقلوب»[2]، « ويرون التلاميذ هم أنفسهم لم يتغيروا ولم يتبدلوا ولم يُنْفَخ فيهم روح جديد »[3]، « ومنزلنا فى سنتريس لم تدخل فيه الخمر لأن أبى رحمه الله لم يكن يتصور أن ذلك من الممكنات ، وسيصان منزلنا فى سنتريس عن الخمر تكريما لذلك الروح النبيل »[4]، « كيف يكون شعور ذلك الروح فى تلك الأرض ، الروح الذى اسمه الشريف

(١) انظر فى ذلك عبد الرزاق الهلالى / زكى مبارك فى العراق / ٣٠٦ ، ٣١١ - ٣١٢، ٣١٩ - ٣٢١ .

(٢) المدائح النبوية / ١٠ .

(٣) الأسمار والأحاديث / ٤٩١ .

(٤) ليلى المريضة فى العراق / ٢٦٣ .

الرضى فى الوطن الذى اسمه العراق؟ »[١]، « والجمع بين الفخر والنسيب كثير فى شعر الشريف ، وهو شاهد على اشتباك النوازع فى تلك الروح »[٢]، « تلك الروح هى التى أوحت « غرام يوم الثلاثاء » ، وهى التى أوحت قصيدة « أدب الربيع » ، وهى التى أوحت قصيدة « قلب تثيره العواطف » ، « هل أسمى تلك الروح ؟ لن أسميها ، ولن أقول إنها « بَغُوم » ... »[٣]، «حين يمرض الجسد يمرض الروح»[٤]، « كتب أحد أدبائكم يقول إن الإسكندرية تقتل الروح الأدبى »[٥]، «ما هذا الذى يدّعيه الدكتور طه حسين حين يقول بأن الكتابة فى تقوية الروح الوطنى من الأدب الرخيص؟ »[٦]، « علينا أن نجارى روحك المبدع فنكون من أقطاب الشعر والبيان »[٧]، «ألا ترى أن روح القاهرة ظل قهّارا برغم عوادى الحرب؟»[٨]، « أحيا حياة شقية سوداء لأن روحى يعيش بلا رفيق ولا أنيس »[٩]، «أين الروح الذى يُغْدِى روحى بالجذل والفرح والابتهاج؟»[١٠]، « تذكرى أن روحى سيحوم حول دارك فى كل وقت وهو

---

(١) عبقرية الشريف الرضى / ١٥ .

(٢) المرجع السابق / ١٩٧ .

(٣) ألحان الخلود / ١٣ .

(٤) المرجع السابق / ١٢٨ .

(٥) الحديث ذو شجون / ١٣ .

(٦) المرجع السابق / ٤٨ .

(٧) السابق / ٣٥٤ .

(٨) السابق / ٥٠٧ .

(٩) مجنون سعاد / ٨٠ .

(١٠) المرجع السابق / ٨١ .



ظمآن »[١]، « ولكن الروح[٢] الذى أوحى القصيدة عليل ، ولم يخرج من داره فى يوم العيد »[٣]، « سأومن بأن غنائى موجه إلى الروح[٤] العليل، شفى الله من أجله كل عليل ، وجعل الدنيا فداءً لروحه الجميل»[٥].

وكثيراً ما يَعْدِل الدكتور مبارك عن ذكر اسم الشخص الذى ينتقده ويستخدم بدلاً منه كلمة « فلان » ، وفى بعض الأحيان يكون التعرف على الشخص المشار إليه سهلاً مع ذلك . وهو نوع من الفكاهة والتظرف والترفع لا أعرف من يفعله على هذا النحو غير زكى مبارك : « أنا أعرف أن موتى يوم يحين سيكون فرصة لقوم كدّرت صفوهم حياتى ، ولكننى مع ذلك راضٍ عما صنعتُ حين تصدّقتُ فخلّدتُ أسماء لا تستحق الخلود من أمثال السادة فلان وعلان وترتان ! وهل فى التصدق على الجاحدين من بأس ؟ »[٦]، « وهو فى تكوين وجهه يمثل القرد أكثر مما يمثل الإنسان ، بعكس صديقنا فلان ، الذى يمثل الإنسان أكثر مما يمثل القرد »[٧]، « كنت أخترع أسماء وهمية للباحثين والمفكرين ، فكنت

---

(١) السابق / ١١١ .

(٢) يقصد حبيبته .

(٣) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ٢٣٠ .

(٤) يقصد حبيبته .

(٥) المرجع السابق / ٢٣١ .

(٦) الأسمار والأحاديث / ١٢ .

(٧) المرجع السابق / ٤٦٨ .

أقول إن بلدنا هو الذى ينبغ فيه فلان وفلان ، وهى أسماء تحلّى بها بعد ذلك جماعة من الناس »[١]، « اكتم غرامك ونافق كما يصنع فلان ، الذى يلقى الله بالفجور ويلقى الناس بالعفاف »[٢]، « سمعت بعد ذلك أن الأستاذ فلان كان يشرب مع الشاعر فلان ، وكانا من أقطاب الزمان ، فكان الأول إمام العلماء ، وكان الثانى أمير الشعراء »[٣]، « لقد أحصيتُ ما كتبتُ فى هذا العام فوجدته يزيد على خمسة آلاف صفحة ، ونظرت فيما ألقيتُ من الدروس والمحاضرات فى بغداد فوجدته يزيد على ما أذاعه الأستاذ فلان فى عشر سنين »[٤]، « كنت أفتش المدارس الأجنبية بالإسكندرية أيام الغارات فلم أتردد لحظة فى أداء الواجب ، ولم أنكص على عقبيّ كما نكص بعض المفتشين ، ولم أخَفْ كما خاف وزير المعارف واسمه فلان »[٥]، «لا يعيش الأديب فى مصر إلا إذا تخلّق بأخلاق فلان»[٦]، « أما صديقى فلان فهو غاية فى الأدب والذوق »[٧]، « وأنا حين أغضب على صديق أطوى الصفحة وأدفن غضبى فى صدرى فلا أخبر أحداً بغيظى . وأنا لا أغتاب أعدائى ، فكيف أغتاب

---

(١) ليلى المريضة فى العراق / ٥٥ .
(٢) المرجع السابق / ١٢٩ .
(٣) السابق / ٢٦٣ .
(٤) ملامح المجتمع العراقى / ٣٠٨ .
(٥) ألحان الخلود / ٩٢ .
(٦) الحديث ذو شجون / ١٩٨ .
(٧) المرجع السابق / ٢٢٢ . وهذه العبارة ليست فى الانتقاد بل فى المدح ، ولكن الشيء بالشيء يذكر .



أصدقائى ؟ ثمَ أطفئ غضبى بنظم الشعر فى محاسبة الغادرين فيستخفهم الطرب حين يرونه مسطوراً على صفحات جريدة « البلاغ » ، ثم يَمُنّون عليّ بأنهم أوْحَواْ إلى خاطرى شعر جميلا . وهو كذلك ! فاسمع حتى تشبع يافلان ، ولتكن قصيدتى تحية العيد »[١]، « ذهبت مع الصبح فى سيارة إلى جريدة « البلاغ » لأسأل عن السبب فى منع مقال حذفه الإنسان ... هل يستطيع هذا الإنسان أن يمنع نشر هذه الأبيات : ... ؟ »[٢]، ورأى المسيو فلان أننى مأزوم ، وكان أكبر أساتذتى ، فأوصى جريدة «الجولو» أن تأخذ منى مترجمات عن الأدب العربى »[٣]، « لو أننى اتجرت بالتراب وأضعت عمرى فى طلب المال حيث توجد منابعه لصرتُ كما صار إليه فلان »[٤]، « لقد استخدمنا كثيرين من أمثال فلان وفلان وفلان ، وعجزنا عن استخدامك »[٥]، « تجاهل آراء الدكاترة زكى مبارك لأن هؤلاء الدكاترة لا يعترفون بقيمة الأنظمة الإدارية التى يجيدها الأستاذ الفلانى والأستاذ العلانى »[٦]، « هذا الفلان الذى جُنّ له الدهر فصار عضواً بالمجمع اللغوى مثله مثل الطبيب

---

(١) أحلام الحب / ٤٨ .
(٢) أطياف الخيال / ٦٨ .
(٣) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك/ ٤٦ .
(٤) المرجع السابق / ١١٩ .
(٥) السابق / ١٥٣ .
(٦) السابق / ١٥٧ .

الذى دُعِيَ لمعالجة مريضة فأعطاها جرعة من السم لتموت »[١]، « ليس لى أن أعترض لأنى موظف بعقد ، والوظيفة قد تطير إذا قلت كلمة الحق. ولن أقولها أبداً ، فوكيل وزارة المعارف ، واسمه فلان ، له كتاب فى التاريخ قال فيه إن سكان بغداد فى عهد الرشيد كانوا مليونين. وهذا مستحيل يا سعادة الوكيل ! إن سكان العراق لهذا العهد أربعة ملايين ، فكيف كان سكان بغداد فى عهد الرشيد مليونين؟ »[٢]، « لو كان محمد رجلا من أمثال فلان وفلان وفلان من الذين نقلوا أممهم من حال إلى أحوال لملأ الدنيا بالحديث عما صنع للحياة من أصول وقوانين »[٣]، «كان فلان ولا يزال من أهل الرأى وأصحاب الخيال ، وكذب من ادّعَوا أنهم قوّلوه ما لم يقل وأنهم مصدر الوحى لأدبه الجميل . فهل نرجو أن ينظر فلان فى هذه الكلمة الخالصة لوجه الأدب والحق فيكتب اللغة الفصيحة على سجيته وفى حدود ما يطيق ليصبح بعد قليل وهو من أساطين البيان ؟ فلان شخصيته كريمة الجوهر ... فارجع إلى طبعك يا فلان ... »[٤].

ويرتبط بهذه السمة فى أسلوب الكاتب قوله فى مقال له بعنوان «رسالة خاصة إلى أستاذ » ، وكان قد وصلته رسالة من الطالبة نعمات

(١) السابق / ١٥٨ .

(٢) السابق / ١٦٨ .

(٣) ملامح دينية بقلم زكى مبارك / ٤٩ .

(٤) المرجع السابق / ١٣٩ . والنصّ من مقال بعنوان « نهاية فلان » نُشر فى مجلة « الرسالة » / العدد ٦٥ / سنة ١٩٤٢م .



أحمد فؤاد : « لن أذكر اسمها ، ولن أقول إنها نعمات أحمد فؤاد بطرف الأستاذ محمود العزب موسى بجريدة الأهرام »[١]. أليس هذا هو الظرف بعينه ؟ إن هذا يذكّرنا بالحكاية التى تقول إن أحد الدائنين ذهب إلى بيت مَدينه ليطالبه بحقه عنده، فلما دقّ الباب خرجت له ابنته الصغيرة فسألها عن أبيها فكانت إجابتها : إن أبى يقول لك إنه غير موجود !

ومما يتميز به أسلوب زكى مبارك أيضا ما يجده القارئ فيه أحيانًا من سجع وموازنة وترادف ، وقد كان يقصد هذه المحسنات البديعية الثلاث قصداً فى بعض المواضع من كتاباته الأولى ، وبالذات فى كتابيه : «حب ابن أبى ربيعة وشعره » و « مدامع العشاق » ، ثم خفَّت هذه النزعة فى كتاباته اللاحقة وأصبح الأسلوب أكثر انسيابية رغم أننا لا نزال نقابل هذه الألوان البديعية بين الحين والحين ، ولكن أصبحت تأتى وكأنها وقعت عفو الخاطر . وهذه بعض الشواهد على ما نقول : « هو إذن رأى أدين به وأذهب إليه ، فلست والله سئ القصد ولا أسود الغرض ، ولا أنا ممن يعيشون فى الأرض ويهتكون الحرمات . فليطمئن أساتى المشفقون عليّ من تقول المفترين وتزيد المعتدين ، فقد صممت منذ زمان على أن أساير الفطرة وأجارى الطبيعة ، وأن أقف حتى يقفنى وحى الواجب وصوت الضمير »[٢]، « تلك سبيل الشعراء المفجَّعين الذين كانت قلوبهم أعوانا للدهر عليهم ، وكانت نفوسهم أخصامًا لهم . أولئك هم

(١) سيرة حياة الدكتور زكى مبارك / ١٢٨ .

(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره / ٢١ .

المعوزون فى عالم المحبة ، والمحرومون فى دولة الصبابة »[١]، « شابَها بنوع من الحرية وقسط من الاختيار يتمثل فى إقبالنا على الحسن إقبال السارى على القمر ، والصادى على النَّهر »[٢]، « وماذا أصنع بالأشجار والأزهار والثمار والأنهار ، والكواكب والنجوم ، والسهول والحُزون ، والجبال والوديان ، والطيور الصوادح والظباء السوانح ؟ ماذا أصنع بكل أولئك إذا لم يكن معى إنسان أطارحه القول وأساجله الحديث وأساقيه صهباء هذا الوجود ؟ وهذا الإنسان ، أليس لى الحق فى اختياره قبل اصطفائه؟ وكيف أختاره إن لم أحكِّم الذوق فى تمييز جسمه وروحه، وعقله وشعوره ، وحسّه ووجدانه ؟ وما قيمة الليل إن لم تُظلِّنى فى الحب ظلماؤه ؟ وما قيمة البدر إن لم يذكِّرنى بالثغر لألاؤه ؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزنى إلى ضمّ القدود ؟ وما حسن الأزهار إن لم تَشُقْنى إلى لثم الخدود ؟ »[٣]، « ومن المحبين من تنمّ عليه دموعه الغزار، وأنفاسه الحرار »[٤]، « فكلّ زهر إلى ذبول ، وكل جمر إلى خمود ، وكل حسن إلى فناء ، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفانى ، والجمال الزائل »[٥]، « الشعر فى نظر العرب يدعو إلى شريف الخلال ، وكريم الخصال ، أو يبدع صوراً للذائذ الحسية والمعنوية ، فالحق العالى الصرح

(١) المرجع السابق / ٩٤ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) مدامع العشاق / ١٤ - ١٥ .
(٤) المرجع السابق / ٦٦ .
(٥) السابق / ٧٠ .



والباطل الواهى الأساس ، والفضيلة العالية والرذيلة السافلة ، كل أولئك مما يقع تحت حس الشاعر المبدع ، فهو فاضل إن دعا إلى الفضيلة ، وناقصٌ إن زيّن الرذيلة . وهو على كل حال معروف بالقدرة على وصف ما يدعو إليه العقل ، أو يرنو إليه القلب »[١]، « لا يعرف غير آداب الفتيان فى الكيد للأعداء ، والبرّ بالأصدقاء »[٢]، «ولكنها غاية فى الجمال إن تمثلنا الصورة التى قدمها بوحى الشعر والخيال »[٣]، « هم ظَلَمةٌ عاونوا الظالمين ، وخَوَنةٌ عاونوا الخائنين»[٤]، « تجول فى الأندية والمجالس بلسان مسموم لا يكبحه عنان ، ولا يصدّه وثاق »[٥]، « وأهل مصر من أرباب القلوب ، وإن زعم الزاعمون أن هواهم لا يجاوز ضفاف النهر الميمون الغدات والروحات ، النهر الذى يحفظ عهد الأخوة لدجلة والفرات »[٦]، « فهو يريد أن نَعْرف الإنجليز فى محاسنهم التى خلا وصفها من الترفق والتلطف ، وفى مساويهم التى سلم وصفها من التزيد والافتراء »[٧]، « الكُتّاب الكبار قد يَشْقَوْن فى تحبير ما يكتبون أعنف الشقاء ، ولكنهم ينتهون إلى عرض آرائهم بأساليب هى الغاية فى

(١) أحمد شوقى / ٢٤٢ .
(٢) العشاق الثلاثة / ٣٢ .
(٣) المرجع السابق / ١٠٤ .
(٤) المدائح النبوية / ١٠٨ .
(٥) ملامح المجتمع العراقى / ٧٨ .
(٦) المرجع السابق / ٢٧٢ .
(٧) زكى مبارك ناقدا / ٢٤ .

الوضوح والجلاء »[1]، « فحياته فى الموت ، ونباهته فى الخمول »[2].
على أن هناك كتابات للدكتور مبارك ، رحمه الله ، تقرأ منها الصفحات تلو الصفحات فلا تكاد تحس شيئًا من هذه الأصباغ البديعية، وهى كتاباته المتأخرة التى كان قلمه ينطلق فيها انطلاقًا فيعبّر عما فى عقله أو قلبه تعبيراً مباشراً بسيطًا دون التفات إلى هذه الموسيقى الأذنية .

وبعد ، فهذه خصائص أسلوب زكى مبارك قد فصّلت القول فيها وأكثرت من الشواهد على كل خصيصة منها لتكون محفورة فى وعى القارئ وذاكرته ولكى أقيم جسراً بينه وبين أديبنا العبقرى فيعرفه عن قرب على رجاء أن يغريه هذا بالاتصال بكتاباته اتصالاً مباشراً . ذلك أن كتابات هذا الأديب تفتقر إلى الانتشار الذى تحظى به كتب العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ مثلا رغم أنه من كبار رجال الأدب العربى وأصحاب الأساليب المتميزة ، وكل ما كتبه يحوى من المتعة والإفادة مقداراً هائلاً . ولقد ظُلِم الرجل فى حياته ، فنرجو أن تنقشع غمامة الغَبْن عن أفق مؤلفاته ويأخذ مكانته التى هو جدير بها أيما جدارة فى سجلّ أدبنا العريق .

وقد رَدَّد هذا الرجاءَ نَفْسَه الأستاذ رجاء النقاش فى مقال له عن أديبنا نشره فى « الأهرام » بعنوان « ليس لى فى الحكومة عمّ ولا خال»، إذ قال : « وأنا أحلم كثيراً بأن تتذكره بلادنا ولا تنساه ، فقد

(١) المرجع السابق / ١١٥ .
(٢) السابق / ١١٦ .



كان مبدعًا وجَميلاً ونبيلاً فى حياته وأدبه . ومن عاداتى الثابتة أننى أعود إلى كتاباته كلما أصابنى قلق فى تفكيرى أو مشاعرى ، ولا أكاد أبدأ فى قراءته حتى « أضحك » من قلبى وتهدأ أعصابى ، فهو مفكر وأديب نادر يثير فى النفس الحماس والثقة بالحياة ، ويجعلك تتلقى أدق المعلومات وأنت مبتهج ، وتعيش مع أعمق الأفكار وأنت تضحك ، وتشعر بأنك تعيش مع عقل جبار يدفعك دفعًا إلى أن تقتحم الحياة بشجاعة ودون أى خوف »[1].

على أن هناك كلمة أخيرة أحب أن أسجلها قبل أن أترك هذه الدراسة التى أرهقتنى إرهاقًا ووجدت فيها من المتاع مع ذلك شيئًا كبيراً. ذلك أن الأستاذ عباس العقاد ، طيب الله ثراه ، كان قد كتب فى عام ١٩٤٣م فى مجلة « الاثنين » : « إن الدكتور زكى مبارك أقل الكتاب شخصية فى حياته الأدبية ، وإن أسلوبه الكتابى معروض لتوقيع من يشاء » . وقد ردّ عليه الدكتور زكى قائلاً : « بأى منطق وبأى حق يقول العقاد هذا الكلام الغريب ؟ هل يستطيع أن يدلنا على كاتب يضع اسمه على كتاب « النثر الفنى » أو كتاب «التصوف الإسلامي» أو كتاب «عبقرية الشريف الرضى » أو كتاب « ذكريات باريس » أو كتاب «اللغة والدين والتقاليد » إلى آخر ما أخرجتُ من مؤلفات ؟ ... وما رأى الأستاذ العقاد فى المقالات التى أنشرها بمجلة « الرسالة » من أسبوع إلى أسبوع ؟ أيظنها معروضة لتوقيع من يشاء كما يقول ؟

(١) الأهرام / ٨ يناير ١٩٩٥م / ٢٠ .

مجموعات « الرسالة » تشهد بما أملك من قوة الذاتية ... قال الأستاذ العقاد : « زكى مبارك الكاتب لا يستغنى عن زكى مبارك بحال من الأحوال إذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم فى بعض الأحيان » . وهذا حق وصدق ، وهو الدليل على ما أملك من قوة الذاتية »[1]. وأنا ، رغم إجلالى للعقاد مفكراً وأديبًا وشاعراً ومنافحًا عن الإسلام والعروبة والحرية ومعتزاً بنفسه وقلمه غاية الاعتزاز إجلالاً لا يَحْظَى بمثله عندى كاتب غيره ، لا أوافقه للأسف على حكمه هذا على أسلوب زكى مبارك وأراه مجحفا . وإذا لم يكن أسلوب زكى مبارك متميزاً فلا أظن من الممكن أن يكون هناك أسلوب متميز لأى كاتب من الكتاب ، ولقد مات الرجل منذ نحو خمسين سنة ولم يظهر حتى الآن أسلوب يشابه أسلوبه .

(١) الحديث ذو شجون / ٣٥٩ ـ ٣٦١ .



# الفهرست